خمسة كتب ..

علي جواد الطاهر

أستاذ (متقاعد) جامعة بغداد

دكتور أحمد إبراهيم الهواري ـــ مصادر نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر. القاهرة، دار المعارف ١٩٧٩ ـــ ٣٤٠ ص.

١ ـــ الكتاب قيم وجهد المؤلف مشكور، وقد جعله صاحبه في قسمين، الأول: يقوم على اختيار نماذج من النصوص النقدية؛ الثاني: يحاول رصد المقالات النقدية وتصنيفها وفقا لتاريخ نشر المقال في الدورية. الكتاب بمثابة بنك معلومات Data Bank يضع أمام الباحثين والنقاد مصادر نقد الرواية ليسد ثغرة تفتقر إليها الدراسات النقدية حول هذا الفن ـــ المقدمة.

٢ ـــ يا حبذا لو عمل المؤلف للقصص القصيرة شيئا مما عمله للرواية.

٣ ـــ وحبذا لو كان للأقطار العربية الأخرى كلبنان وسورية والعراق .. شيء مما كان لمصر، يقوم به باحثون من الأقطار نفسها.

٤ ـــ المقصود «بالرواية» من كتاب الدكتور الهواري: الرواية القصصية، لأن للرواية التمثيلية (المسرحية) مكان آخر غير هذا الكتاب بالعنوان الذي جاء عليه.

ومعلوم أن العرب المحدثين اضطربوا طويلا في موقفهم من المصطلح الغربي، وفي موقفهم هنا على وجه الخصوص فأطلقوا الرواية على المسرحية (أول الأمر).. ثم اختصوا بها القصة الطويلة وسحبوها نهائيا عن التمثيلية (المسرحية)، ومن هنا كنت تراهم يقولون مرة «الرواية» وهم يقصدون إلى المسرحية، ويحسون مرة أنهم إزاء نوعين مختلفين من «الرواية» فيقولون: الرواية التمثيلية والرواية القصصية.

والمهم في الأمر الذي نحن فيه أن الرواية التمثيلية التي هي المسرحية لا تدخل في موضوع الكتاب، لأن المسألة مسألة المسمى وليست مسألة الاسم ـــ وكان المناسب أن يتنبه الدكتور الهواري أو أن ينبه في المقدمة إلى ذلك ومن ثم يقرر موقفه ويتجنب اضطرابا لا يسلم من الوقوع فيه.

أقول هذا وأنا اطالع أول مادة من فرع «في مهمة الرواية» من القسم الأول (النصوص):

« الروايات والروائيون لحضرة الكاتب البارع سليم (أفندي) الخوري، نقلا عن مجلة الضياء ١٥ أبريل سنة ١٨٩٩، ص ٤٥٧» ويرد أكثر الكلام فيه على الروايات التمثيلية. وكان المناسب في الأقل تنبيه القارىء إلى الاضطراب في مصطلح الرواية أو أن الرواية كانت تعني أمرين (وتنظر ص ١٩).

أما مقالة «أبطال القصص» لإبراهيم المصري التي جاءت طليعة الفرع الثاني (في طبيعة الرواية) من القسم الأول نقلاً عن جريدة «البلاغ اليومي مارس ١٩٣٢،

ص» فمدارها هملت لشكسبير، وهملت — كما هو بديهي — رواية تمثيلية (أي مسرحية) وليست رواية قصصية.

ونأتي إلى القسم الثاني فنرى في الدليل (ص٢٢١) رواية روميو وجوليت، و(ص ٢٢٣)، رواية هملت و(ص ٢٢٦) رواية عطيل ولا شك في أن هذه الروايات الثلاث ليست روايات قصصية مما هو داخل في مدلول عنوان الكتاب ومبتغاه، وإنما هي روايات تمثيلية (مسرحية) ليست من خطة الكتاب . وقد تعامل المؤلف معها على ظاهر اللفظ وليس على جوهر الدلالة.

وأحسب أن بين ما ورد في الصفحات الأولى من الدليل مسبوقاً بكلمة رواية ما يمكن جداً أن يكون رواية تمثيلية (مسرحية) خارج نطاق خطة الكتاب فلقد كانت الرواية — في البداية — كما رأينا — تطلق على القصة الطويلة كما تطلق على المسرحية (ولم تكن كلمة المسرحية قد ولدت).

وأكبر الظن — ومن الظن يقين — أن مقالة «المراسح والروايات» الوارد ذكرها على (ص ٢١٧) مما كتبه حنا نقاش في مجلة الهلال، أول يوليو ١٨٩٤ — هي مقالة عن الروايات التمثيلية (المسرحية) ولا أدل على ذلك من ارتباطها بالمراسح أي المسارح.

وتأتي مسألة أحمد شوقي واضحة الدلالة، ومعلوم أن أحمد شوقي كان يسمي «مسرحياته» روايات، فقد ذكر المؤلف على (ص ٢١٩) : «عذراء الهند، الهلال، أول فبراير ١٨٩٨» لأحمد شوقي وقبل ذلك بأسطر ذكر «عذراء الهند، محرر مجلة البيان ١٦ ديسمبر ١٨٩٧».

ونعلم أن عذراء الهند رواية (مسرحية) لأحمد شوقي.

وذكر المؤلف في هامش (ص ٢١٩) : «نشرت مجلة «الموسوعات رواية لادياس أو آخر الفراعنة لأحمد شوقي مسلسلة العدد الأول السنة الأولى ١٨٩٨/١١/١٥» وعلى ص ٢٢٠ «رواية لادياس، محرر مجلة الهلال، أول يوليو ١٨٩٩».

ونعلم أن «لادياس» رواية (مسرحية) . وأمر كليوباطرة مشهور (ص ٢٢٣).

ولا شك في أن ذلك يأتي سهواً من المؤلف أو تأثراً بكلمة «رواية» التي لم تكن قد تحددت بالعمل القصصي.. ولا نريد أن نقول اضطرابا في المنهج..

إذا كان لشوقي عمل قصصي أو قريب من القصصي فهو «شيطان بنتاءور أو لبد لقمان وهدهد سليمان» وقد نشر سنة ١٩٥٣ بتحقيق محمد سعيد العريان (القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة الاستقامة).

ولا نطيل .. والأمل أن يعيد الدكتور الهواري النظر في كتابه ويحدد في المقدمة صراحة دخول الرواية التمثيلية فيه أو خروجها .. لدن وقفة منهجية عند تحديد المصطلح، فإذا قرر إدخالها كسر لها بابا خاصا ولزمه الاستقصاء والاستيفاء.

٥ — وإذا عدنا إلى المصطلح مرة أخرى، من وجهة أخرى رأينا الرواية (القصصية) غير القصة (القصيرة) والأقصوصة، ومعنى ذلك أن القصة (القصيرة) أو الأقصوصة لا تدخل في مضمون كتاب الدكتور الهواري : «مصادر نقد الرواية...» وقد لاحظنا ذلك واتضح لدينا وتمنينا لو جرى عمل آخر مستقل في «مصادر نقد القصة..» ولا أدل على أن المؤلف لم يرد إلى إدخال «مصادر نقد القصة...» في عمله من أنه لم يجعله في صميم العنوان وفي سطور المقدمة، ولو شاء لجعل العنوان مثل: «مصادر نقد الفن القصصي..» أو — في الأقل — مصادر نقد القصة. وكلمة قصة يمكن أن تشمل بدلالتها العامة الرواية والقصيرة.

ودليل آخر على أنه لم يدخل القصة القصيرة في خطته أنه لم يختر في القسم الأول من كتابه وفي النقد التطبيقي منه خصوصاً ما يختص بالقصة القصيرة.

ولكنه حين جاء إلى الدليل في القسم الثاني أورد عدداً من المجاميع القصصية، ومن ذلك (ص ٢٢٧)

العبرات، (ص ٢٢٩) عم متولي وقصص أخرى، (ص ٢٣٠) سخرية الناي، (ص ٢٣١) الأقصوصة القديمة، (ص ٢٣٢) القصة القصيرة في الأدب المصري «.. أبو علي عامل أرتست .. قلب غانية وقصص أخرى» ومجموعات غير قليلة من قصص محمود تيمور تبرز بينها على وجه الخصوص «فرعون الصغير».

أريد أن أقول: إن مجاميع قصصية وردت في الدليل، ومقالات عن القصص القصيرة وردت كذلك .. فما معنى ذلك؟ هل القصة القصيرة رواية؟ لا. هل هي جزء منها؟ لا. هل أراد المؤلف بالرواية التعميم؟ لو كان ذلك لوجب التنبيه إليه صراحة في المقدمة ولكان للقصة القصيرة نصيب واضح في القسم الأول من الكتاب هذا إلى أن عشرات من مجاميع القصة القصيرة المصرية صدرت وكتب عنها — دون شك — ولم يرد لها ذكر في الدليل وأقرب مثل إلى ذلك مجاميع لنجيب محفوظ وأخرى ليوسف إدريس ناهيك عمن سواهما.

وقد يبدو عجيبا أن الدكتور الهواري عمل (ص ٣٢٥) «كشاف الروايات» ذكر تحته ما ورد في كتابه من مسرحيات وقصص قصيرة بين ما ذكر من روايات!.

إنك لواجد فيه بين الروايات مثل كيلوباطرة وشباب وغانيات .. وهملت بل إنك تجد ما ليس برواية أو مسرحية أو قصة مثل «أبو الهول يطير» وهو كتاب رحلة لمحمود تيمور و«النظرات» وهو مقالات للمنفلوطي.

ونعود مرة أخرى إلى المنهج وضرورة تحديد الموقف الصريح من القصة القصيرة ومن ثم الالتزام بالموقف. وليس معقولاً، على أية حال، أن يكون عنوان الكتاب: «الرواية» ويشمل بحثه القصة القصيرة ثم إذا كان الكتاب العتيد قائما أولا وأخيرا على الرواية فلم هذا العدد الكبير من المجموعات القصصية في الدليل، وإذا كان يرى القصة القصيرة جزءا من الرواية — وهذا غير مقبول كما رأينا — فأين معالجة القصص القصيرة على وجه الكمال والدقة أي لم هذا الغياب الذي شمل عدداً كبيراً من المجاميع القصصية؟.

وأخشى أن يكون الدكتور الهواري يعتمد — أحيانا — على العنوان أو على الذاكرة، ولا يحاول رؤية الكتاب نفسه — و«تصفحه» — في حالة إمكان الرؤية والاطلاع المباشر.

٦ — حسنا فعل المؤلف إذ تنبه إلى مقالة عراقية نشرت في مجلة سورية عن رواية مصرية فإن ذلك لا يأتي سهلا. أقصد مقالة محمود أحمد التي نشرها في مجلة الحديث الحلبية (آذار ١٩٣٢، ص١٩٥) بعنوان إبراهيم الكاتب وسانين يثبت فيها أن المازني في روايته سرق من آرتزيباشف.

وقد أورد المؤلف نص المقالة ص ١٠٤ — ١١١.

لكنه وقد تحدث عن «سخرية الناي» (ص٢٣٠) نذكر أن محمود أحمد كتب عنها وعن «يحكى أن» في جريدة البلاد (البغدادية) س١، العدد ١٤٩، ٥ (ايار) ١٩٣٠ — نذكر هذا من باب الفائدة وإلا من الصعب جداً أن يلم مؤلف مصري بما نشر عن الأدب المصري في سائر الأقطار العربية. ويا حبذا لو يتطوع العارفون من كل قطر بتزويد المؤلف المصري ما لديهم، وتزويد الدكتور الهواري بهذه المناسبة فذلك واجبهم أكثر منه واجبه. وأذكر — بهذه المناسبة — أن لمحمود أحمد مراسلات مع محمد أمين حسونة. وأن عبد الجبار عباس أكثر من كتب من العراقيين عن القصاصين المصريين.

٧ — وإذا كان «المسح الشامل للعطاء النقدي» الذي قام به الدكتور الهواري «وقد امتد ليغطي مساحة زمنية تبدأ بـ ١٨٨٠ وتتوقف عند عام ١٩٧٠» فإننا نطمع — لدى إعادة الطبع وإعادة النظر في طبعة تأليف — لا تعتمد على التصوير (الأوفست) — أن تمتد المساحة إلى ما يقرب مما سيكون فيه الطبع الجديد ١٩٨٥ وما أشبه.

فالعمل أنموذجي نافع جداً وإننا لنطمع من باحثين آخرين أن يعملوا نظيرا له في نقد المسرحية .. ونقد الشعر، بعد أن رجونا النظير للقصة القصيرة .. في مصر وفي الأقطار العربية الأخرى.

وبالمناسبة : نذكر أنه عمل في العراق كتاب لنقد الشعر.

٨ ــ في مقالة إبراهيم المصري ص ١٨ ــ ١٩ : « .. فيجيء عمله شلوا كسما لا أثر فيه للتماسك والترابط والحيوية والعمق..» «شلواكسما» غير مفهومة، وهو يريد مقطعاً والشلو.

ص ٢٠ «مثل سانت بوف وتاين» : سانت ــ بوف وتين. وفي الاسم الأول خطأ وفي الثاني خطأ في لفظ الاسم الفرنسي Taine

وفي مقالة أخرى ص ٢٦ «يسمح له بتقديس أوقات فراغه لكتابة القصة»: بتكريس.

الأحجام (مفتوحة الهمزة) : الإحجام (مكسورة الهمزة).

ص ٢٨ «أن ينصرفوا بكليتهم» لمن يبحث عن تأريخ الاستعمالات المستحدثة نذكر أن تأريخ المقالة: يناير ١٩٣٢، وإلّا فاستعمال «بكليتهم» ليس من الفصيح.

٩ ــ في مقالة فخري أبو السعود (١٩ أبريل ١٩٣٧) «مشاهدة حوادث الحياة تترى أمام عينيه» استعمل تترى فعل مضارع بمعنى تتوالى، وهو ليس من الفصيح .. ولكنه من استعمال العصر، وينتفع بكلمة فخري أبو السعود من يبحث في تاريخ الاستعمالات.

ص ٢٩ «كان القصص أول صورة الأدب ظهوراً .. كان .. مملوءا بالخرافات والأوهام دائراً حول الآلهة والملوك والأبطال والقبائل، وبالجملة كان قصصاً رومانسياً تكثر فيه الخوارق والعظائم والمفاجآت والمخاطرات..»

الرومانسي هنا نسبة إلى الرومانسي Romance إذا كان ولا بد، وإلّا ــ فلم تكن الرومانسية (الرومانتيكية) قد ولدت مذهباً أو مصطلحاً.

ص ٣٠ يستعمل «الضرب» ما نعنيه اليوم إذ نستعمل «النوع» و«الجنس» ترجمة له Genre.

ص ٣٢ ــ ٣٤ من المقالات «المبكرة» التي عرضت للقصة في الأدب العربي، وعرض للمقامات وقال: «... مقامات البديع في الأدب العربي بمثابة مقالات أديسون وستيل في الأدب الانجليزي، تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلية، بيد أن تطور القصة العربية وقف عند هذا الحد لا يتخطاه...» ــ ولا يخلو الحكم من مجازفة..

ص ٣٤ «النذر اليسير » : النزر ــ والخطأ يرجع إلى لسان عامل المطبعة الذي يلفظ الذال زايا فإذا أراد التنبه اختلط الأمر عليه فجعل الزاي ذالا.

١٠ ــ في مقالة نعمان عاشور (١٦ أغسطس ١٩٤٥) ترد ص ٣٥ «صنوعة» مرتين وهو يريد صنوع.

ويرد ص ٣٦ «جورج زيدان» : جرجي.

ويرد ص ٣٧ «الجيل الذي تلي عمالقة الرجعية» تلا، وترد «مصائرهم» : مصايرهم.

دكتور لويس عوض : دراسات في النقد والأدب. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، دار الجيل للطباعة د.ت ــ ٣٩٢ ص.

١ ــ «هذه طائفة من المقالات والبحوث ، منها ما نشر في جريدة «الشعب» عامي ١٩٥٧ و١٩٥٨، ومنها ما نشر في جريدة «الجمهورية» عامي ١٩٦٠ و١٩٦١، ومنها ما نشر في جريدة «الأهرام» عامي ١٩٦٢ و١٩٦٣..»

هذا كلام جاء في صدر المقدمة ذات الصفحة الواحدة. أنقله لكي أقول أولاً، إنها ليست بحوثاً، لأن البحوث ــ منطقيا ــ لا تنشر في الجرائد اليومية، وهي ليست بحوثاً ــ عمليا ــ لمن اطلع عليها. ولو لم يكن المؤلف «أستاذاً جامعياً» لما كان الحساب! إنها مقالات، ومقالات طريفة أحيانا وكأن المؤلف يسعى «للخفة» والتخفيف .. ومن أمثلتها «الرائد الذي أيقظ العقول»، يقصد سلامة موسى. ولو كان الكلام بحثاً لما استساغ ــ منهجياً ــ العنوان. أما في المقالة فهو عنوان محبب.

وأقول ثانيا ، إنها ليست دراسات، وقد وضح هذا من حيث انها ليستو بحوثاً. وأحسب أن الأستاذ المؤلف يعرف جيداً مدلول «بحث» و«دراسة» في أكثر من لغة

إنها مقالات .. ومقالات صحفية. وليس في ذلك عيب، ولا مانع يمنع من جمعها في كتاب ــ ويذكر أن الغالب على «أسلوب» الكاتب مزيج من طه حسين والعقاد وسلامة موسى، وللأول الأثر الأول.

٢ ــ في مقال «أحمد لطفي السيد» ذكر له (ص ٦٠)، وهو يتحدث عن مقالاته كتاباً واحداً إذ قال: «إن أنت أردت أن تقرأ لطفي السيد لم تعرف أين تقرؤه وكيف تقرؤه إلا إذا كنت من الصابرين ونقبت عن كتاباته في جريدة «الجريدة» التي كان يصدرها قبل الحرب العالمية بين ١٩٠٨ و١٩١٣ أو كنت من المحظوظين وقعت في يدك «منتخبات» من أدبه في جزءين نشر أولهما الاستاذ أحمد الصاوي محمد عام ١٩٣٧ ونشرت ثانيهما مجلة «المتقطف» عام ١٩٤٥، واندثرا الآن مع ما اندثر من صحائف الماضي ومن أجل هذا كان واجبنا أن نحض كل مثقف على قراءة لطفي السيد، وأن نحض الناشرين على نشر تراثه ولا سيما لأن كتابات لطفي السيد نموذج فريد لا شبه له في لغتنا منذ «تخليص الإبريز» و«مناهج الألباب» لرفاعة الطهطاوي، لفلسفة كاملة متكاملة لا لمجرد اتجاه عام أو تأملات عميقة في المجتمع والحياة...»

أ ــ يتحدث أنور الجندي في كتابه «المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام» ١٨٤٠ ــ ١٩٤٠، القاهرة، مطبعة الرسالة ١٩٦١/١٣٨٠؛ يتحدث ص ١٧٣ ــ عن «الجريدة» فيقول: إن «العدد الأول منها (٩ مارس ١٩٠٧) .. » ــ والأمر معروف، ويقول: «صدرت الجريدة من ٩ مارس ١٩٠٧ إلى ٣٠ يوليو ١٩١٥».

ب ــ ليست «المنتخبات» كل ما جمع من «مقالات» السيد فهناك: تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع. القاهرة، دار المعارف ١٩٤٦.

جـ ــ يذكر الدكتور حسين فوزي النجار في كتابه «أحمد لطفي السيد ــ أستاذ الجيل. القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، أعلام العرب (٣٩)، تاريخ المقدمة ٧ رمضان ١٣٨٤/٩ يناير ١٩٦٥»، يذكر في مراجعه مؤلفات «أحمد لطفي السيد (جمع اسماعيل مظهر):

ــ صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر (مصر ١٩٤٦).

ــ المنتخبات : الجزء الأول. دار النشر الحديث ١٩٣٧.

ــ المنتخبات. الجزء الثاني. مطبعة المقتطف ١٩٤٥.

ــ تأملات...

ــ قصة حياتي : سلسلة كتاب الهلال ١٩٦٢».

د ــ « ولا سيما لأن» ، ليست بناء جميلا، خير منها: لا سيما أن ... إذا كان لابد من الاحتفاظ بالصيغة نفسها.

هـ ــ «كتابات لطفي السيد نموذج فريد...

أ ــ نموذج : أنموذج

ب ــ لا شك في الأهمية التاريخية لكتابات لطفي السيد...

ــ ولكن بينه وبين رفاعة الطهطاوي حلقة تذكر إن في «الفلسفة» وإن في لغة الكتابة. تلك حلقة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.. وهو ــ بوجه وآخر ــ من تلاميذها.

و ــ الحض على نشر تراث لطفي السيد وارد، لقيمته التاريخية كما أشار الكاتب، وقد قال «وقد انقرضت فلسفة لطفي السيد وجيله منذ ثورة ٢٣ يوليو لأنها تنتمي إلى عصر غير هذا العصر الذي نعيش فيه ولأنها عجزت عن مجابهة مشكلات المجتمع الجديد..».

في «انقرضت» ذم بعد مدح، أو ذم ومدح

.. وإذا كانت قد انقرضت على هذه الدرجة فلم هذا الاهتمام بها والدعوة إلى نشرها وقراءتها؟ أحسبُ أنها لم تنقرض على الدرجة القاطعة التي بت بها الكاتب، وأقل ما فيها أنها كانت نمطاً من مجابهة جديد عصرها.. ثم إنها إذا كانت قد «انقرضت» من حيث هي فلسفة شخص بعينه، فلم نحشر معها «فلسفة» جيل ذلك العصر. وما أحسب ثورة ٢٣ يوليو وجدت منبتة عن «فلسفة» جيل لطفي السيد أو عصره بمعنى أدق.

على أني، وقد قرأت للسيد «التأملات» رأيت في آثاره ما يمكن أن يقرأ بعد زوال صاحبها، فكيف لو تهيأ لي قراءة «المنتخبات» والجريدة. هذا إلى ما تواتر من أهمية لطفي السيد في الحركة الفكرية (دون أن ينزهه التواتر من اعتدال أو لين أو .. انحراف ما — وإلا فلم الاحتفال بوداع كرومر والعدد الخاص من «الجريدة» بهذا الوداع!).

... يقرأ للفكر .. ويمكن أن يقرأ، وحينئذ يجمع ويعاد نشره، لتاريخ المقالة العربية، ويمكن أن تقرأ هذه المقالات لرصانة اللغة في استيعابها المعنى، ولم يكن هذا تقليداً في اللغة العربية طيلة عهود طويلة من «الظلام» . ويمكن أن يقرأ عدد منها لجمال في الأداء، ونبض من الشخصية، وإحساس بالطبيعة.

تبقى دعوة الكاتب إلى نشر آثار لطفي السيد قائمة، وإذا صعب تحقيقها، ويبدو أن الصعوبة قائمة — فلا بأس بنشر مختارات أو مختارات المختارات. لا بأس، ويحسن، ويجب.

وما يقال عن لطفي السيد يقال عن معاصريه، وما يرجع من أجله إلى «الجريدة» يرجع إلى معاصراتها. سلباً وإيجاباً في الفكر، واتساقاً برعاية اللغة وتحسس الفن في الأداء.

وكان الدكتور عبد اللطيف حمزة قد هيأ شيئا من هذا في كتابه القيم «أدب المقالة الصحفية في مصر» المتعدد الأجزاء، الواسع الأمثلة. ولكننا نطلب ما هو أكثر اتساعاً، وما يمثل الفكر والأداء اللغوي أكثر مما يمثل الصحافة.

الدكتور نعمات أحمد فؤاد — قمم أدبية — دراسات وتراجم لأعلام الأدب المصري الحديث. القاهرة، عالم الكتب، مطبعة مخيمر، تاريخ المقدمة أكتوبر ١٩٦٦ — ص٤٣٩.

والأعلام هم : أحمد لطفي السيد، العقاد، طه حسين، الزيات، عبد الوهاب عزام، توفيق الحكيم، محمد فريد أبو حديد، يحيى حقي، محمود تيمور، المازني.

١ — افتتحت المؤلفة كتابها بالكلام على «فن الترجمة والسير» جاء فيها : «وقد استهوت الترجمة الكثيرين من أمثال (فلو طارخس) أول مترجم برع في تصوير الشخصيات ورسم ملامحها، وتاسيتوس الروماني معاصره، في القديم؛ وفي العصور الحديثة موريا واسترتبتشي وموروا ولدفج وزفايغ وبيلوك وبوزويل مترجم حياة الأديب الانجليزي جونسون وستيفن اسبندر، وبرادفورد، ومرزكوفسكي ومن عندنا العقاد ومحمد حسين هيكل وميخائيل نعيمة وعبد الحليم الجندي...»

وآسف أن أكون جاهلاً بعبد الحليم الجندي؟

والأسماء الأجنبية أكثر مما يدخل في علمي. ومع هذا أحسب أن المقصود بـ «مورا» : أندره موروا (الكاتب الفرنسي المعروف عالمياً بكتابته التراجم...) وفيهم من ترجمت بعض آثاره إلى العربية مثل لودفيج وزفايغ.

ولابد من أن يكون المقصود بفلوطارخس، مايرد أحيانا مرسوما على: بلوتارك تأثرا بالرسم الفرنسي **Plutarque**.

وهو أديب يوناني عاش بين عامي ٤٦ أو ٤٩ و١٢٠؟ وقد اشتهر عالمياً بكتابه عن الأعلام اللامعين وعرض فيه تراجم متوازية واحدة يونانية تقابلها

رومانية.

ويبقى العلم بتاسيتوس؟ وهو المؤرخ اللاتيني المتوفى حوالى سنة ١٢٠ للميلاد. وشهرته الأساس: التاريخ. ويذكر له الدارسون في السيرة كتابه: حياة أكريكولا الذي كان تاسيتوس ختنه (أي زوج ابنته) وهو مدح وإطراء ودرس تاريخي لأكريكولا — هذا، ويرد تاسيتوس على تاسيت.

— أوردت المؤلفة أيضاً نصاً عن كتاب «الفن الأدبي» للسحرتي جاء فيه «نابليون ... وترهلت بطنه» والصحيح ترهل بطنه.

وشرعت تترجم لأحمد لطفي السيد .. ولد في قرية «برقين» ... منتصف يناير سنة ١٨٧٢ .. «قرأ كتاب «أصل الإنسان» لداروين ترجمة (شبلي شميل) — ص ٢٣». ولم يترجم شبلي شميل لداروين، وإنما كتب مقالات في مذهب داروين في أصل الأنواع. أما مترجم «أصل الأنواع» فهو إسماعيل مظهر وقد توفي قبل أن يتم الترجمة فترجم الفصلين الأخيرين (١٤،١٥) د. محمد يوسف حسن.

وقع هذا الخطأ مع أن المؤلفة تكتب ترجمتها بعد مقابلة خاصة مع المترجم له (والمترجمين الآخرين). وقد يرجع لتقدم الرجل في العمر فقد كان في التسعين.

والترجمة على هذه الطريقة تكون وثيقة للباحثين، ولكن ضرورات المجاملة تجور على الحقائق وتخفف ما لا يعود مقبولاً مرضياً محترما .. وهذا ما حدث مثلاً.

الخلاصة أن ما جاء عن أحمد لطفي السيد مقابلة أدبية استخبارية أكثر منه دراسة وترجمة.

ويأتي دور العقاد: ... وقد ولد في ٢٨ يونيو عام ١٨٨٩.. وتاريخ العقاد في الصحافة يبدأ بصحيفة الدستور التي أصدرها الأستاذ «محمد فريد وجدي» ... وكان يوقع مقالاته الأولى باللقب وبالحرفين الأولين من اسمه «ع.م العقاد» متأثرا بالمجلات الانجليزية .. وقد أعلن الدكتور طه حسين سنة ١٩٣٤ على الملأ: إني لا أؤمن في هذا العصر الحديث بشاعر عربي كما أؤمن بالعقاد... ومي هي بعينها (هند) في (سارة) وفي الديوان..

وتنهي كلامها بقولها: «وبعد فليست هذه ترجمة للعقاد .. وليست هذه بالطبع دراسة ..» تلي ذلك قائمة طويلة بمؤلفات «الأستاذ العقاد» يمكن أن تكون كاملة لما صدر له حتى عام ١٩٦١.

وطه حسين ولد في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٩، وقد اقتبست — كما هو طبيعي — كثيراً عن كتابه «الأيام»... وفي سنة ١٩٢٦ أخرج كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي أحدث ضجة أذاعت اسم طه حسين وإن عمّه منها رشاش. فقد لغّت الصحف في المعركة ولجت المجالس حتى أنزلت النيابة الستار بإصدار قرار يقضي بسحب كتاب (في الشعر الجاهلي) من السوق ..

« سأله أحد الصحفيين عن أقرب كتبه إلى نفسه فقال: إن الكتاب الذي أحبه وأوثره لا يعجب الناس وهو كتاب «أديب» . وإعجابي به يرجع إلى أنني وصفت فيه كثيراً من شئون حياتي الخاصة، وما كان يحيط بها في أوائل هذا القرن الذي نعيش فيه. لقد تحدثت فيه عن الجامعة القديمة، وعن سفري إلى أوربا. وهي ذكريات أحبها وأوثرها. صنعت هذا الكتاب على أن ما فيه تخيلات مما يخطر في مخيلات الكتاب. والحقيقة أنه ليس فيه شيء من التخيل، بل هو مجموعة من الحقائق. ولكن الناس معجبون بكتاب («الأيام») — ص ١٤٩ — ١٥٠ عن كتاب مع طه حسين ص ٦٦ — ٦٧).

وختمت الحديث عن طه حسين — ولا يظهر أنها قابلته — بقائمة مؤلفاته. ومما جاء فيها من خطأ أنها عدت (ص ١٧٢) كتاب «قصص تمثيلية: تأليف جماعة من أشهر الكتاب الفرنسيين ١٩٢٤» في الكتب المترجمة، وما هو كذلك، لأنه تلخيص وتعليق ونقد لقصص تمثيلية فرنسية .. شأنه في ذلك شأن «صوت باريس» و«لحظات» اللذين وضعتهما في الكتب المؤلفة — وتنظر كذلك ص١٤٥.

وقالت (ص ١٧٠) : «صوت باريس ١٩٤٣ وهو الذي طبع مرة أخرى سنة ١٩٥٦ بعنوان (من هناك)» والذي أعرفه أن «من هناك» طبعة ثانية لقصص تمثيلية بعد زيادة واضحة ونقصان قليل.

هذا ولم تقل ان «مرآة الضمير الحديث ١٩٤٩» طبع ثانية

بعنوان «نفوس للبيع» .

أما قولها (ص ١٧١) «كما حقق .. نقد النثر لقدامة بن جعفر بالاشتراك مع الأستاذ عبد الحميد العبادي سنة ١٩٣٣» فكان المناسب أن يلحق بتعقيب يبين أن هذا الذي طبع بهذا الاسم، ظهر فيما بعد قطعة من كتاب «البرهان في وجوه البيان» لإسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ــ وقد طبع «البيان» مرتين..

ولم أجد لقولها «لغّت الصحف في المعركة» أساساً في استعمال فصيح للغت ولتحديد دلالتها.

وأحمد حسن الزيات ولد في الثاني من أبريل سنة ١٨٨٥ في كفر دميره القديم مركز طلخا مديرية الدقهلية (أي الدقهلية والخطأ مطبعي).. دخل الأزهر «وكان سنه وقتئذ بين الثانية عشر والثالثة عشر» تريد: وكانت سنه .. بين الثانية عشرة والثالثة عشرة .. ورفيقاه في الأزهر طه حسين ومحمود زناتي .. حتى إذا انشئت الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٨ سارعوا إلى الالتحاق بها.. درّس بمدرسة الفرير من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩١٤ .. أمضى سنة في فرنسا..

في سنة ١٩٢٩ انتدب للتدريس بدار المعلمين العالية (تقصد العليا) في بغداد لمدة ثلاث سنوات (١٩٢٩ ــ ١٩٣٢) وعندما عاد إلى القاهرة أصدر مجلة «الرسالة» في يوم ١٥ يناير سنة ١٩٣٣ .. وصدر العدد الأول في عشرة آلاف نسخة .. فاشتد الطلب من سوريا والعراق .. فلم يجد صاحب الرسالة ندحة عن إعادة طبعه. وطبع العدد الأول مرة ثانية فكانت فاتحة عهد فأخذت الرسالة تصدر في ١٥,٠٠٠ نسخة. ثم ارتفع الرقم إلى ٢٠,٠٠٠ نسخة » وتقلص العدد في السنوات الأخيرة إلى أن احتجبت في ١٥ فبراير سنة ١٩٥٣ «وقد أعلن صاحب الرسالة احتجابها في مقال نشره بالأهرام في ٢٣ فبراير سنة ١٩٥٣..»

وتحدثت عن مؤلفات الزيات (بشيء من الاقتضاب..) وكانت قد ذكرت (ص ٢٠٤) أنه ألف كتاب «العراق كما رأيته» وقد فقد الكتاب مخطوطا.

... ولم يكن مناسبا أن تخصص هذه الصفحات الكثيرة للزيات ــ وهو أهل لها ــ دون أن تنال المجلة المهمة التي أصدرها باسم «الرواية» أية عناية أو ذكرا إلّا ما جاء على ص ١٨٦ «وهكذا احتجبت الرسالة (...) بعد أن حاول صاحبها مساندتها (بالرواية) فما استطاع» وقد صدرت الرواية ونجحت نجاحاً كبيراً أيام كانت الرسالة في أوجها واستمرت المجلتان في نجاح ملحوظ مغموط مشكور .. حتى دب الضعف فيهما ، وربما في الرسالة خصوصاً فلم يقوَ صاحبهما على تحمل المسؤولية كاملة ــ وذلك من حقه ــ فأدخل الرواية في أحشاء الرسالة.. فضاعت فيه ثم ضاعت الرسالة نفسها..

لم يكن الحديث عن الزيات ــ فيما يبدو ــ مقابلة، وإذا كان مقابلة فلم كان هذا الخفاء والاعتماد الكبير على «وحي الرسالة»...؟ لقد كانت معه في دمشق لحضور «مهرجان الشعر الثالث».

وولد عبد الوهاب عزام «في بلدة الشوبك الغربي من أعمال مركز العياط في مديرية الجيزة.. في أول أغسطس سنة ١٨٩٤ »... انتدب مرتين للتدريس في جامعة بغداد (تقصد دار المعلمين العليا. ولم تكن جامعة بغداد قد ولدت).

توفي عزام في ١٨ يناير سنة ١٩٥٩ في الرياض حيث أسس جامعة الملك سعود واختير مديراً لها .. ونقل جثمانه إلى مصر (حلوان)..

وولد (حسين) توفيق الحكيم في الاسكندرية في حي محرم بك سنة ١٩٠٣ .. «لقد ضاق والداه بانصرافه إلى الأدب المسرحي فأرسلاه إلى فرنسا أملاً في تحقيق أمنيتهما بالحصول على الدكتوراه في القانون» ولكنه غير الاتجاه ــ هناك ــ وانصرف إلى المسرح..

الملاحظ أن المؤلفة لم تحدد تاريخ سفره إلى باريس وتاريخ عودته منها. وأنها سارت ــ هنا ــ كما سارت مع الزيات على غير خطة متماسكة متنامية.

ونسأل ــ هنا أيضاً ــ سؤالا يمكن أن يتكرر، إذا كانت المؤلفة «تترجم» لأدباء شيوخ كبار معاصرين .. لم لم تحاول جادة مقابلتهم وتسجيل إجاباتهم لتهيء لأحاديثها معنى الوثيقة وقيمتها..؟

وولد محمد فريد أبو حديد أول يوليو سنة ١٨٩٣ بمدينة القاهرة بحي عابدين ..

وولد يحيى حقي بالقاهرة في ١٩٠٥/١/٧ وقد تنقلت

طفولته بين أحياء السيدة زينت والصليبة والحلمية الجديدة .. (واسمه الكامل: يحيى بن محمد حقي بن إبراهيم حقي) وعمه محمود طه حقي قصاص، كتب «عذراء دنشواي» ومجموعة «الغاديات الرائحات» و«غادة حمان» (القصة الطويلة التي طبعت أكثر من مرة) و«كتب للمسرح عدة مسرحيات مثلت»)..

تكرر الاسم على أنه «محمود طه» والصحيح أنه محمود طاهر، وهكذا أورد اسمه كاملاً على «عذراء دنشواي»: محمود طاهر حقي؛ وقد صدر في آخر طبعة له سنة ١٩٦٤ أي قبل صدور «قمم أدبية» بسنتين، وفيه مقدمة قيمة كتبها ابن أخيه: يحيى حقي.

اشتغل يحيى حقي بالمحاماة ثم انتقل إلى السلك السياسي (الدبلوماسي) : استانبول، روما، باريس، أنقرة ، ليبيا.. وفي القصة القصيرة تأثر كثيراً بشيخوف وجي دي موباسان .. مفتاح شخصية يحيى حقي وأدبه معاً تعثر عليه في صفحة ١٣٩ من كتاب (فكرة وابتسامة). هناك في موضوع (فضائل في الثلاجة)..

ولد محمود تيمور ، في حي «درب سعادة» سنة ١٨٩٤ .. أعجب بموباسان وتشيخوف الذي يعده القصاص العالمي الأول.

وإبراهيم عبد القادر المازني ولد في ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٠.. ذاق صغيرا مرارة اليتم .. وأشارت المؤلفة (ص ٤٢٥) إلى وفاته، ولكنها لم تؤرخ هذه الوفاة — ومعلوم إن لها عن «أدب المازني» كتابا طبع مرتين (١٩٥٤ ، ١٩٦١) — وتوفي المازني سنة ١٩٤٩.

ولنذكر في الختام أن المؤلفة كانت تقف من كل أديب وقفة فنية تبين أبرز سمات ذلك الأديب. وهي وقفات جديرة بالاهتمام والإعجاب.

بقي أن المؤلفة وعدت في مقدمتها بجزء ثان .. وأجزاء ولا أحسب أن شيئا من الوعد قد تحقق وقد مضى عليه (ونحن في سنة ١٩٨٤) أكثر من عشرين سنة.

محمود حامد شوكت ــ مقومات القصة العربية الحديثة في مصر (بحث تاريخي وتحليل مقارن)، القاهرة، دار الفكر العربي، دار الجيل للطباعة. د.ت (١٩٧٤) ــ ٢٩٢ ص.

١ ــ جاء في المقدمة القصيرة : «.. البحث تطوير لرسالة الدكتوراه التي قدمت .. عام ١٩٥٢، وها هو يقدم للقراء بعد مزيد من التنقيح والإضافة ليواكب ما استجد من أبحاث في هذا الميدان.. ـــ القاهرة ، أكتوبر ١٩٧٤».

أ ــ لو نشر الكتاب في وقته (١٩٥٢) لكان له شأن آخر وأهمية خاصة .. فهل نشر؟ إنه لا يذكر ذلك ولا يلمح إليه.

ب ــ كنا نتمنى لو نص المؤلف على التنقيح الذي أجراه والإضافة التي زادها، لتبقى الصورة الأولى واضحة ..

٢ ــ قال المؤلف ص ١٨ عن القصة المعروفة التي كتبها برناردان دسان بيير بعنوان «بول وفرجيني»: «العنوان الأصلي .. معناه «بولس والعذراء».

ولا موجب لترجمة اسم العلم «فرجيني» بالعذراء. ولا يشرح الفرنسيون الاسم عندما يتحدثون عن «الرواية» والعذراء بالفرنسية فيرج **Vierge** وليس فرجيني **Virginie** .

٣ ــ ذكر المؤلف ص ١٩ نموذجاً مما نقله محمد عثمان جلال من حكايات لافونتين .. «الثعلب والعنب» التي مطلعها :

حكاية عن ثعلب
قد مر تحت العنب
وشاهد عنقودا في
لون كلون الذهب
قال له القطف انطلق
ثعلب بن ثعلب

والبيتان الأخيران مكسوران يجب أن يرويا هكذا: «وشاهد العنقود في».. «ثعلب ابن الثعلب» أو «يا

ثعلب بن الثعلب».

٤ ــ يصر المؤلف على أن يعرِّب ايزوب (أو ايسوب) فيجعله ص ١٩، ص٥٧ : يعسوب.

ولا موجب لهذا، فالرجل إغريقي واسمه عند قومه، وعلى مدى التاريخ ولدى مختلف الأمم ايزوب (أو إيسوب).

٥ ــ ص ٢٩ «الزواج الأبدي لدستويفسكي، وعرب محمود الشنيطي قصة رجل مجهول لدستويفسكي».

أ ــ الزواج الأبدي : الزوج الأبدي.

ب ــ قصة رجل مجهول لأنطوان تشيكوف، وصدر التعريب عن دار الكاتب المصري.

٦ ــ ص ٣٥ «سحراب ورستم» : سهراب...

٧ ــ ص ٦٤ «الحياة الفرعونية ... في القصة الغربية...» ص ٦٦ «واختار أديب فرنسا الأكبر موضوع «تاييس» لرائعة من روائعه وهو يبحث عن نزعات الخير والشر في أعماق قلب راهب وراقصة..»

لم يذكر اسم الأديب الذي اختار موضوع «تاييس» ــ وهو اناتول فرانس، وهو أديب كبير، فلم الأكبر؟!.

٨ ــ ص ١٧٨ «يتفق كثير من النقاد على أن «زينب» لمحمد حسنين هيكل هي فاتحة القصص الفني في الأدب المصري الحديث».

يعرف المؤلف جيداً أنه «محمد حسين» وليس محمد حسنين، ولكن شهرة محمد حسنين التي ذاعت أيام عبد الناصر غلبت «محمد حسين» فشرع الناس يقعون في الخطأ.

٩ ــ ص ٢١٦ «محمود تيمور الذي أوقف قلمه على فن القصة القصيرة، ثم طرق باب القصة الطويلة لماما»، ص٢٥٤ «أوقف محمود تيمور قلمه ومعظم تأليفه الأول على خلق قصة قصيرة تتسم بطابع إقليمي...»

أصح من «أوقف» : وقف، ولكن أوقف قد شاعت ويرى اللغويون استعمالها خطأ .. أو أنهم يرونها «لغة رديئة».

١٠ ــ ص ٢٢٥ يعدد مؤلفات المازني فيذكر «عالماشي»، ص ٢٦٨ وهي ع الماشي.

١١ ــ ص ٢٨ «نشرت دار التأليف والترجمة والنشر مختارات من الأدب الانجليزي، نقلها إبراهيم المازني».

الذي نشر «مختارات من القصص الانجليزي»: لجنة التأليف والترجمة والنشر. في سلسلة عيون الأدب الغربي ــ ولم تكن كلمة «دار» قد ولدت أو عرفت وشاعت.

١٢ ــ ص٨٩ «يمثل جورجي زيدان (١٨٦١ ــ ١٩١٤) الرعيل الأول من كتاب القصة التاريخية الاسلامية..»

جورجي زيدان : جرجي ..

١٣ ــ وصف المؤلف بحثه بأنه «تاريخي وتحليلي مقارن».

ويفهم من التاريخي ــ لدى قراءة الكتاب ــ أنه يبدأ بالأقدم في «سلسلة» فصوله، وفي مادة كل فصل، ويفهم من «تحليلي» أنه يواجه النصوص مباشرة دون وسيط، يجمع الروايات، ويصنفها، ومن ثم يتحدث عنها رواية رواية ملخصاً وذاكراً الشخوص والأفكار والمادة..

وتبقى كلمة مقارن، وهي وصف ــ كما يبدو ــ للتحليلي، فماذا تكون؟ إنها مقارنة الرواية بنظيرتها للكاتب نفسه أو لكاتب آخر .. وليس هذا ــ لدى التحقيق ــ بمقارنة، أما إذا كان المقصود «بالمقارنة» صفة عامة للبحث، وأنه اعتمد في ذلك على ذكر عابر لأعلام في الرواية الغربية فليس ذلك مقارنة.. أيضاً. نقول هذا لأن المؤلف «معاتب» على ما يبدي من «مصطلحات» وهو الذي كتب في تعريف نفسه: «دكتوراه في الآداب ــ جامعة القاهرة. دكتوراه في اللغويات والنقد والانثروبولوجيا ــ جامعة كورنل بأمريكا».

ثم إنه جعل عنوان كتابه «مقومات القصة العربية الحديثة في مصر» فما المقصود بكلمة «مقومات» أهي مصطلح واضح الدلالة في الأذهان؟ لا. أفسره المؤلف؟لا. وقد تسمح عنوانات لفصول الكتاب بالاستدلال على قصده: الحياة الفرعونية، الحياة الاسلامية، الحياة العصرية.. في القصة المصرية ــ ولا

أجسب «المقومة» على هذا مصطلحا. بقي أن يثبت لنا المصطلح الانكليزي الذي انطلق منه!.

يبدو من كلامه في الفصل الأول أنه يقصد بالمقومات «الملامح الدائمة» و«الصفات العامة»، «الموضوعات» .. ولو وضع واحدة من هذه في العنوان كان أجدر وأوضح، ولا بأس بعد ذلك أن يختار غيره مما هو قريب منه وذو دلالة في ذهن القارىء: مثل اتجاهات، أو تيارات..

١٤ ــ لنلاحظ أن للمؤلف كتاباً آخر صدر عام ١٩٦٣ عن دار الفكر العربي بالقاهرة بعنوان «الفن القصصي في الأدب العربي الحديث» ــ ٢٣٩ ص. يبدو أنه المقصود في مقدمته بالأصل الذي تطور عنه كتابه العتيد، فقد دلت مقدمة كتاب «الفن القصصي..» على أن صاحبه عمله رسالة علمية (كالماجستير) وجاء في مطلع مقدمته : «هذا بحث في الأدب المصري الحديث يصور تطوره خلال القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٥٦، في ملابساته الزمانية والمكانية، ومقوماته القومية والإنسانية...»ويبقى أنه يذكرهناعام ١٩٥٦ على حين يذكر هناك عام ١٩٥٢؟.

ما الذي يكلف المؤلف العربي لو ذكر في مقدمته الخطوات التي مر بها كتابه في وضوح ودقة وسنوات محددة؟!.

○ **الدكتور نازك سابايارد ــ الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، الصراع الفكري والحضاري. بيروت، مؤسسة نوفل، ط١، ١٩٧٩.**

١ ــ البحث رصين وهو أنموذج في المنهجية وبلغ في الموضوعية حداً بعيداً كاد يخفي شخصية الباحثة الفاضلة ــ ربما كان البحث أعد لدرجة علمية كالدكتوراه.

بقي لأية درجة نسمي «رحالة» من يسافر للدراسة مثل الطهطاوي وطه حسين .. أو من أجل السياحة والاستراحة .. أو بسبب سياسي يبعده عن بلاده فقد ألفنا إطلاق «الرحالة» على من يرحل حباً بالاطلاع والاكتشاف عن طريق الأسفار، ولا سيما الأسفار الشاقة .. ولدينا المثل التقليدي في ابن جبير وابن بطوطه من العرب القدماء .. ومحمد ثابت من المحدثين فضلا عمن نعرف من مشهوري الغربيين المكتشفين لأمريكا وما حول الأرض ولما كان من مجاهل أفريقيا والقطبين..

٢ ــ لغة الكتاب هي اللغة ــ الحيادية ــ اللازمة للبحث العلمي، الواضحة المتينة السبك .. ولكن المؤلفة تكثر من تركيب غير عربي ــ وإن شاع أخيراً في الصحافة والإذاعة ــ وذلك لدى استعمال «فيما» :

ص ١٢٢ «فيما اكتفى مراش بإشارة عابرة .. نجد أن الطهطاوي وصف مفصلا...» وتنظر ص ١٢٥، ص ٢٤٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٣١٤، ص ٢٥٤ «فيما تردد محمد فكري .. أكد المويلحي..» وتنظر ص ٣٩٠، ٣٩١.

تريد بينما .. أو بينا .. إذا ... أو إذ.

٣ ــ ص ١٧٢ «استشهد زيدان جمهورية افلاطون...» تقصد استشهد زيدان بجمهورية افلاطون، وتنظر ص ٣١٢.

ص ٢٦١ «لم ينكر محمد كرد علي قيمة الأدب الأوربي وروعته، ولكنه بيّن أن في أدبنا العربي العباسي ما يشبهه في الغرض والعمق والصدق والأصالة وطبعيّة التعبير واستشهد مؤلفات ابن المقفع والجاحظ وابن مسكويه والغزالي وأمثالهم...» عن غرائب الغرب ٨٨/١.

تريد استشهد بمؤلفات ابن المقفع والجاحظ.

اما الطبعية فصحيحها : الطبيعية.

وأما ابن مسكويه فصحيحه : مسكويه، أو أن «مسكويه» هو الأصح المفضل في أقل تقدير.

٤ ــ ص ٣١٠ «أما المراحل التي اجتازها فكر طه حسين، والتحولات التي رافقتها، فقد اعتبرناها حلقات مكوّنة لهذا الفكر ككل».

ثقيلة ــ وغير عربية ــ هذه «الككل».

٥ ــ ص ٩٤ «الصراع في الفكر الإقتصادي» ص ١٠٨

«الصراع في الفكر الإجتماعي» وتنظر ص ٢١٥، ٢٢٨، ٢٦٧.

هذه الهمزة تحت «الإقتصادي» و«الاجتماعية» خطأ . فليست همزة الاقتصادي والاجتماعي همزة قطع .. وإنما هي همزة وصل ـــ ويعود الخطأ إلى الخطاط أولا..

٦ ـــ ص ٣٩٦ «ان طه حسين أراد أن يقتفي العرب أثر الغربيين في هذا لمضمار (مضمار المسرح) ، ولذا عرّب العديد من المسرحيات الفرنسية واليونانية».

وفي الحاشية : «قصص تمثيلية لجماعة من أشهر الكتاب الفرنسيين» «صوت باريس» «اللحظات» «أوديب» و«تيسيوس» لجيد. ثم «صفحات مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان».

أ ـــ ذكرت «قصص تمثيلية لجماعة من أشهر الكتاب الفرنسيين» . وكأن هذا كله عنوانه .. والصحيح أن العنوان: «قصص تمثيلية» فقط.

ب ـــ ليس «قصص تمثيلية» تعريبا لمسرحيات وإنما هو حديث عن «مسرحيات» تلخيصاً وتعليقاً.

جـ صوت باريس ليس تعريباً لمسرحيات، ومثله لحظات، وهذا اسم: لحظات وليس «اللحظات» !.

د ـــ صحيح تيسيوس : ثيسيوس، وهما ليست مسرحية.

هـ والمؤلفة إذ ذكرت ما ليس بمسرحيات على أنه مسرحيات، فاتتها المسرحيات المسرحيات .

«من الأدب التمثيلي اليوناني».. وقد نقل فيه طه حسين ست مسرحيات عن سوفوكليس؛ واندروماك وهي مسرحية راسين نقلها طه حسين إلى العربية..

لما يذكر له فضله في التوجيه لترجمة أعمال راسين المسرحية كلها، وأعمال شكسبير.

٧ ـــ ص ٤٨١ «ثبت بأسماء الرحالين...»

أ ـــ «الألوسي، شهاب الدين (ت ١٨٥٤م)...»

اسمه : محمود بن عبدالله ...، و«نشوة المدام...» مخطوطة.

ب ـــ ص ٤٩٣ «الطنطاوي، محمد عياذ» بالذال: الصحيح... عيّاد (بالدال).

جـ ـــ ص ٤٨٦ «الحسني، عبد الرزاق، رحلة في العراق، أو خاطرات الحسني...»

١ ـــ الرحلة في العراق، فما علاقتها بصميم موضوع كتاب عنوانه «الرحالون العرب وحضارة الغرب»؟

٢ ـــ تذكر المؤلفة حاشية على «الحسني» تقول فيها: «لم نهتد إلى سنة وفاته». فلم هذه الحاشية، أشرط في المؤلفين الذين رجعت إليهم أن يكونوا متوفين؟. إن الحسني ما زال حيّاً، وقد تعدى السبعين (ولد سنة ١٩٠٦).

٣ ـــ الحسني هذا هو نفسه «النجفي» الوارد على ص ٥٠٠ ـــ وإن لم يكن خفياً.

كتب الأمـــالى والمجالس والمحاضرات

عبد الرحمن عبد الله الشيخ

أستاذ مساعد ـــ قسم التاريخ

جامعة الملك سعود

أثمرت حلقات العلم والدراسة المعقودة في المساجد أو المنازل أو الباحات، مجموعة كتب زيَّنت المكتبة العربية عرفت بكتب الأمالي والمجالس والمحاضرات. «**والأمالي جمع إملاء**»[1] **وقيل جمع أُملية**[2] وهو أن يَقْعُد عالم وحوله تلاميذه بالمحابر والقراطيس، فيتكلم العالم بما فتح الله عليه من العلم ويكتبه التلاميذ، فيصير كتابا، ويسمونه الاملاء أو الأمالي[3].

ولقد أضحْت الأمالي في زماننا هذا نقيصه تربوية تحول بين الطالب ومراجعة المكتبات وخوض غمار البحث، وما هكذا كانت الأمالي في عصور الاسلام الزاهرة.

فقد كان مجلس الإملاء غاصًا بالحوار والمناقشة، يسأل الطالب، فيجيب الأستاذ، أو يعتذر بعدم المعرفة؛ فلا جُناح على الأستاذ إن قال إنه لا يعلم.[4] وتدلنا كُتب الأمالي على مجالات هذه المجالس، فقد كان الأستاذ ينتقل من موضوع إلى موضوع بخفّة ويُسْر، مما يجعل هذه المجالس أقرب إلى حلقات السمر حيث يُحصِّل الطلبة علماً وافراً في جوٍّ مرح فكه، تدل عليه كثير من الأخبار الطريفة والمُلَح الجميلة المبثوثة في ثنايا كتب الأمالي. وطبيعة المجلس بما فيه من حوار وتلقائية، تجعله أبعد عن التكلف، وأقرب للصدق وبالتالي أكثر دلالة على العصر الذى نؤرِّخ له، وأكثر تعبيراً صادقاً عن الشخصية التى نُترجم لها. وتلك مزيّة يعيها المشتغلون بتقويم المراجع التاريخية والساعون ليكون التاريخ عظة واعتباراً بلا ريف ولا كذب.

أما المحاضرات، فهي جمع محاضرة. وهى تدل على ما يُلقيه المعلّم على طلبته في أيّ فرع من فروع المعرفة، وفي أي مكان. والواقع أن الأصل اللغوي لهذه الكلمة لا يدل بشكل مباشر على هذا المعنى.[5] ومع هذا فقد عرف العرب المحاضرة بمعنى المُساجلة الشعرية بين شاعرين، وبمعنى المُجادلة في مجلس الخصومة، وبمعنى التحدث في المجلس بالطُرف والنوادر، فإذا حَسُن مجلس شخص ما وظرف، فهو حسن المحاضرة.

وليس هناك كبير فرق بين كتب الأمالي والمجالس والمحاضرات، فللمحاضرات مجالسها بالضرورة، وقد يكتب كاتب ما يعجبه في المحاضرة أو المجلس.

كما قد يكتفي بعض الطلبة بالاستماع في مجلس الأمالي. ومع هذا فقد حاول بعض الباحثين إيجاد نقاط فارقة بينها. يقول محقق مجالس ثعلب: «**مجالس ثعلب تسمّى أيضا أمالي ثعلب... ومجالسات ثعلب**» ويرى أن هناك فرقاً دقيقاً بين الأمالي والمجالس في أصل استعمالها. «فكل منهما مظهر لما كان يدور من تدوين **لأقوال** العلماء والمتصدّرين للتعليم، أما الأمالي فقد كان يمليها الشيخ أو **من** يَنْدبه عنه بحضرته، فينقلها الطلاب بالتقييد في دفاترهم. **وفي هذا** يكون الشيخ قد أعد ما يُمليه، أو يُلقي إلى الطلبة ما شاء من **تلْقاء** نفسه. **أما** المجالس فهى تسجيل كامل لما كان يحدث في المجلس، ففيها يلقى الشيخ ما يشاء من تلقاء نفسه، وفيها كذلك **يُسْأل** الشيخ فيجيب، فيدوّن كل ذلك فيما يسمّى مجالس»[6] وكتب الأمالي والمجالس والمحاضرات صفحة هامة في تاريخ التعليم **عند** المسلمين **أهملها** من كتب في هذا الموضوع. وهى مصدر **أصلي** مباشر لتاريخ التعليم من جهتين: **الجهة الأولى:** أن كتب **الأمالي** التى بين أيدينا تقدم صورة كاملة أو تكاد، لمجالس **الأمالي من** حيث القضايا المطروحة فيها، والأسئلة الموجّهة للأستاذ، **والأفكار** السائدة التى تشغل الرأى العام وقتها، ومجالات **الثقافة، ومحاور** الاهتمام فيها. **فكل محتويات كتب الأمالي موضوع لتاريخ التعليم.**

إن محتوى كتب الأمالي والمجالس هو ما نسميه بمصطلح التعليم العصري: المنهج الدراسي، أو المقرر مع بعض الاختلاف وهو أن هذه المجالس كان يحضرها من يشاء، ولم تكن مقنّنة وفقاً لأعمار الطلبة أو بمعنى آخر لم يكن يتحتم على حاضري المجلس أن يكونوا قد بلغوا درجة معينة في سلّم تعليمي منضبط. ورغم هذا فمن المبالغة نفي التدرج تماما، فمن غير المعقول أن يستمتع بهذه المجالس من هبط مستواه هبوطاً معيباً يجعله لا يعى ما يقال.

أما الجهة الثانية، فان كتب الأمالي والمجالس والمحاضرات، تعرضّت للتعليم من حيث شروط المعلم وواجب المتعلّم، والعوامل المعينة على الحفظ[٧]، وطرائف كثيرة عن مواقف بعض المعلّمين[٨]، وآداب مجلس العلم خاصة عدم احراج المعلّم أو ما تسميه كتب المجالس «**التغْفيل**»[٩] ومن الطرق الغريبة أن أحد المعلمين كان «يُقعد أبناء المياسير وحسان الوجوه في الظل، ويُقعِد الآخرين في الشمس. ويقول لأبناء المياسير والحسان: يا أهل الجنة أبزقوا في وجوه أهل النار»[١٠] وسنتناول في هذا المبحث الدلالات التعليمية والحضارية لكتب الأمالي والمجالس والمحاضرات حتى نهاية القرن الخامس للهجرة من خلال المصادر التالية:

١ ــ الحيوان[١١] والبيان والتبيين [١٢] للجاحظ (ت ٢٥٠ هـ).
٢ ــ الكامل للمبرد [١٣] (ت ٢٨٥ هـ)
٣ ــ عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى[١٤] (ت ٢٧٦ هـ).
٤ ــ مجالس ثعلب لأبي العباس ثعلب (ت ٢٩١ هـ).
٥ ــ الأمالي لليزيدي[١٥] (ت ٣١٠ هـ)
٦ ــ الأمالي للشريف المرتضى[١٦] (ت ٤٣٦ هـ)
٧ ــ الأمالي للزجاجي[١٧] (ت ٣٣٩ هـ).
٨ ــ مجالس العلماء للزجاجي.
٩ ــ الأمالي لأبي علي القالي[١٨] (ت ٣٥٦ هـ)
١٠ ــ محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني[١٩] (ت ٥٠٢ هـ)
١١ ــ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي[٢٠] (ت ٣٨٤ هـ)
١٢ ــ زهرة الآداب للحصري القيرواني[٢١] (ت ٤٥٣ هـ)

كتب الأمالي والمجالس والمحاضرات: أهميتها وتقويمها من وجهة نظر تاريخية:

رغم أن مؤلفي هذه الكتب كان لكل واحد منهم اختصاصه الأساسي أو محور اهتمامه، إلا أن طبيعة الثقافة في هذه القرون كانت تحتّم على العالم أو الأديب أو الفقيه أن يأخذ من كل شيء بطرف، كما أن طبيعة مجالس الأمالي والمحاضرات حيث الاستطراد والحوار جعلت المُمْلي ينتقل من موضوع إلى موضوع كعصفور دائم الوثب من فَنَنٍ إلى فَنَن. لهذا فإن الأخبار التاريخية في هذه الكتب تتميز بعدة مزايا يمكن إيجازها على النحو التالي:

(١) تُقدم وصفاً لا زيف فيه ولا تَحْكيك لأحاديث الناس ومداعباتهم وفكاهاتهم وحيلهم وعلاقاتهم بحكامهم، ولعل محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ونشوار المحاضرة للقاضي التنوخي أوضح دليل على ذلك.

(٢) اهتمت كتب المجالس التي كان النحو قُطْب رحاها بتوثيق النصوص وضبطها والتوثق من اسنادها بغرض استخدامها كشواهد لغوية، وهذا التوثيق والضبط يجعلها ــ بعد اخضاعها للنقد التاريخي ــ مصدراً جيداً للبحث التاريخي، ويكاد يكون الكامل للمبرد في غالبه نصوصاً تاريخية مفيدة.

(٣) تقدم لنا هذه الكتب، مالا تقدمه الكتب التاريخية التى تفيض غالباً في التاريخ السياسي، تاركة تاريخ الحضارة والنظم. فمن المعروف أن انتشار الاسلام وأساليب الدعوة من الموضوعات التى لم تكتب فيها كتب شاملة. وهذا مما يؤسف له. فمعظم ما كتب في هذا المجال ماهو إلّا تاريخ فتوح. وهناك فرق كبير بين حركة الفتح، وحركة انتشار الاسلام. ولم يضع الباحثون بين أيدينا نماذج من حوار الدعوة بين المسلمين وغير المسلمين. والواقع أن كتب الأمالي والمحاضرات لا تخلو من نصوص طريفة في هذا المجال لكنها متناثرة متباعدة لا **تُعين الكشافات والفهارس** على

الوصول إليها. وأرجو أن ألفت أنظار الباحثين إلى هذا الكنز العلمي بايرادي نماذج من هذه النصوص.

يروي اياس بن معاوية: «كنت في مكتب بالشام، وكنت صبيا، فاجتمع النصارى يضحكون من المسلمين، وقالوا: إنهم يزعمون أنه لا يكون ثُفل للطعام في الجنّة، قال: فقلت يا معلّم، أليس تَزْعم أن أكثر الطعام يذهب في البدن؟ فقال: بلى. قال: فقلت فما تُنكر أن يكون الباقي يُذْهبه الله في البدن كله. فقال: أنت شيطان»[٢٢].

ويحدثنا الدينوري عن حوار بين المأمون ومرتد عن الاسلام فيقول: «قال المأمون لمرتد إلى النصرانية: خبّرنا عن الشيء الذى أوحشك من ديننا، بعد أنسك به، واستيحاشك مما كنت عليه، فإن وجدت عندنا دواء دائك تعالجت، وإن أخطأ بك الشفاء ونبا عن دائك كنت قد أعذرت، ولم ترجع على نفسك بلائمة، وإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة، وترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة وتعلم أنك لم تقّصر في اجتهاد، ولم تفرّط في الدخول من باب الحزم. قال المرتد: أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم. قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كالاختلاف في الأذان، والتكبير في الجنائز والتشهد وصلاة العيدين.. ووجوه القراءات ووجوه الفتيا، **وهذا ليس باختلاف**. إنما هو تخيّر وسعة وتخفيف من المحنة، فمن أذّن مثنى وأقام مثنى لم يخطي من أقام فرادي وأذن مثنى، **ولا يتعايرون بذلك ولا يتعايبون**. والاختلاف الثاني كنحو الاختلاف في تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث مع اجتماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت هذا الكتاب، فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والانجيل متفقاً على تنزيله، ولا يكون بين جميع اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات، فينبغي لك ألّا ترجع إلّا إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل، ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة، وذهبت المسابقة والمنافسة ولم يكن تفاضل، وليس على هذا بنى الله الدنيا. قال المرتد: أشهد ألّا إله إلّا الله وأن المسيح عبد الله، وأن محمداً صادق، وأنك أمير المؤمنين حقاً».[٢٣]

ومن النصوص الطريفة ما يرويه المبرد في الكامل: «قال قائل لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه: أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ فقال علي: (أين) سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان.»[٢٤]

هذه مجرد أمثلة، وهناك نصوص أخرى لا أقول كثيرة، ولكنها غير قليلة، أعتقد أنها لو جُمِّعت وحللت لكانت بالاضافة لمراجع أخر — نواة للكتابة عن تاريخ الدعوة للاسلام وتاريخ الحوار كأسلوب من أساليب الدعوة.

(٤) وقد أغفل المهتمون بتطور فكرة التاريخ عند المسلمين كتب الأمالي والمجالس والمحاضرات، ولو التفتوا إليها لوجدوا فيها عناصر كثيرة أغفلتها فئات أخرى من المراجع. لقد تعرضت كتب الأمالي لتمحيص الرواية ودراسة دوافع الكذب. يحدثنا الدينوري عن إمام مسجد يسأله أحدهم: ما كانت العرب تقول في صلاتها على موتاها؟ فقال: لا أدري. فكذب عليه مُحدِّثه وقال له: لقد كانوا يقولون:

ما كُنتَ وَكْواكاً ولا بزَوّنك[٢٦]
رويدك حتى يبعث الحقّ باعثه

قال: فإذا أنا به يحدّث به في المقصورة يوم الجمعة.[٢٧] وقد عقد المبّرد باباً كاملاً لأكاذيب الأعراب ودوافعها؛ بعضها لا يخلو من مُلحة وطرفة.[٢٨]

تطور علوم العربية — مثال من علم البلاغة:

المصطلحات البلاغية التى نستخدمها اليوم هي في الغالب الأعم، تلك المصطلحات التي أرسى قواعدها الجرجاني فالسكاكي، لكن هذه المصطلحات لها تاريخ مغاير منذ القرن

الثاني للهجرة. والبلاغة ومصطلحاتها من خلال كتب الأمالي والمحاضرات، تفتح باباً واسعاً أمام المهتمين بتطور علوم العربية وأمام المؤرخين. لقد تعرضت كتب الأمالي والمجالس للبلاغة بمعنى مجرّد وضوح الدلالة[٢٩]. وهناك استخدام للبلاغة والبيان كتعبيرين مترادفين.[٣٠] كما تعرضت للبلاغة بمعنى القدرة الجدلية على إظهار الباطل بصورة الحق.[٣١] وقد شاع هذاالمعنى لدى بعض الناس لدرجة أن الجاحظ استعاذ بالله من تصوير الباطل في صورة الحق.[٣٢] كما استُخْدم لفظ الفصاحة مرادفاً للفظ البلاغة.[٣٣] وقد أدخل معاصروا الجاحظ طريقة النطق وخلوها من العيوب ضمن مباحث البلاغة[٣٤] ووردت البلاغة في هذه الفترة الباكرة بمعنى ذرابة اللسان والبراءة من الحُبْسة والاعادة والتكرار والاستعانة.[٣٥] وورد مصطلح التَحْبير كمرادف للبلاغة.[٣٦] والتحبير لغة مشتق من الحبر وكان مرتبطاً بالكتابة لكن معناه اتسع ليشمل كل فنون الكلام، فحبّرت الشعر والكلام أى حسنتهما.[٣٧] ووردت البلاغة في كتابات الجاحظ أحيانا بمعنى الخطابة.[٣٨] وبمعنى فنون القول المختلفة من شعر ونثر.[٣٩] وفي كتب الأمالي والمحاضرات ورد اللحن بمعنى المجادلة بغير الحق.[٤٠] وبمعنى العوج أو عدم تمشي الكلام مع الاعراب[٤١].. وبمعنى عدم مواكبة اللفظ للمعنى.[٤٢] ويورد ثعلب أمثلة لألفاظ استخدمت في عكس معناه كقولنا سليم للملدوغ.[٤٣] وفي كتب الأمالي وردت الأخبار تشير إلى استخدام البيان بمعنى العلم والمعرفة.[٤٤] وبمعنى حسن التخلص ورأب التناقض.[٤٥]وأدخل الجاحظ في البيان مباحث متعلقة بالألفاظ من حيث غرابتها وطرافتها.[٤٦] وأفادت أخبار المجالس أن البيان يعني أحيانا الفحش والبذاء.[٤٧] وأشار ثعلب الى التبيين بمعنى التنصيص، وكل تبيين واظهار فهو نص.[٤٨] ومن أغرب ما ذكره الجاحظ أن بعض الكتّاب كان يتعمد تعمية المعاني في كتبه فلما سئل قال إنه لو يسّر المعنى لم يحتج إليه أحد ولم يسأله فيضيع مصدر رزقه.[٤٩] واستخدم لفظ البديع في هذه الفترة الباكرة ليعني كل فنون البلاغة.[٥٠] ومن الطريف أن الايجاز في بعض الحالات ارتبط بالوقت أو الزمن.[٥١] إذ الايجاز أن تقول فلا تبطيء، فلو أنك سئلت سؤالاً فأجبت بعد ساعة فكأنك لم توجز حتى ولو أجبت بكلمة واحدة.

وحتى المصطلحات الشهيرة جدا كالمجاز والكناية، كان لها دلالات طريفة ومترادفات مختلفة غير التى استقر عليها الحال فيما بعد. إن كتب الأمالي والمجالس تشير إلى الرّطانة بمعنى الكناية.[٥٢] ومن سمع عن الكناية بمعنى الدلالة؟[٥٣] وبمعنى الالغاز في القول.[٥٤] والمبرد يشير للكناية بلفظ الايماء[٥٥] وكان الخلط بين الكناية والاستعارة بيِّنا، بل كانا يستخدمان في سياق واحد. حدث هذا عند الشريف المرتضى.[٥٦] ومن الطريف أن النحويين كانوا يسمون الضمير المستتر، ضميراً مكنىّ.[٥٧] ولقد ظل الخلاف في تقسيم الكلام بين النحويين والكلاميين حتى القرن الخامس كما يتضح من نص الشريف المرتضى: «المتكلمون يخالفون النحويين في أن للفعل ثلاثة أحوال؛ ماضي وحاضر ومستقبل. فيقول المتكلمون إن للفعل حالين بغير ثالث لأن كل معلوم من الأفعال لا يخلو من أن يكون ماضي وحاضر ومستقبل. فيقول المتكلمون إن للفعل حالين بغير ثالث لأن كل معلوم من الأفعال لا يخلو من أن يكون موجوداً أو معدوماً، وبالوجود قد صار ماضياً، والمعدوم هو المنتظر، ولا حال ثالثة» ويقف الشريف المرتضى موقفاً مناهضاً فيذكر أن قولنا (فعل) في عرف المتكلمين ليس هو المقصود في عرف النحويين، لأن الفعل في عرف أهل الكلام هو الذات الحادثة بعد أن كانت معدومة، وعلى هذا فكل موجود غير الله تعالى يعد فعلاً، فزيد فعل، والسماء فعل، والحرف الذى فرق النحويون بينه وبين الاسم، هو بهذا المعنى فعل. لأن الحرف صوت يقطّع على نحو مخصوص، والأصوات كلها أفعال. والنحويون عندما فصلوا بين الاسم والفعل والحرف لم يقصدوا نفس الحدوث والفعلية، بل فصلوا بينهما مع اشتراكهما في معنى الفعلية التى يذهب إليها المتكلمون لما بينهما من الفصل في أحكام أخرى، فقالوا: «الاسم ما دلَّ على معنى لا يقترن بزمان، والفعل ما اقتضى معنى بزمان غير مخصوص، والحرف ما خلا من هاتين العلامتين»[٥٨]

من هذا العرض يتضح أن المصطلحات البلاغية التى نستخدمها اليوم قد حددها لنا إلى حد كبير عبدالقاهر الجرجاني (٤٠٠ ــ ٤٧١هـ) والسكاكي من بعده. أما قبل عبدالقاهر فقد كان للمصطلحات البلاغية مفاهيم مغايرة. **أليس من الضروري إذن أن يكون بين أيدينا معجم تاريخي لتطور مصطلحات**

البلاغة ومفاهيمها قبل عبدالقاهر وكم خطأ وقع فيه الباحثون نتيجة عدم إدراكهم لهذه المفاهيم؟ وهل يمكن أن يفهم أحدهم أن فلاناً (يَرطُن) بمعنى يكنى؟ وكفى بهذا دليلاً على أن كتب الأمالي والمجالس والمحاضرات في حاجة إلى قراءة جديدة لتفيد الباحثين في التاريخ عامة وتطور علوم العربية خاصة.

كتب الأمالي والمحاضرات وتطور الفكر العلمي:

(١)

قلّما يفكرّ الباحثون في تاريخ المنطق والفلسفة مراجعة كتب النحو وربما لو قلنا لهم ذلك لسخروا منّا سخرية شديدة. ويرجع هذا إلى أن مفهوم النحو قد تحدد تماماً الآن، وما هكذا كان. أرى أن كثيرا من المناقشات (النحوية) التى أوردها الزجاجي في مجالس العلماء ماهي إلا مناقشات خصبة في (المنطق).

(٢) ورغم أن أصحاب الأمالي والمحاضرات ليسوا علماء فيزياء أو كيمياء أو طب في المقام الأول، إلّا أن طبيعة التكوين الذى كان يحتم الأخذ من كل شيء بطرف — كما سبق القول — جعل أصحاب الأمالي يتطرقون في مجالسهم لبعض القضايا العلمية. ورغم أن مراجع تاريخ العلوم البحتة والتطبيقية عند المسلمين ليست قليلة سواء ما نشر منها أو ما ينتظر دوره، إلّا أن بعض نصوص كتب الأمالي والمجالس تقدم لنا مزجاً طريفاً بين العلم والأدب والفلسفة. ونكتفي بهذا الصدد بمثال من أمالي الشريف المرتضى عن (السحّارة) وهى «الآلة التى يكون في رأسها ثقب واحد وفي أسفلها ثقوب كثيرة، إذا ملأناها بالماء ثم سددنا رأسها بالابهام لم ينزل الماء من الثقب الذى في أسفلها، وإذا أزلنا إبهامنا نزل الماء».

يقول الشريف المرتضى في تحليل طريف تحت عنوان «مسألة في الاعتراض على أن من استدل بدليل السحّارة على أن العالم ملاء وما أُبطل به ذلك».

«أعلم أني فكرت فيما أجاب به أبو هاشم منْ يقول: إن العالم مَلاء، إذا استدل بالآلة التى تسمّى السّحارة على ذلك؛ وادّعى أن علّة وقوف الماء عن النزول من الثُّقَب الصِّغار التى في أسفلها إذا سددنا رأسها هو منع الهواء بسدّ الرأس من أن يَحْدُث في مكان الماء. وقول أبي هاشم: إن العلة في وقوف الماء عن السيلان إذا سددنا رأس السّحارة بالاصبع أن الهواء يمنع الماء من النزول لضعف ما يخرج من الماء في الثُّقَب الصِّغار؛ فإذا فتحنا الرأس دفع الهواء الماء من أعلى السحارة فقوى الماء على النزول؛ فوجدته غير واضح، لأن الماء فيه اعتماداتُ سفْلا وثِقْل ونفس الهواء على مذهبنا — وهو الصحيح — لا اعتماد فيه البتة؛ فكيف تمنع مالا اعتماد فيه للجسم الذى فيه اعتماد سِفْلاً عن الهبوط والنزول! وإذا كان الهواء هو المانع من نزول الماء من الثُّقَبِ الصِّغار — ومن مذهب أبي هاشم جواز خلوّ الأماكن من الهواء — فكان يجب أن يجوزّ أن يسيل الماء من أسفل السحارة مع سد أعلاها بالاصبع؛ بأن يصادف ذلك مكاناً خالياً من الهواء الذى يدعّي أنه مانع من نزول الماء.

فأما تقويته لذلك بذكر الريشة، وأنها تقف في الهواء فلا تنزل؛ لأن الهواء يمنعها من الهبوط، فأول ما فيه أن الريش لخفته ربما أبطأ نزوله؛ فظن أنه واقف؛ وربما كان في الهواء اعتمادات مختلفة صعداً، فتمنع هذه الاعتمادات التى هي في خلاف جهة اعتمادات الريشة في النزول. فأما إذا كانت الريشة في هواء ساكن لا اعتماد فيه فإن الهواء لا يجوز أن يمنعها من الهبوط.

ومن أطرف الأمور قوله: إن الهواء إذا فتحنا عن رأس السحارة يدافع الماء، ويكون سبباً لنزوله من الثقوب؛ لأن الهواء على مذاهبنا لا اعتمادات فيه فكيف يدافع الماء! ومن قال من الفلاسفة: إن فيه اعتمادات صعداً لا يليق دفع الماء بقوله، لأن تلك الاعتمادات في غير جهة اعتماد الماء. وأيّ عاقل يخفى عليه أن الهواء الساكن المعتدل لا يجوز أن يدفع الماءَ من رأس السحارة!

وبعد، فمع القول بجواز خلوّ الأماكن من الهواء ؛ والقطع على ذلك في بعض الأحوال قد كان يجب أن

يجوز أن يفتح رأس السحارة، ولا يسيل الماء من الثقب من أسفلها؛ لأن الهواء الذى ادّعى أنه يُدافع الماء من رأسها مفقود.

والذى يدعيه أبو هاشم من أن السحارة لو ملئت زئبقا وسدّ رأسها لنزل من الثقوب الصغار؛ وقوله: إنما كان كذلك لثقل الزئبق، وأن الهواء الذى يلاقي من تحتها الثقوب الصغار لا يقوى على منعه من النزول؛ كما لا يتم ذلك في الماء، موقوف على التجربة.

فأما ما جربناه فنتكلّم على العلة المفرقّة بين الزئبق والماء؛ والذى يجب أن يعتمد في نقض الاستدلال من القائلين بذلك في الماء والسحارة أن يقال لهم: ما أنكرتم أن يكون الله تعالى أجرى العادة بأن يفعل في الماء السكون والوقوف مع سد رأسها، فلا ينزل من أسفلها، وإذا فتحنا رأسها لم يفعل ذلك السكون فيجرى الماء منها من الثقوب.

وليس ينبغي أن ينكر أصحابنا خاصة أن يكون هذا بالعادة؛ ونحن كلنا نقول إن انجذاب الحديد إلى حجر المغناطيس إنما هو بالعادة؛ وإلا فالمغناطيس وسائر الأحجار سواء. وأن بالعادة وقع الشّبع عند تناول الخبز واللحم، وارتفع عند غيرهما، والجنس واحد، وما تقول جماعتنا إنه بالعادة أكثر من أن يحصى.

وإذا أنكر الفلاسفة الملحدون تعليقنا ذلك بالعادة لجحدهم الصانع؛ دللناهم على الاصل الذي لمّا جهلوه ضعف ما نقوله في نفوسهم، فبثبوته يسهل ذلك كلّه.

فإذا قيل لنا: فما طريقه العادة يجوز فيه الاختلاف؛ فجوّزوا أن تكون السحارة في بعض البلاد التى لا تتصل بنا أخبارها يسيل الماء من أسفلها مع سد رأسها، ولا يسيل مع فتحها. قلنا: نحن نجوّز ذلك، ولا نمنع أن تختلف العادة فيه؛ كما لا نمنع أن يستمر في كل بلد؛ وعند كل أحد، ولا يخرج هذا الحكم مع استمراره من أن يكون مستنداً إلى العادة؛ ألا ترى أن القاطعين على وقوع العلم الضروري بمخبر الأخبار إذا كان العدد زائداً على أربعة مع استيفاء باقي الشروط ولا يجوّزون أن تختلف العادات في ذلك؛ بل يقطعون على أن العادة مستمرة بذلك في كل موضع.

فإذا قيل له: كيف يتميز ذلك وهو معتاد مع الاستمرار من الوجوب؟

قال: فإن المستند إلى العادة لابد من أن يختلف على بعض الوجوه؛ ليقارن بذلك الاختلاف الواجب؛ ويتميز عنه. والخبر الذى يجب عنده حصول العلم الضروري قد يقع مثله ومن جنسه؛ مع اختلاف بعض هذه الشروط؛ فلا يجب العلم. فلو كان هناك إيجاب لوجب العلم على كل حال، وهذا بعينه قائم في السحّارة؛ لأن الثقوب لو وسّعت لسال الماء على كل حال، ولو كانت هناك طبيعة موجبة لوقوف الماء لم تختلف الحال على بعض الوجوه.

وبعد، فإن علّة أبي هاشم في وقوف الماء من السحارة عن السيلان — وإن كنا قد بينا بطلانها — لا نجدها في القدح المعروف بقدح العدل؛ وهو قدح في وسطه بربخ[٥٩] مجوّف بلغ ارتفاعاً إلى قريب من أعلاه وهذا البربخ نافذ من جهة أسفله، وعلى رأس هذا البربخ في وسط القدح كالغشاء يحيط به من جوانبه على تجاف عنه؛ وهو من أعلاه مسدود، ومن أسفله مفروج، فإذا طرحنا في هذا القدح ماء فهو ثابت؛ حتى يبلغ إلى محاذاة رأس البربخ، فإذا زاد عليها ولو باليسير خرج جميع الماء من القدح بأن يصعد من أسفل القدح إلى رأس البربخ حتى ينزل جميعه.

وأصحاب الملاء يدّعون أن العلة في صعود الماء إلى فوق رأس ذلك من شأنه هو اضطرار الخلاء؛ وحتى لا يخلو مكان من متمكّن فيه، فما العلة في صعود الماء ثم هبوطه على مذهب أبي هاشم؟ وما يعلّل في السحارة لا يتأتى هاهنا؛ وليس بعد ذلك إلا اسناده إلى العادة، وجريها. والله ولي التوفيق».[٦٠]

نحو معجم لالفاظ الحضارة الاسلامية عبر التاريخ:

ومثل هذا المعجم، تفيد فيه كتب الأمالي والمجالس والمحاضرات، أكثر مما تفيد كتب التاريخ التقليدية، مع عدم إهمال كتب التاريخ بطبيعة الحال.

إننا في الغالب لن نجد في كتب التاريخ لفظ المُستراح بمعنى دورة المياه،[٦١] وأخشى أن يقرأ طالب في نص تاريخي أن الوزير فلان ذهب إلى المُسْتراح فيفهم أنه ذهب لمهمة رسمية لعدم معرفة الدلالة الاصطلاحية للمستراح في القرنين الثالث والرابع للهجرة. ونقرأ في كتب التاريخ أن الخليفة فلان أو الوزير فلان قال لحاجبه إعط فلاناً ألف درهم أو ألف دينار، وأخشى أن يفهم قارىء التاريخ أن ميزانية الدولة كانت نهباً لمزاج الحاكم يعطي منها بغير حساب، فالواقع أننا نقرأ في كتب الأمالي أن هناك شيئا اسمه «بيت مال السرور» فكأنما بيت المال مقسم إلى أقسام أو أبواب على نحو ما تقسم الميزانية إلى أبواب هذه الأيام. ومن المصطلحات الطريفة التى ذكرها التنوخي (الحَقّ) بمعنى محل الاجتماع لتشييع الميت، أو ما نسميه دار العزاء. فإذا قلنا إن القوم جلوس في الحق فإن هذا يعني اجتماعهم في دار العزاء[٦٢] ومن مصطلحات الشرطة الاسلامية (الطائف) الذى يسير مع العَسَس ليلا[٦٣] وعن العمل نجد طائفة العمال اليوميين أو عمال البناء خاصة، وكان يطلق عليهم في بغداد في القرن الرابع للهجرة الروزجاريه وهي كلمة فارسية تعني عمال المياومة.[٦٤] وكانت وظيفة التنجيم وتفسير الأحلام شائعة لدرجة أن المشتغلين بهذه المهنة كانوا يصيحون في بغداد للاعلام عن بضاعتهم.[٦٥] وفي بغداد أيضا كان هناك بائعو الثياب القديمة أو الرخيصة ويسمى صاحب هذه المهنة بالخلقاني.[٦٦] وهناك وظيفة البرّاج أي الموكل بأبراج الحمام الزاجل، والكتب الطائرة.[٦٧] ويورد ثعلب طائفة من هذه الألفاظ الاصطلاحية منها بيت النّقم وهو المكان الذى تحفظ فيه الابل وغيرها من الأنعام[٦٨]، أي الزريبة بلغتنا المعاصرة. وكان الناس يستخدمون لغة اصطلاحية لا يصلح معها الكشف القاموسي أو الدلالة اللغوية، ولا تدلنا عليها سوى كتب الأمالي والمجالس والمحاضرات. لقد كان للقوم ألفاظ يتشاتمون بها أو يتمازحون مثل قولهم يا (ماص) ويعنون أحيانا يا راضع الحليب من العنز بلا صوت، ويعنون أحياناً غير ذلك. وقولهم إذا حاز أحدهم مائة من الإبل أنه حاز الهنيدة[٦٩] أو الاشارة.[٧٠] لأنه إذا ملكها أشر وبطر.

وكل هذا لا تصلح فيه الدلالة اللغوية وإنما لابد من الرجوع إلى مفاهيم الناس، وذلك كتسمية الناس هذه الأيام للوساطة كظاهرة اجتماعية باسم فيتامين (و) فلو رجعنا إلى كل المعاجم العربية والافرنجية لما وجدنا المفهوم المقصود، وكتسمية المصريين للمليون جنيه باسم أرنب، فيقولون حاز فلانا أرنباً أو أنه بدأ في تكوين الأرنب الثاني.. وهكذا. مثل هذه التركيبات الشعبية في تاريخنا الاسلامي لا يمكن فهمها إلا من خلال كتب الأمالي والنوادر والمجالس والمحاضرات. وظني أن في هذا كفاية للفت نظر الباحثين عامة والمؤرخين خاصة إلى هذا الكنز الثمين.

وأخيراً فإن الأمثلة التى ضربناها على كتب الأمالي والمجالس والمحاضرات لا تشكل كل ما في التراث من هذا الفن، فقد اقتصرنا على ما أُلّف في هذا الميدان حتى القرن الخامس للهجرة، وعلى المطبوع المتوافر بين أيدينا. أما لو شئنا الحصر فقد ذكر حاجي خليفة من الكتب التي تحمل عنوان المحاضرات خمساً ومن الكتب التى تحمل عنوان المجالس أو المجالسات ثلاثة عشر، ومن الكتب التى تحمل عنوان الأمالي ثمان وستين. فتلك إذن ست وثمانون كاملة.[٧١] وإذا علمنا أن بعض كتب الأمالي والمجالس والمحاضرات لا تحمل في عنوانها لفظ الاملاء أو المجلس أو المحاضرة أدركنا أننا أمام فئة من الكتب العربية لم تحظ بحقها في القراءة والنشر، ولم نحظ بحقنا منها استفادة واستعادة واستخلاصا.

المراجع والتعليقات

(١) **حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله كاتب جلبي**: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. اسطنبول، نشر محمد شرف الدين بالتقايا ورفعت الكليسي د.ت.جـ ١. ص ١٦١. أعادت طبعه بالأوفست مكتبة الاسلامية بطهران، ١٣٧٨هـ ط ٣

(٢) **عبدالله أحمد العلوي الحسيني**: مقدمة «أمالي اليزيدي» بيروت، عالم الكتب، د.ت ص.يا.

(٣) **نفس المرجع. ص. يا.**

(٤) **ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى**: مجالس ثعلب. شرح وتحقيق عبدالسلام هارون. القاهرة، دار المعارف، (١٩٤٨). القسم الأول. ص ١١٣. س ١ و ٢ ، ص ١٦٥ . س ١١. وأحيانا كان ثعلب يمثل بيده في مجلسه كوسيلة إيضاح. مثال: «والقبضة ما قبضته بيدك، وأشار بأطراف أصابعه». القسم الأول. ص ١٠٤.

(٥) **يقول ابن منظور**: «.. والمحاضرة والمجادلة، هو أن يغالبك على حقك فيغلبك عليه ويذهب به.. وفيها معنى المكابرة والمغالبة. وحاضرته جاثيته عند السلطان. ورجل حضر ذو بيان».

(٦) **عبدالسلام محمد هارون،(محقق)**: مقدمة «مجالس ثعلب» المرجع السابق. ص ١٨. وأبو العباس ثعلب هو إمام الكوفيين في النحو واللغة والحديث. ولد في السنة الثانية لخلافة المأمون في ٢٠٠ هـ وكان اهتمامه أساسا بالنحو ثم وسع دائرة معارفه. كان منافسا للمبرد في البصرة. وقد توفي في خلافة المكتفي بن المعتضد، فيكون قد عاصر أحد عشر خليفة عباسيا ودفن في بغداد، سنة ٢٩١هـ.

(٧) **ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى**: المرجع السابق. القسم الأول. ص ١٤١.

(٨) **التنوخي، أبو علي المحسّن بن علي التنوخي**: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة. بمحمدون، ١٩٧١. تحقيق عبود الشالجي. ج ١. محاضرة ٤٦ . ص ٩٧.

(٩) **الزجاجي، أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحاق**: مجالس العلماء. تحقيق عبدالسلام محمد هارون. القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٣ شاركت في نشره دار الرفاعي بالرياض. ص ١٦٢.

(١٠) **الدينورى، ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم**: عيون الأخبار. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣. كتاب النساء. ص ٣٩.

(١١) **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر**: الحيوان. شرح وتحقيق عبدالسلام محمد هارون. القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٥. ط ٢. والجاحظ أشهر من أن يحتاج لتعريف في حاشية. ولد ١٥٠هـ ومات سنة ٢٥٠هـ وهو خير ممثل للعصر الذهبي للأمة الاسلامية؛ عصر هارون والمأمون. وله أكثر من ٣٦٠ مؤلفا.

(١٢) **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر**: البيان والتبيين. تحقيق عبدالسلام محمد هارون. القاهرة، ١٩٤٨.

(١٣) **المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد**: الكامل في اللغة والأدب. بيروت، مكتبة المعارف، د.ت. كتب على صفحة العنوان: روجعت هذه الطبعة من عدة نسخ خطية ومطبوعة، وشرح الضروري منها وصححت بمعرفة لجنة من المحققين باشراف مكتبة المعارف ببيروت. والمبرد هو إمام البصريين في النحو كما كان ثعلب إمام الكوفيين. وقد توفي سنة ٢٨٥هـ.

(١٤) **ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم**: عيون الأخبار. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣. سلسلة التراث للجميع. توفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦هـ وهو كوفي المنشأ وبغدادي المولد وقد ولي قضاء الدينور مدة فنسب إليها. ومن كتبه غريب القرآن، والعرب وعلومها، والرد على الشعوبية.

(١٥) **اليزيدي، أبو عبدالله محمد بن العباس**: الأمالي. بيروت، عالم الكتب د.ت. شاركت في نشره مكتبة المثنى بالقاهرة. توفى اليزيدي سنة ٣١٠هـ ويصفه صاحب الأغاني بأنه آخر من بقى من علماء آل البيت. وله من الكتب غير الأمالي: كتاب الخيل، ومختصر في النحو، وكتاب أخبار اليزيديين، وكتاب مناقب بني العباس.

(١٦) **المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي**: أمالي المرتضى؛ غرر الفوائد ودرر القلائد. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧. ولد المرتضى سنة ٣٥٥ وتوفى ٤٣٦هـ. وهو من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو إمام في الأدب والشعر والكلام وقد ولد ومات ببغداد.

(١٧) **الزجّاجي، أبو القاسم عبدالرحمن بن القاسم الزجاج**: الأمالي في المشكلات القرآنية والحكم والأحاديث النبوية. بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٣. ط ٢.

وكان الزجاجي نحويا في الأساس وهو بغدادي الدار والنشأة زار مكة ومكث في دمشق فترة. وكانت وفاته في ٣٣٩هـ، وفي كشف الظنون سنة ٣١٦هـ. و ٣٣٧ في الأعلام نقلا عن الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي.

(١٨) **القالي**، أبو علي اسماعيل بن **القاسم**: الأمالي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٠. ولد القالي بمناذجرد من ديار بكر سنة ٢٨٨ ورحل للعراق طلبا للعلم وهو منسوب إلى قالي قلا من أعمال أرمينية. ولطول اقامته في بغداد سمى البغدادي أيضا. ارتفع شأنه ووصل خبره إلى عبدالرحمن الناصر بالأندلس فاستدعاه واحتفى به علماء الأندلس. وكانت وفاته في قرطبه سنة ٣٥٦هـ.

(١٩) **الراغب الأصبهاني، أبو القاسم حسين بن محمد**: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء. بيروت، د.ت. توفي الاصبهاني ٥٠٢هـ وهو من أهل أصبهان وسكن بغداد. له بالاضافة للمحاضرات الذريعة إلى مكارم الشريعة والأخلاق وجامع التفاسير وأفانين البلاغة.

(٢٠) **التنوخي، أبو علي المحسّن بن علي**: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة تحقيق عبود الشالجي. بيروت، ١٩٧١. وكان التنوخي من أسرة عمل أفرادها بالقضاء وكان لهم بالأدب والشعر ولوع. ولد بالبصرة سنة ٣٢٧هـ واستقر في بغداد وولي قضاء واسط. وله أيضا كتاب الفرج بعد الشدة. وتوفى سنة ٣٨٤هـ.

(٢١) **الحصري القيرواني، أبو اسحاق ابراهيم بن علي**: زهرة الآداب. بيروت، دار الجيل، ١٩٧٢. ط ٤ تحقيق زكي مبارك. والحصري القيرواني هو ابراهيم بن علي بن غنم الأنصاري وهو أديب وناقد وينسب للقيروان كما ينسب إلى عمل أسرته وهو صناعة الحصر. له كتب منها المصون في سر الهوى المكنون وجمع الجواهر في الملح والنوادر.

(٢٢) **ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى**: المرجع السابق. القسم الأول. ص ١٠٤.

(٢٣) **الدينوري، ابن قتيبة**: المرجع السابق. جـ٢ ص ص ١٥٤ ــ ١٥٥.

(٢٤) **المبرد، أبو العباس**: المرجع السابق. جـ١ ص ٥٩.

(٢٥) الوُكواك هو الغليظ

(٢٦) الزونَّك هو القصير.

(٢٧) **الدينوري، ابن قتيبة**: المرجع السابق. جـ٢. ص ١٣٩.

(٢٨) **المبرد، أبو العباس محمد**: المرجع السابق. ص ص ٣٥٦ ــ ٣٦٦.

(٢٩) **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:** البيان والتبيين. نفس الطبعة السابقة. جـ١. ص ١٦١.

(٣٠) نفس المرجع. جـ١. ص ١٠٦.

(٣١) **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:** الحيوان. نفس الطبعة السابقة. جـ٧. ص ٥.

(٣٢) **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:** البيان والتبيين. نفس الطبعة السابق. جـ٢. ص ٢٢٠.

(٣٣) نفس المرجع. جـ١. ص ١٨.

(٣٤) نفس المرجع. جـ١. ص ١٣.

(٣٥) نفس المرجع. جـ١. ص ١٢٣.

المبرد، أبو العباس محمد : المرجع السابق — جـ١. ص ١٩.

«والاستعانة هي ادخال ألفاظ لا تخدم المعنى لمجرد اقامة الوزن في الشعر أو قطع الكلام بين الحين والحين للتأكد من فهم المستمع. مثل القول: هل تفهم؟ هل تسمعني؟ وما إلى ذلك».

(٣٦) **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:** البيان والتبيين. نفس الطبعة السابقة. جـ١. ص ٤٠.

(٣٧) **ابن منظور:** لسان العرب. مادة (ح ب ر).

(٣٨) **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:** الحيوان. نفس الطبعة السابقة. جـ١. ص ١٣.

(٣٩) **سيد نوفل:** البلاغة العربية في دور نشأتها. ص ١٠٢.

(٤٠) **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:** البيان والتبيين. نفس الطبعة السابقة. جـ٢ ص ٢١٧.

(٤١) نفس المرجع. جـ٢. ص ٢١٢.

(٤٢) نفس المرجع. جـ٢. ص ٢١٥.

(٤٣) **ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى:** المرجع السابق. القسم الأول. ص ١٧٠.

(٤٤) **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:** الحيوان. نفس الطبعة السابقة. جـ٤. ص ١٠٠.

(٤٥) **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:** البيان والتبيين. نفس الطبعة السابقة. جـ١. ص ٥٥.

(٤٦) نفس المرجع. جـ١. ص ٥٨.

(٤٧) نفس المرجع. جـ١. ص ٦٢.

ابن منظور : لسان العرب. مادة (ب ذ أ).

(٤٨) **ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى:** المرجع السابق. القسم الأول. ص ١٠.

(٤٩) **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:** الحيوان. نفس الطبعة السابقة. جـ٢. ص ص ٩١ — ٩٢.

(٥٠) **طه حسين:** البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر. بحث كتبه بالفرنسية طه حسين وترجمه عبد الحميد العبادي. نشر في مقدمة نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر. القاهرة، ١٩٣٩. ص١.

(٥١) **الجاحظ، أبو عمرو بن بحر:** الحيوان. نفس الطبعة السابقة. جـ٣. ص ٧٣.

(٥٢) نفس المرجع. جـ٣. ص ص ١٢٢ — ١٢٥.

(٥٣) نفس المرجع. جـ٥. ص ٢٩٥ وفي البيان والتبيين أيضا. ص ٢٦٣. وفيهما **أيضا** الكتابة بمعنى الاشتقاق.

(٥٤) نفس المرجع. جـ٣. ص ٢٣٩.

(٥٥) **المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد:** المرجع السابق. جـ١. ص ١٨.

(٥٦) **المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي:** المرجع السابق. صفحات متفرقة.

(٥٧) **الزجاجي، أبو القاسم عبدالرحمن:** مجالس العلماء. نفس الطبعة السابقة.

(٥٨) **المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي:** المرجع السابق. القسم الثاني. ص ص ٢٩٥ — ٢٩٦.

(٥٩) البربخ مجرى الماء.

(٦٠) **المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي :** المرجع السابق. ص ص ٣٢٥ — ٣٢٧.

(٦١) **التنوخي، أبو علي المحسّن بن علي:** المرجع السابق. جـ٤. ص ٣٩.

(٦٢) نفس المرجع. جـ٤. ص ١٧.

(٦٣) نفس المرجع. جـ٤. ص ١٧٥.

(٦٤) نفس المرجع. جـ٤. ص ١٥٨.

(٦٥) نفس المرجع. جـ٤. ص ١٩٢.

(٦٦) نفس المرجع. جـ٤. ص ١٧٨.

(٦٧) نفس المرجع. جـ٣. ص ٢٢.

(٦٨) **ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى:** المرجع السابق. ص ٢٧.

(٦٩) **الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن:** مجالس العلماء. نفس الطبعة السابقة. ص ص ٣١ — ٣٣.

(٧٠) نفس المرجع. ص ٧٧.

(٧١) **حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله كاتب جلبي:** المرجع السابق. جـ١. ص ص ١٦١ — ١٦٦، جـ٢. ١٥٩٠ — ١٥٩١، ١٦٠٩ — ١٦١٠.

الكتاب العربي في مصر بين المخطوط والمطبوع

مصطفى أبو شعيشع

أستاذ مساعد ــ قسم المكتبات والوثائق جامعة القاهرة

يهدف هذا البحث إلى دراسة حال المخطوطات خلال فترة الحكم الفرنسي لمصر وما تلاها حتى نهاية حكم محمد علي مع مقارنتها بالكتب التي طبعت في هذه الفترة بعد دخول الطباعة مصر للمرة الأولى، كما يهدف إلى عرض النتائج الحضارية التي ترتبت على معرفة الطباعة، ومدى ــ تأثر أوائل الكتب المطبوعة بنفس مناهج نسخ الكتب المخطوطة، وما طرأ من تغير في نوعية الكتب المطبوعة نتيجة للاحتياجات العلمية والفنية التي ظهرت في أعقاب الحملة الفرنسية.(١)

ظلت مصر لفترة طويلة ــ كغيرها من بلدان الشرق ــ تعتمد في نقل المعرفة بين الأجيال المتعاقبة على الكتاب المخطوط، وذلك قبل أن تعرف فن الطباعة والكتاب المطبوع. غير أن تلك الوسيلة كانت محدودة الأثر في نشر المعرفة بين الناس، لصعوبة توافر نسخ كثيرة من المخطوط الواحد يمكن تداولها بين عدد كبير من القراء، بسبب الاعتماد على اليد في صناعتها، وما ينشأ عن ذلك من بطء في العمل واسراف في الوقت وقلة في الانتاج، وبالتالي زيادة في النفقات نتيجة لارتفاع أجور النساخين. لذلك لم يكن يقبل على اقتنائها سوى القادرين من الناس.(٢)

وترتبط بداية ظهور الكتاب العربي المطبوع في مصر ارتباطا وثيقا بوقت دخول الطباعة إليها. والمعروف أن الطباعة لم تدخل مصر إلا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وذلك من خلال الحملة الفرنسية عليها في سنة ١٧٩٨م. على حين أن الكتاب العربي المطبوع قد عرف في أوربا قبل ذلك بثلاثة قرون (منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي)، وذلك راجع إلى أن الغرب الأوربي كان أسبق من الشرق في معرفة فن الطباعة، منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي على يد يوحنا جوتنبرج(٣).

والحقيقة أن الروح الدينية كانت قوية جدا في العصور الوسطى حتى أن الناس كانوا يصبغون كل شيء بصبغة الدين.

وما كاد فن الطباعة يظهر حتى اتجه الأوربيون وجهة دينية غرضها طبع الانجيل بلغته الأصلية من ناحية، ثم نشر آرائهم الدينية بين غيرهم من ناحية أخرى. وقد كانت اللغة العبرية أول لغة شرقية اجتذبت عناية المهتمين بالطباعة، فهي لغة الانجيل والتوراة، ولهذا طبعت التوراة بالعبرية في الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي بايطاليا. ثم اتجهت عناية المهتمين بالدين إلى اللغة العربية فكانت ثاني لغة شرقية تطبع بها الكتب. ففي عام ١٥١٤م قامت أول مطبعة عربية في فانو Fano بايطاليا باصدار أول كتاب باللغة العربية وهو «صلاة السواعي» حسب طقوس كنيسة الاسكندرية. ومن فانو انتشرت الطباعة العربية في مختلف المدن الايطالية، فقامت البندقية بطبع القرآن الكريم باللغة العربية سنة ١٥٣٠م، ولكن النسخ أحرقت خوفا من أن تؤثر في عقائد المسيحيين.(٤)

وقد حظي الكتاب العربي بالنصيب الأوفر من عناية المطابع الايطالية ، ففي سنة ١٥٦٦م أصدرت مطبعة الآباء اليسوعيين بروما كتاب «اعتقاد الأمانة الأرثوذكسية في كنيسة رومية» لأحد الآباء اليسوعيين. وفي عام ١٥٨٤م طبعت أول كتاب علمي باللغة العربية وهو كتاب «البستان في عجائب الأرض والبلدان». ومن مطابع روما العربية اشتهرت أيضا مطبعة «آل ميدتشي» التي نشرت كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للادريسي، وقانون ابن سينا في الطب وغيرها. وهكذا أخذ الغرض الديني يتحول إلى الناحية العلمية.(٥)

وواصلت طباعة الكتب العربية انتشارها في البلدان الأوربية ولقيت عناية عظيمة، فأنشئت مطبعة ليدن الشهيرة بهولندا في سنة ١٥٩٥م. وقد اكتسبت هذه المطبعة شهرة عظيمة بما نشرته باللغة العربية من الكتب ومنها «أمثال الحكيم لقمان» سنة ١٦١٥م. وظهرت المطبعة الملكية بباريس وكان

أول كتاب طبع بها في صناعة النحو للقس جبرائيل الصهيوني والشماس يوحنا الحصروني سنة ١٦١٣م. ثم أنشئت مطبعة أكسفورد في أواسط القرن السابع عشر الميلادي وأهم ما أصدرته كتاب «الأمور المشاهدة بمصر» لعبد اللطيف البغدادي. وانتشرت الطباعة العربية في عواصم أوربا، في جوتنجن وفيينا وباريس وبطرسبرج وغيرها، وطبعت ما لا يقع تحت الحصر من الكتب العربية.(٦).

وفي مقابل هذا الاهتمام الأوربي بالطباعة العربية والنشاط الهائل في نشر الكتب العربية، نجد أن **الشرق لم يعرف الطباعة إلا في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي** حين أنشئت أول مطبعة عربية في حلب وأصدرت سنة ١٧٠٢م أول مطبوعاتها وهو «طقوس كنسية»، وتلتها مطبعة الاستانة في العقد الثاني من هذا القرن وأصدرت في سنة ١٧٢٨م أول مطبوعاتها وهو كتاب «صحاح الجوهري». أما ثالث المطابع العربية فقد انشئت في دير مرحنا بالشوير (احدى قرى لبنان) سنة ١٧٣٣م وأول كتاب صدر عنها هو «ميزان الزمان» للأب نيرتيرج تعريب الأب بطرس فروماج وطبع في سنة ١٧٣٤م. وأنشئت المطبعة الرابعة في لبنان أيضا في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي وكانت في دير القديس جاورجيوس ببيروت، وأول كتاب نشرته هو «المزامير» في سنة ١٧٥١م.(٧)

أما أول مطبعة دخلت مصر فهي تلك التي أحضرها معه نابليون بونابرت مع حملته سنة ١٧٩٨م كما سبق القول. فلقد أدرك نابليون منذ اللحظة الأولى التي قرر فيها احتلال مصر أن الدعاية هي السلاح الماضي الذي يكسب به قلوب المصريين. فكان عليه إذن أن يعد العدة لحملة من الدعاية، يوطد أركانها بمطبعة يحملها معه لتساعده فيما يرمي إليه. وحرص بونابرت على تزويد المطبعة التي سيحملها معه إلى مصر بالحروف العربية واليونانية والفرنسية. وعني عناية خاصة بالمطبعة الجديدة ورجالها(٨).

وقد زعم الفرنسيون أن السبب الذي دعاهم إلى احضار مطابعهم إلى مصر إنما هو الرغبة في كشف مصر علميا وطبع مؤلفات عنها. وهذا يجافي الحقيقة، فقد كانت الحملة من أساسها عملا حربيا لا دخل للبحث العلمي فيه، فما كان البحث العلمي يوما من الأيام ليتم بواسطة حملة حربية معدة بوسائل القتال والتدمير. أما العلماء والمطبعة فكانوا وسائل لتسهيل حكم مصر على بونابرت. فالعلماء يبحثون نظمها والمطبعة تنشر له ما يريد من منشورات لارهاب المصريين وحملهم على الخضوع لهذا النظام الجديد.(٩)

والواقع أنه لم يكن للفرنسيين بمصر مطبعة واحدة ، وإنما كانت لهم ثلاث مطابع أو مطبعتان بثلاثة أسماء. وهذه المطابع هي: المطبعة الشرقية الفرنسية بالاسكندرية، وكانت أولى المطابع اصدارا للمطبوعات في مصر.(١٠) ومن مطبوعاتها العربية «الهجاء العربي والتركي والفارسي» وضعه مارسل للاستعانة به في أعمال المطبعة، وطبع قبل ١٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨م ويقع في ١٦ صفحة، وكان ثمنه ١٦ ميدي(١١) على ورق عادي و٢٠ ميدي على ورق مصقول، و«تمارين للقراءة العربية الفصيحة» وهي مقتطفات من القرآن الكريم وضعها مارسل لفائدة من يريد أن يتعلم هذه اللغة من الفرنسيين وطبعت سنة ١٧٩٨م وتقع في ١٢ صفحة وثمنها ١٢ ميدي على ورق عادي و٢٠ ميدي على ورق مصقول.(١٢)

أما المطبعة الثانية فهي مطبعة مارك أورل Marc Aurel وكانت مطبعة خاصة ملحقة بالجيش لطبع ما يصدره قواده من الأوامر اليومية للجنود.(١٣)

والمطبعة الثالثة هي المطبعة الأهلية بالقاهرة التي حلت محل المطبعة الشرقية بالاسكندرية بعد ١٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨م. ومن مطبوعاتها التي صدرت بالعربية أو العربية والفرنسية معا «أمثال الحكيم لقمان» باللغة العربية مع ترجمة فرنسية ومقدمة خاصة بهذا الحكيم بقلم مارسل، وطبع سنة ١٧٩٩م ويقع في ١٢٠ صفحة وكان ثمنه ٩٠ ميدي. و«مذكرة خاصة بداء الجدري المتفشي في مصر موجهة للديوان بالقاهرة» باللغتين العربية والفرنسية تأليف ديسجنت الطبيب الأول لجيش الشرق، وقد أعيد طبعها مرة أخرى ولكن باللغة العربية فقط. أما «مجموعة الأوراق الخاصة بمحاكمة سليمان الحلبي قاتل القائد كليبر» فقد صدرت باللغات الفرنسية والعربية والتركية، ولم يرد في المراجع ذكر لعدد صفحات المطبوعين الأخيرين ولا ثمن كل منهما.(١٤)

وبمراجعة ما نشرته مطابع الحملة الفرنسية من المطبوعات العربية لا نجد من بينها سوى كتاب واحد هو «أمثال الحكيم لقمان» الذي يقع في ١٢٠ صفحة، أما بقية مطبوعاتها فهي ليست كتبا، بل كتيبات، وذلك وفقا للتعريف الذي أخذت به هيئة اليونسكو من أن الكتاب لا يقل عدد صفحاته عن ٤٩ صفحة بخلاف الغلاف. أما الكتيب، فهو ما لا يقل عدد صفحاته عن خمس صفحات ولا يزيد عن ٤٨ صفحة بخلاف الغلاف.(١٥)

وعلى ذلك يمكن القول بأن كتاب «أمثال الحكيم لقمان» الذي أصدرته المطبعة الأهلية الفرنسية بالقاهرة سنة ١٧٩٩م في ١٢٠ صفحة باللغة العربية مع ترجمة فرنسية بقلم مارسل، وهو أول كتاب عربي طبع في مصر.

وتجمع المراجع على أن الفرنسيين عند جلائهم عن مصر سنة ١٨٠١ لم يتركوا مطابعهم فيها وإنما حملوها معهم إلى فرنسا.(١٦) ويؤيد هذا أن كتاب «نحو اللغة العربية العامية» وهو آخر مطبوعات الفرنسيين في مصر بدىء في طبعه بالمطبعة الأهلية بالقاهرة، ثم أخلى الفرنسيون القاهرة، فاستؤنف طبعه في نفس المطبعة في الاسكندرية، ولكنه لم يتم أيضا فتوقف الطبع عند صفحة ١٦٨ من الكتاب بجلاء الفرنسيين عن الاسكندرية. فأخذ الفرنسيين للمطبعة معهم إلى الاسكندرية بعد اخلاء القاهرة، دليل على اعتزامهم أخذها إلى فرنسا.(١٧)

وهكذا عادت مصر مرة أخرى — بعد جلاء الفرنسيين عنها — إلى عصر الكتاب المخطوط، ويحدثنا المستشرق لين Lane عن ذلك فيذكر أن الكتاب المخطوط كان الوسيلة لنشر المعرفة بين الناس، وكانت صناعته قاصرة على الوراقين. فكان كل وراق يستخدم عددا من النساخين الذين كانوا عادة من مدرسي الأزهر ومجاوريه ممن كانوا يكسبون مقومات معيشتهم في القاهرة بطرق شتى منها نسخ الكتب لمن يريد. وكان الكتاب يقسم إلى ملازم أو كراسات مستقلة غير محبوكة،(١٨) ويوضع في جلد خارجي بدون تجليد حتى يستخدم الكتاب الواحد عدد كبير من القراء في نفس الوقت بأن يتناول كل منهم كراسة ويقرأها ثم يتبادل الكراسات مع غيره.(١٩) وكانت هذه الطريقة ضرورية نظرا لقلة عدد النسخ من الكتاب.(٢٠)

وقد تأخرت عودة الطباعة والكتاب المطبوع إلى مصر حتى سنة ١٨٢٢ حين أنشأ محمد علي مطبعة بولاق، ويرجع السبب في ذلك إلى الفوضى التي عمت البلاد بعد جلاء الفرنسيين عنها. فقد تولى محمد علي شئون مصر وهي ولاية عثمانية، وكانت ولاية ضعيفة منقسمة تتنازع السلطة فيها قوتان همجيتان (المماليك والحكام العثمانيون). وكانت إلى جانب هذا يتهددها الانجليز من الخارج بعد أن كانوا قد طردوا منها الفرنسيين. أما شعب مصر فقد استسلم منصرفا إلى الزراعة يجني ثمرات أرضه ليغتصبها منه من يغتصب السلطة ولو لبضعة أيام. وعلاوة على ذلك كان الباب العالي — الذي يدعي ملكية مصر — ضعيفا. ولم يكن تحفز الانجليز للاستيلاء على مصر إلا جزءا من مشروع أوربي كبير كان يرمي إلى تقسيم الامبراطورية العثمانية.(٢١)

ولم يكن محمد علي بالرجل الذي يقبل أن يكون له شريك في السلطان سواء من الداخل أو من الخارج، ومن ثم كان هدفه أن يخلق من مصر دولة قوية يستقر فيها السلطان لشخصه، وترث امبراطورية السلطان العثماني. فقد كانت مصر — على ضعفها — أقوى دولة اسلامية في ذلك الوقت، وكان من مصادر قوتها المنتظرة طموح محمد علي. وكانت وسيلته إلى هذه القوة جيشا قويا وادارة منظمة. والحقيقة أن كل مشروع وضعه محمد علي وكل مؤسسة أقامها إنما كانت جزءا من ذلك المشروع الكبير ووسيلة لتحقيق ذلك الغرض السياسي.(٢٢)

فلقد أدرك محمد علي أن عظمة الأمم الأوربية وبخاصة الانجليز والفرنسيين ونشاطهم في ميادين العلم والصناعة والتوسع الاقتصادي والسياسي راجع إلى تقدم نظمهم الحربية. لذلك كان أول ما فكر فيه تكوين قوة حربية وابقاؤها قوية فعالة حتى يتم للبلاد استقرارها السياسي وتوضع علاقاتها بالدولة العثمانية على أساس وطيد تضمنه الدول الأوربية. وبذلك تتحول مصر في حكم محمد علي من مجرد ولاية صغيرة تابعة لامبراطورية مضمحلة إلى مستوى دولة عسكرية قوية.(٢٣)

فالجيش كان عدة محمد على الأولى فيما كان يؤمله لوطنه الجديد من عز ورفعة. وبمساعدة الجيش وعلى أكتاف الجنود

نهض محمد علي واستقرت ولايته، وقد فطن إلى هذا على ضوء خبراته السابقة لأنه أتى إلى مصر جنديا في الجيش التركي وشهد فصول تنازع البقاء التي تلت خروج الجيش الفرنسي، وكان الجيش هو الذي يبت في مصير كل بطل من أبطال تلك الفصول. وكانت له مواقع حربية كثيرة كان الجيش وسيلته فيها إلى النصر، وأمثال ذلك هزيمته للحملة الانجليزية على مصر (في سبتمبر ١٨٠٧م) ثم مذبحة المماليك في مارس ١٨١١م، ثم حملته على بلاد العرب (١٨١٢ ـــ ١٨١٨م).(٢٤)

وكل هذه المواقع هي التي رفعته إلى الولاية وثبتتها له، فلا غرابة إذن أن يهتم بالجيش ويجعله أساس مشروعه الكبير لأن وجوده وبقاء دولته واستقلاله عن السلطان والارتفاع بمصر إلى المستوى الجدير بتاريخها من القوة والسيادة لا يتم إلا به. ولذا نجد أن كل أعمال محمد علي مهما عظمت لم يقم بها إلا من أجل وسيلته العظمى وهي الجيش. فمعظم مدارسه كانت خاصة بتعليم الضباط بمختلف طبقاتهم وأنواعهم، وحتى المدارس التي تبدو وكأنها لا صلة بينها وبين الجيش لم ينشئها إلا من أجله، فمدرستا الطب البشري والطب البيطري ما انشئتا إلا لتخريج أطباء للجيش ناسه وحيوانه.(٢٥)

وفي الميدان الاقتصادي بدأ محمد علي يبني على أسس جديدة لم تعرفها مصر من قبل. وقوام هذه الأسس اشراف الحكومة على ما في البلاد من زراعة وصناعة وتجارة، بل احتكارها النشاط الاقتصادي كله في يدها: فالأراضي تنزع من أصحابها، والمحاصيل تودع في شون الحكومة، والتجار، والأجانب منهم خاصة، يتجهون إلى الحكومة في الشراء والبيع، والنظام الاقتصادي يتحول من الصناعة البسيطة الصغيرة التي يقوم بها الأفراد إلى الصناعة الكبيرة التي تقوم بها الحكومة فيما أنشأت من مصانع في حاضرة البلاد والأقاليم.(٢٦) وكل ذلك لم يكن إلا ضمانا للجانب الاقتصادي من مشروعه ووسيلة إلى هذا المشروع.(٢٧)

وقد شعر محمد علي بالحاجة الماسة إلى الاتجاه نحو الدول الأوربية التي سبقت مصر في ميادين الحرب والاقتصاد، والتي لها من خبرتها في الشئون الحربية والاقتصادية ما قد يعين الدول المبتدئة ويهديها سبيلها إلى الحضارة الحديثة، وكان اتجاهه على الأخص نحو الأمم ذات العلاقة القوية بمصر: فاتجه أولا إلى ايطاليا ثم إلى فرنسا، واستدعى منهما من تحتاج إليه الحكومة في القيام على منشآتها الجديدة كالجيش والأسطول والمستشفيات والمصانع والمدارس.(٢٨)

ولكن هذه المؤسسات الحربية والاقتصادية تحتاج إلى إدارة حازمة مستنيرة تتطلب موظفين متعلمين ملمين الماما قويا بأهداف الحكومة وما تحتاجه البلاد في نهضتها الحديثة من جهة، وبما بلغه الأجانب من رقي في تلك النظم من جهة أخرى. وقد أدرك أن الاكثار من الأجانب في خدمة الحكومة ليس من الصواب في شيء، فكثير منهم على الرغم من كفايتهم في النظم الحربية والاقتصادية كما عرفتها بلادهم في ذلك الوقت ـــ يجهلون أهداف الحكومة، وقد يعرقلون أعمالها قصدا أو عن غير قصد، وقد يجهلون أيضا ما تحتاجه بلاد ناشئة كمصر من تلك النظم الحربية والاقتصادية. وقد يرجع هذا إلى جهلهم بلغة البلاد وعادات أهلها وطباعهم. وكان محمد علي لا يثق في كثير منهم، ويرى أنهم إنما يعملون لمصلحتهم الذاتية قبل أن يعملوا لمصلحة الدولة، هذا إلى جانب النفقات الطائلة التي تنفق عليهم سواء في الرواتب الباهظة التي يتقاضونها أو في رواتب المترجمين الذين يستعينون بهم.(٢٩)

لهذا وضع محمد علي نصب عينيه ألا يطول اعتماد البلاد على الأجانب، حتى إذا آن أن يستبدل بهم أهل البلاد فلا يجب أن يتوانى في ذلك، ففي صرفهم عن المنشآت الجديدة، واحلال المصريين محلهم صيانة لأموال الحكومة وفخر لها. وقد اتخذ محمد علي لذلك سبلا عدة، فهو يرى أن نظم الغرب وعلومه قد كتبها الغربيون، وأنها إذا نقلت إلى العربية أو التركية استطاعت الحكومة أن تسترشد بها وأن تسير طبقا لها. فأول واجب للحكومة إذن نقل الكتب الغربية وخاصة الفرنسية والايطالية إلى العربية أو التركية باعتبارهما اللغتين اللتين يعرفهما تلاميذ المدارس.(٣٠)

لكن هذه الطريقة في الأخذ عن الأوربيين بطيئة من جهة، وغير مأمونة من جهة أخرى، لأن اختيار الكتب التي تنقل ثم المترجمين الذين يقومون بنقلها قد لا يخلو من زلل، والترجمة حقا من الوسائل التي تنقل بها آراء أمة ونظمها وعلومها إلى أمة

أخرى، ولكنها ليست الوسيلة الوحيدة. وخير منها اعداد الرجال الذين يدرسون هذه الآراء والنظم والعلوم في بلادها، حتى إذا عادوا إلى مصر كانوا قادتها في السير بها في طريق الحضارة الجديدة، فهم يحلون محل الأجانب في الأعمال التي تخصصوا لها. ويقومون في الوقت نفسه بترجمة الكتب الغربية.(٣١) وبذلك توالى ارسال البعوث العلمية إلى مختلف البلاد الأوربية.(٣٢)

ولكن محمد علي كان يحتاج إلى عدد كبير من المصريين أو الأتراك ليستخدمهم في منشآته الجديدة: فهو محتاج إلى ضباط وأطباء لجيشه ومستشفياته، وصناع لمصانعه، وموظفين لدواوينه. وهو لا يمكن أن يرسل هؤلاء جميعا إلى أوربا ليتزودوا من علومها ويحذقوا لغاتها، ثم هو يريد أن يستغل الأجانب في مصر خير استغلال، لذلك كان يطلب إلى هؤلاء الأجانب أن يقوموا — إلى جانب ما ينهضون به من عمل — بتعليم علومهم لنفر من أهل البلاد يلحقهم بهم، حتى إذا أتموا تعليمهم حلوا محل أساتذتهم، فالضباط الأجانب ينظمون فرق الجيش ويعلمون الضباط والجند المصريين أو الأتراك، والأطباء الأجانب يعملون في المستشفيات ويعلمون التلاميذ ليكونوا أطباء. وهذه ناحية هامة في التعليم، بل هي الأساس الأول الذي قام عليه النظام التعليمي الحديث في عصر محمد علي.(٣٣)

وإلى جانب ذلك أنشئت المدارس ليتعلم فيها عدد آخر كبير من أهل البلاد من علوم أوربا وفنونها في صورة منظمة وافية. وكان افتتاح المدارس الأولى يتمشى وحاجة الحكومة. فإذا احتاجت إلى ضباط أنشأت المدارس الحربية، وإذا احتاجت إلى مهندسين انشأت مدرسة الهندسة، وإذا احتاجت إلى مهندسين زراعيين أنشأت مدرسة الزراعة وإذا احتاجت إلى مترجمين وموظفين أنشأت الدرسخانة أو مدارس الإدارة والمحاسبة والألسن. ورأت الحكومة أنه لا بد لتلاميذ هذه المدارس من قدر كاف من التعليم قبل التحاقهم بها فأنشئت المدارس التجهيزية والابتدائية. ومن هنا جاء الرأي القائل بأن المدارس أنشئت لسد حاجة الجيش والمصانع ودوائر الحكومة بالعاملين.

ولكن الحكومة توسعت في نظامها التعليمي وخاصة في المدارس الابتدائية، فأنشأت عددا كبيرا منها. ولأول مرة في تاريخ مصر الحديث أقدمت الحكومة على انشاء المدارس في حاضرة البلاد ومدنها، بل وأنشأت بعضها في القرى في أوساط لم يكن ليصلها قبل ذلك نور العلم.(٣٤)

وكل هذه الحركة التعليمية لم تكن لتتحقق وتؤتي ثمارها إلا بتوفير الكتب المتنوعة في مختلف العلوم وفروعها بأعداد كبيرة لتكون في متناول جميع التلاميذ في مختلف مستويات التعليم ليتاح لهم الاطلاع على ما في بطونها والاستفادة منها حتى يستطيعوا أن يشاركوا في النهوض بكثير من مرافق البلاد الحربية والاقتصادية والتعليمية. ولم يكن من وسيلة لتحقيق ذلك الهدف سوى المطبعة وفن الطباعة. ومن هنا كان اهتمام محمد علي بهذه الصناعة الهامة.

والحقيقة أنه لم يكن ثمة مناص من أن تسير حركة الطبع وانشاء المطابع جنبا إلى جنب مع حركة الترجمة، فإنه لما كان أهم غرض من ترجمة الكتب نقل فنون الغرب وعلومه إلى المدارس المصرية، فقد بات انشاء المطابع ضروريا حتى يمكن توفير الكتب للمدارس. (٣٥) وقد كان هذا الهدف واضحا أمام الحكومة، والدليل على ذلك أن أول بعثة أرسلتها مصر كانت حوالى سنة ١٨١٥م إذ سافر إلى ميلانو بايطاليا الشاب نقولا مسابكي «ليتعلم فن سبك الحروف ويدرس فن الطباعة بها».(٣٦)

وقد بدأ محمد علي في اقامة بناء مطبعة بولاق سنة ١٨٢٠م وانتهى من تركيب الآلات في يناير سنة ١٨٢٢، واستغرق تدريب العمال على أعمال الطباعة حتى شهر أغسطس سنة ١٨٢٢م، ثم بدأت عملية الانتاج وأصدرت المطبعة أول مطبوعاتها في ديسمبر سنة ١٨٢٢م.(٣٧)

وبجانب مطبعة بولاق أنشأ محمد علي مطابع أخرى في معظم مدارسه العالية، لتقوم بطبع ما تحتاج إليه تلك المدارس من الكتب، كالمطابع التي أنشأها في مدرسة الطب والطوبجية *، والمهندسخانة. وعلى سبيل المثال كانت مطبعة مدرسة الطوبجية تتولى طبع ما يحتاجه تلاميذها من الكتب ومن مطبوعاتها «الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار» تصحيح رفاعه الطهطاوي وطبع سنة ١٨٣٤م.(٣٨)

وكان لدى مطبعة بولاق في بداية عملها ثماني آلات لطباعة الحروف، وآلة واحدة للطبع بالحجر كان يطبع بها الصور والرسوم والأشكال اللازمة للكتب، كما كانت تستعمل في عمل

الجداول الرياضية والطبيعية والألحان الموسيقية. وقد استوردت هذه الآلات جميعها من ايطاليا. أما أنواع حروف الطبع التي وردت من ايطاليا ــ فكانت أربعة أنواع : حروف عربية، وحروف تركية، وحروف ايطالية ، وحروف يونانية.(٣٩)

وكانت الحروف العربية كلها نسخية على ثلاثة مقاييس : حرف كبير للعناوين وما يجري مجراها، وحرف متوسط الحجم لمتن الكتاب، وحرف صغير للتعليق والحواشي. وقد استخدمت الأشكال الثلاثة في أول مطبوعات بولاق وهو القاموس العربي الايطالي الذي أصدرته المطبعة عام ١٨٢٢م، وكذلك في كتاب «صناعة صباغ الحرير» وهو ثاني كتاب طبعته. ولم تكن مطبعة بولاق تطبع كتابة مشكَّلة بل كانت مطبوعاتها بدون تشكيل. وذلك لأن هذا النوع من الكتابة لا بد له من استعدادات خاصة لم تكن متوافرة في المطبعة في ذلك الوقت.(٤٠)

وبعد ذلك اعتمدت مطبعة بولاق على نفسها في صناعة حروف الطبع، ولم تعد تستوردها من الخارج. ذلك لأن الحروف العربية المصنوعة في أوربا سرعان ما ظهرت عيوبها، فهي كبيرة الحجم جدا، وهي أفرنجية الأسلوب بعيدة عن ذوق القاعدة الشرقية، فكانت مختلفة السمك غير متسقة. ولذا نجد أنه سرعان ما استبدلت بحروف أخرى مصنوعة في مصر على القاعدة الشرقية في الكتابة وهي القاعدة التي كانت تطبع عليها حروف مطبعة القسطنطينية.(٤١)

أما بالنسبة لمواد الطباعة من ورق ومداد، فقد استوردت أول الأمر من ايطاليا وفرنسا. وذلك ثابت بالنظر إلى ورق كتاب «صناعة صباغ الحرير» ، فالعلامة المائية في هذا الورق تحمل العبارة التالية (Il Gran Masso) باللغة الايطالية. وقد حاول محمد علي تصنيع الورق في مصر لأن شراءه من أوربا كان يكلف الخزانة كثيرا من الأموال نظرا لغلاء ثمنه مضافا إليه أجور النقل. ولذلك أنشأ مصنعا للورق أو الكاغدخانة كما كانت تسمى وبدأ في العمل سنة ١٨٣٤م، وقد اعتمدت مصر في صناعتها للورق على المخلفات القديمة المصنوعة من الكتان أو البفتة الموجودة لدى الأهالي،(٤٢) وكانت الحكومة تشتري الأقة منها بعشرة فضة.(٤٣) وأيضا على مخلفات ورش التيل والدوبارة، وقصاصات الخيوط الرفيعة من مخلفات التشغيل بالمصانع المنتشرة في القاهرة والأقاليم وقطع الأكياس وقصاصات الورق الناتج عن الكتابة في دواوين الحكومة.(٤٤)

وقد استمر هذا المصنع في انتاج حاجة المطابع من الورق حتى سنة ١٨٣٧م، ثم دخل بعد ذلك في دور اخفاق لمدة عشر سنوات حتى سنة ١٨٤٧م حين قام محمد علي بتجديد آلاته وأعاد تشغيله مرة أخرى بنفس كفاءته الأولى.(٤٥)

أما المداد، فقد كان يستورد أيضا من ايطاليا في أول الأمر، ولكنه صنع بعد ذلك في القاهرة. والواقع أن عملية صناعة الحبر كانت متقدمة في مصر، فقد كانت كل دواوين الحكومة وفروعها تعمل من مداد مصنوع من مصر. وقد أكد ذلك المستشرق لين (Lane) في كتابه عن مصر.(٤٦)

* * *

ولقد ظهر أثر المخطوطات واضحا على الكتب المطبوعة ، فمعظم هذه الكتب لم تظهر فيها صفحة العنوان مستقلة شأنها في ذلك شأن كثير من المخطوطات عدا القاموس العربي الايطالي (أول مطبوعات بولاق) للراهب رافائيل الذي كان متأثرا بالأوربيين وكتبهم.(٤٧) فالعرب لم يعرفوا صفحة العنوان في أول عهدهم بصناعة الكتب المخطوطة. وكان العنوان يأتي في مقدمة المخطوط ونهايته. وكان النساخون الذين يقومون بنسخ الكتب عن أصولها يضيفون عنوان الكتاب واسم مؤلفه على الصفحة الأولى في بعض الأحيان ، وكان بعضهم ينسخ الكتب كما هي دون أن يضيفوا إليها شيئا، وبعد فترة من الزمن يأتي من يضيف العناوين بخط مخالف لخط النسخة ومتأخر عنه.(٤٨)

ولم يقتصر تأثير المخطوطات على أوائل الكتب المطبوعة على ذلك فحسب بل امتد أيضا إلى الصفحة الأولى والأخيرة، فكان المخطوط يبدأ عادة بالبسملة تليها مقدمة المؤلف يستهلها بالحمدلة والصلاة على رسول الله، ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر اسم كتابه وموضوعه والغرض منه أو الدافع إلى تأليفه والمنهج الذي اتبعه وطريقة ترتيب المادة العلمية فيه على أبواب وفصول.(٤٩)

ولم يكن العنوان الذي يأتي في سياق المقدمة يتميز عن النص في أول الأمر بخطه أو بلون مداده، ثم رأوا بعد ذلك أن يميزوه في المخطوط بلون مخالف لمداد الكتابة فاستعملوا له اللون

الأحمر في أغلب الأحيان(٥٠) أما في الكتاب المطبوع فقد كان يوضع داخل برواز.(٥١)

واتبع نفس النظام بالنسبة لعناوين الفصول والعناوين الجانبية، فلم تكن في المخطوط تفترق عن بقية النص في نوع الخط ولا في حجمه ولا في لون مداده ولم يكن يميزها إلا أنها كانت تكتب في وسط السطر(٥٢) ثم بدأوا بعد ذلك يختصونها بحروف أكبر وربما بخط مخالف(٥٣)، كان ذلك بالنسبة للمخطوطات وقلدتها أوائل الكتب المطبوعة.(٥٤) غير أن الكتب المخطوطة انفردت بتمييز العناوين بلون مغاير للون المداد الذي كتبت به النص، فإذا كتب النص بمداد أسود مثلا كتبت العناوين بمداد أحمر(٥٥)، أما في الكتب المطبوعة فلم تكن الألوان قد استخدمت بعد.

وبالنسبة للمساحات البيضاء التي كانت تحيط بالمساحة المكتوبة من الصفحة (الهوامش) نجد أن تأثير المخطوطات كان واضحا على أوائل الكتب المطبوعة، ففي المخطوطات كان النساخون يتركون مساحة بيضاء تحيط بالمساحة المكتوبة من الصفحة، وكانت هذه المساحة تتناسب مع حجم الصفحة نفسها فتتسع كلما كبرت الصفحة وتضيق كلما صغرت. وكان يراعى فيها أن تكون مساحة الهامش العلوي أكبر من مساحة الهامش السفلي. ومع أن الهوامش السفلية تستخدم في المطبوعات الحديثة للتعليقات والشرح إلا أنها لم تؤد هذه الوظيفة في عصر المخطوطات. وقد كانت الشروح تأتي بعد الأصول مباشرة كأن يوضع النص الأصلي بين قوسين ثم يشرح بعد ذلك. وفي بعض المخطوطات كان النص الأصلي يتوسط الصفحة ويأتي الشرح حوله، وقد تأتي حاشية حول الشرح أيضا. وقد نقلت أوائل المطبوعات العربية تلك السمة التي تميز بها عصر المخطوطات.(٥٦)

أما نهاية الكتاب، فقد كانت المخطوطات تختم عادة بما يعرف بحرد المتن (Colophone) وهي السطور التي كان يكتب فيها ما يفيد تمام الكتاب أو اتباعه بأجزاء أخرى، وبعد ذلك يأتي اسم الناسخ وتاريخ النسخ. وقد انتقلت هذه الظاهرة إلى أوائل الكتب المطبوعة بنفس الصورة التي كانت عليها في المخطوطات** وأحيانا كثيرة بنفس العبارات التي فيها مع ما تمليه الضرورة من تعديلات مثل ذكر اسم المطبعة بدلاً من اسم الناسخ. واستمرت على هذا الحال فترة طويلة.(٥٧)

والملاحظ على مخطوطات هذه الفترة موضوع الدراسة حيث أن أوراق المخطوط الواحد كانت متساوية الحجم لحد كبير. وقد شاع استخدام ثلاثة أحجام من الورق وهي الربع، والثمن، وحجم ١٦/١.(٥٨) وإن كان الملاحظ أن غالبية أوائل الكتب المطبوعة لم تستخدم سوى الحجمين الأول والثاني أي الربع والثمن.(٥٩)

أما ترقيم الأوراق والصفحات، فلم تكن أوراق المخطوط تخضع لأي نوع من الترقيم، وحتى لا يضطرب ترتيبها أو تختلط على القارىء أو المجلد فقد كانوا يكتبون الكلمة الأولى من كل ورقة في ذيل الورقة التي تسبقها تحت آخر كلمة من السطر الأخير فيها. وقد اتبعت الكتب المطبوعة نفس الطريقة بالاضافة إلى ترقيم صفحات الكتاب الواحد بأرقام مسلسلة ليسهل على القارىء الوصول إلى ما يريد بسهولة ويسر.(٦٠)

والجدول التالي يبين أعداد الكتاب المطبوعة(٦١) موزعة على الموضوعات المختلفة ونسبتها المئوية(**أنظر القائمة في الملحق ١).**

الموضـــوع	العدد	النسبة المئوية
الطب والصيدلة والبيطرة	٣٥	٣١
الرياضة والهندسة	١١	١٠
الفنون الحربية	٣	٣
العلوم الطبيعية	٤	٤
الزراعة	٣	٣
الصناعة	١	٧٥ر—
الجغرافية الوصفية والفلكية	٧	٦
التاريخ	٨	٧
قوانين	١	٧٥ر—
تربية وتعليم	١	٧٥ر—
الفلسفة	١	٧٥ر—
اللغة العربية وآدابها	٢٤	٢١
علوم الدين الاسلامي	١٤	١٢
الجملة	**١١٣**	**١٠٠**

هذا بالنسبة للكتب المطبوعة، أما الكتب المخطوطة، فإن عصر المخطوطات لم ينته بظهور الطباعة، ولو رجعنا إلى فهرس دار الكتب بالقاهرة لوجدنا أن عدد المخطوطات في هذه الفترة لا يقل عن عددها في أي فترة زمنية مماثلة لها قبل ظهور الطباعة(٦٢).

ومن كل ما تقدم يمكن أن نخلص للنتائج التالية :

أولا : **أن ظهور الطباعة في مصر لم يضع نهاية عهد المخطوطات**، فعلى الرغم من ظهور الطباعة وانتشارها إلا أنها لم تستطع أن تسد كل الفراغ في نشر الكتب، فاستمرت كتابة المخطوطات في هذه الفترة. بل إن الكتب المخطوطة استمرت إلى جانب المطبوعة حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري (١٩م).(٦٣)

ثانيا : **أن هناك اختلافا بين نوعية أوائل الكتب المطبوعة والمخطوطات**، وذلك لأن تركيز الطباعة في أول الأمر كان متجها إلى الكتب العلمية التي يقصد بها تعليم الحرف والمهن التي كانت لازمة لبناء الحضارة التي قصد إليها محمد علي وبلغت نسبتها ما يزيد عن الـ ٥٠٪ من جملة الكتب التي تمت طباعتها في هذه الفترة.

وكان أول ما طبع قاموس باللغتين العربية والايطالية (وقد طبع في بولاق)، والمرجح أن السبب في طبعه كان لزومه لعملية الترجمة. ومعروف أن محمد علي أتجه أول الأمر إلى ايطاليا في ارسال بعثاته العلمية وكانت اللغة الايطالية أول لغة أجنبية تعلم في مدارسه، ومن ايطاليا بدأت حركة اقتباس الحضارة الغربية. يلي ذلك كتاب «صناعة صباغ الحرير» وطبع أيضا في بولاق، ثم كتاب «القانون الثاني في درس العسكري» وهو من الكتب الخاصة بالجيش.(٦٤)

وقد ظلت المطبعة تابعة لاشراف محمد علي حتى سنة ١٨٢٦م حين أنشأ الدواوين فأصبحت تابعة لديوان الجهادية، وهذا أمر طبيعي فانها ما أنشئت إلا لطبع ما يلزم الجيش من التعليمات والقوانين. ولقد استمرت هذه التبعية حتى سنة ١٨٣٧م حين أنشىء ديوان المدارس وانتقلت تبعيتها لهذا الديوان الجديد. وابتداء من سنة ١٨٢٥م تكون المدارس قد بدأت تنشأ الواحدة بعد الأخرى فتدخل الكتب المدرسية ضمن مطبوعات بولاق مثل كتب النحو وعلم الحساب والمنطق والدين والأدب إلا أن الغلبة تظل للكتب الخاصة بالجيش.(٦٥)

وبجانب مطبعة بولاق قامت المطابع الخاصة التي أسسها محمد علي في المدارس العالية (مدرسة الطب، والمهندسخانة، والطوبجية... الخ) بطبع الكتب التي احتاجها تلاميذها في مجالات الطب وفن الحرب والهندسة والطبيعة والكيمياء والفلك إلى آخر تلك العلوم التجريبية.(٦٦)

وهكذا كان ادخال الطباعة في مصر في عهد محمد علي جزءا من مشروع كبير كان يرمي إلى خلق مدنية مصرية جديدة تقوم على القوة والعلم الحديث، بعد أن وقف الضعف وعلوم الخوانق والتكايا بمدنية مصر قرونا عديدة. وكانت وسيلة هذا التجديد الحضاري طبع كتب الفن الحربي ثم ما تلاه من طبع كتب المدارس وكتب العلوم الحديثة كلما تقدمت الحياة المصرية وظهرت أغراض جديدة تستلزم الطبع والنشر.(٦٧)

ثالثا : وقد نشأ عن **استخدام الآلات في صناعة الكتب سرعة في العمل ووفرة في الانتاج**. وترتب على ذلك ما يترتب على وفرة الانتاج من رخص في الثمن وسهولة في الاقتناء. فقد كان الناسخ ذو الخط المعتاد يتقاضى عن الكراسة ذات العشرين صحيفة التي تحتوي كل صحيفة منها على خمسة وعشرين سطرا أجرا قدره ثلاثة قروش إذا كانت الكتابة بدون تشكيل، فإذا كانت مشكلة أرتفع الأجر إلى الضعف. وإذا كان حسن الخط زاد الأجر بما يتناسب مع جمال خطه وحسن تنسيقه.(٦٨)

وللدلالة على ارتفاع ثمن الكتاب المخطوط بالمقارنة بالكتاب المطبوع، نجد أن مخطوطة ألف ليلة وليلة كانت تباع بسبعة جنيهات انجليزية، على حين كان ثمنه مطبوعا بمطبعة بولاق سنة ١٨٣٧م تسعين قرشا. وهكذا يتضح ما كان لاستخدام الآلات في طبع الكتب من الأثر في تخفيض أثمان الكتب.(٦٩)

ولقد **اقترن انخفاض أثمان الكتب بحسن الخط واتقان الصناعة**، فقد كان الكتاب قبلا مقسما إلى ملازم أو كراسات مستقلة غير محبوكة كل كراسة تبلغ خمس ورقات وموضوعة في جلد خارجي بدون تجليد حتى يصلح الكتاب الواحد لعدد كبير من القراء في نفس الوقت، **بأن يتناول كل منهم كراسة ويقرأها**

ثم يتبادل الكراسات مع غيره، وذلك ضروري لقلة عدد نسخ الكتاب ولكن المطابع اتقنت الصناعة فكثرت النسخ وحبكت الكراسات وجلدت جميعا واتخذ الكتاب الشكل المتقن المعروف. فإذا أضفنا إلى ذلك جمال الخط وسهولة قراءته كل ذلك يوضح الأثر البين الذي أحدثته المطبعة في رقي صناعة الكتب.(٧٠)

رابعا : **ثم إن المطابع بما أحدثته من نشر الكتب واتقان صناعتها وتخفيض أثمانها ساعدت بذلك على نشر روح القراءة وبث حب اقتناء الكتب والاطلاع عليها بين المصريين** بعد أن كانت القراءة قبلها قاصرة على مشائخ الأزهر ومجاوريه، وكانت الكتب بعيدة كل البعد عن أفراد الشعب لندرتها وغلاء ثمنها.(٧١)

ونشأ عن انتشار الميل إلى القراءة واقتناء الكتب ظهور طبقة من المثقفين المستنيرين الذين قرأوا الكتب المطبوعة العربية والمترجمة وتأثروا بما فيها سواء من حيث المعلومات أو من حيث الكتابة، واكتسبوا بذلك مقدرة على التأليف . وأغرتهم المطابع فألفوا وقدموا كتبهم إليها فطبعت، وتأثر غيرهم بما ألفوا وأغراهم ما لاقوا من ذيوع في الاسم وكسب للمال، فألفوا هم الآخرون ونشرت لهم المطابع، فتشجعوا واستزادوا علما وتأليفا. وعلى هذا النحو خلقت المطابع نهضة هائلة في التأليف والنشر لم تألفها مصر من قبل.(٧٢)

خامسا : **أن كتب العلوم الدينية والانسانية لم تلق في هذه الفترة نفس الاهتمام والعناية التي حظيت بهما الكتب الخاصة بالعلوم الحديثة.** فالحقيقة أن محمد علي قد رغب كجندي في أن يخلق عصرا جديدا في مصر، وكانت العلوم الأوربية الحديثة أنسب لغرضه من غيرها من كتب العلوم الدينية والعربية. ولهذا لم يطبع من الكتب الأزهرية كثير في عهده. واقتصر على طبع الكتب الحديثة. فعلى الرغم من احترامه للأزهر لم يكن يعول عليه في النهضة والتجديد اللذين حاول احداثهما في مصر. ذلك أن عناصر تلك النهضة لم تكن من طبيعة الأزهر والأزهريين في شيء. حيث كانت النهضة التي يريدها تقوم على القوة الحربية والاصلاحات الزراعية والصناعية، وكانت علوم الدين واللغة أبعد ما تكون صلاحية لهذا النوع من المشروعات. ولذا لم يجد محمد علي في كتب الأزهريين غنىً ولم ير في طبعها خيرا، وإنما وجد الغنى والخير في العلوم الحديثة التي أنشأ من أجلها المدارس المختلفة وترجم فيها الكتب الكثيرة التي اقتصر عليها عمل مطابعه.(٧٣)

ثم إن الأزهريين أنفسهم قاوموا اصلاحات محمد علي، ولم يرغبوا في الاشتراك فيها وتناولوا تلك الاصلاحات بكثير من عدم الرضا واعلان السخط. فقد كانت المطبعة عندهم بدعة واستعمال الحروف المعدنية في كتابة اسم الله كان شيئا محرما. ولذا قاوموا طبع القرآن الكريم مدة طويلة ورغبوا عن طبع كتبهم بالمطبعة.(٧٤)

وعلى الرغم من ذلك فقد تم طبع بعض كتب الأزهر في عهد محمد علي، كألفية ابن مالك وشرح ابن عقيل عليها. إلا أن طبعها كان من أجل مدارس الوالي، وليس من أجل الأزهر ووزعت نسخها على تلاميذ مكاتب الأقاليم ومدارس العاصمة، ولم يوزع منها شيء على مجاوري الأزهر.(٧٥)

وإذا كانت الكتب الأزهرية لم تلق اهتمام محمد علي، فان كتب الثقافة الاسلامية ككتب الدين والأدب من غير كتب الأزهر قد حظيت بعناية منه لم ترق إلى درجة عنايته بكتب الفن الحربي والعلوم الحديثة التي كانت لها قيمة عملية في مشروعاته الحربية والصناعية والزراعية. والسبب في ذلك أن محمد علي كان بطبعه يحترم الدين ويعمل على نشره، وقد كان ذلك داعيا إلى طبع عدد لا بأس به من الكتب الدينية التي تتناول شرح الفرائض وتفسير أحكام الدين والتصوف، فبلغت نسبتها ١٢٪ من جملة الكتب المطبوعة في هذه الفترة. أما كتب الأدب كدواوين الشعر وألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة فقد كان عددها كبيراً إلى جانب علوم الدين، إذ بلغت نسبتها ٢١٪ من جملة الكتب المطبوعة.(٧٦) وإذا كان طبع كتب العلوم الحديثة قد تم من أجل اشباع حاجة الجيش، فقد تم طبع الكتب الدينية والأدبية الحديثة من أجل اشباع شعور محمد علي الشخصي نحو الدين ثم من أجل اشباع رغبة بعض المستنيرين من رجاله ممن كانوا **يفهمون في الأدب ويميلون إلى قراءة كتبه.**(٧٧)

التعليقات العلمية والحواشي

١ ــ دخلت الحملة الفرنسية مصر في ٢ يوليو ١٧٩٨م (١٧ محرم سنة ١٢١٣ هـ) وتم اجلاؤها عنها في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١م (١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ هـ).

٢ ــ لين، أ.و: المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلي طاهر نور. ط٢. القاهرة، ١٩٧٥، ص ص ١٨٤ ــ ١٨٥، أبو الفتوح رضوان: تاريخ مطبعة بولاق ولمحة عن تاريخ الطباعة في بلدان الشرق الأوسط. القاهرة ، ١٩٥٣، ص ٣٤٦.

٣ ــ ابراهيم عبده : تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية. ط٢. القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٢، ١٨ ــ ١٩.

٤ ــ أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ص ٥ ــ ٧.
ابراهيم عبدة: المرجع السابق، ص ص ١٩ ــ ٢٠

٥ ــ أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ٧.

٦ ــ نفس المرجع، ص ٨.

٧ ــ خليل صابات : تاريخ الطباعة في الشرق الأدنى، رسالة دكتوراه غير منشورة. القاهرة، كلية الآداب / جامعة القاهرة، د.ت، ص ٢١٠.

٨ ــ عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ١. القاهرة، ١٩٢٩، ص ٨٤.
محمود نجيب أبو الليل : الصحافة الفرنسية في مصر حتى نهاية الثورة العربية. القاهرة، ١٩٥٣، ص ٢٥.

٩ ــ أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ص ١٧ ــ ١٨.

١٠ ــ بدأ عمل هذه المطبعة على ظهر الباخرة في عرض البحر حين طبع بها أول منشورات بونابرت الى المصريين، وهو ذلك المنشور الذي وزع في الاسكندرية عقب نزول الجيش الفرنسي فيها مباشرة. وكان مديرها يوسف مارسل Marcel أحد علماء جيش الشرق. وكانت تحتوي على ثلاثة أنواع من الحروف : فرنسية وعربية ويونانية.
عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣. القاهرة، ١٢٩٧ هـ، ص ص ٤ ــ ٥.

١١ ــ الميدي: هو احدى العملات المتداولة في ذلك الوقت، وكانت من الفضة وتسمى «نصف» أو «نصف فضة» ويسميها الأتراك «بارة» وهي تساوى ١/٤٠ من القرش. وميدي تحريف «مؤيدي» وهو نصف الدرهم الذي كان يضرب في عهد السلطان المؤيد من أوائل القرن ٩ هـ (١٥م).
لين، أ.و. : المرجع السابق، ص ص ١٩١ ــ ١٩٢، محمد فؤاد شكري وآخرون:
بناء دولة مصر محمد علي. القاهرة، ١٩٤٨، ص ١٨٤.

١٢ ــ أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ١٩.
ابراهيم عبده : المرجع السابق، ص ص ٤٩ ــ ٥٠.

١٣ ــ كان مدير هذه المطبعة يوسف امانويل أوريل، وظل يباشر عمله بها إلى أن خرج نابليون من مصر وسافر إلى فرنسا، فتنازل عن مطبعته للحكومة في ١٨ مايو سنة ١٨٠٠م وعاد إلى فرنسا هو الآخر.
أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ٢١.

١٤ ــ أنشأ هذه المطبعة المستشرق مارسل مدير المطبعة الشرقية السالفة الذكر بالاسكندرية ــ بعد أن غادرها الى القاهرة في ١٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨م ــ وكان مكانها في الأزبكية أمام منزل عثمان بك الأشقر. وهي مطبعة علمية خاصة بطائفة العلماء التي صاحبت الجيش الفرنسي الى مصر. ولم تكن تابعة للجيش أو خاصة بطبع منشوراته، وإن كانت مطبوعاتها العلمية في خدمة الجيش. وكانت المطبعة الأهلية معدة بالحروف العربية والانجليزية وطبعت مطبوعاتها من النوعين.
ابراهيم عبده : المرجع السابق، ص ص ٥٣ ــ ٥٤، أبو الفتوح رضوان: المرجع السابق، ص ٢٢.

١٥ ــ Unesco: Statistics on non - Periodical Publication (books & Pamphlets). Paris, Unesco, 1962, p.p. 1-2.
، شعبان خليفة : حركة النشر في مصر. القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢٧.

١٦ ــ عبد الرحمن الجبرتي : المرجع السابق، جـ ٣، ص ١٨٣.
أمين سامي : تقويم النيل، جـ ٢. القاهرة، ١٩٢٨، ص ١٦٠.
أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ٢٨.

١٧ ــ نفس المرجع السابق، ص ٢٩

١٨ ــ تبلغ كل كراسة (ملزمة) خمس ورقات
لين، أ.و. : المرجع السابق، ص ١٨٤

١٩ ــ نفس المرجع.

٢٠ ــ وبالنسبة للخطوط التي كتبت بها غالبية مخطوطات هذه الفترة موضوع الدراسة فكانت النسخ والفارسي والتعليق والمغربي.
أنظر، فؤاد سيد : فهرست المخطوطات؛ نشرة بالمخطوطات التي اقتنتها الدار من سنة ١٩٣٦ ــ ١٩٥٥، ٣ مجلدات . القاهرة، دار الكتب، ١٩٦١ ــ ١٩٦٣.

أما مواد الكتابة من ورق ومداد، فقد انتشرت في هذه الفترة صناعة الورق بالطرق اليدوية المعتادة حيث استخدم فيها قش الأرز أو الخرق القديمة أو نخالة الحنطة الناعمة التي توضع في وعاء نظيف به ماء مغلي ثم يقلب في هذا الماء حتى يصير كالنشا، ويصفى بخرقة نظيفة ثم يصب في قوالب

بأحجام مختلفة. وبعد جفافها يتم الحصول على الورق المطلوب.

محمود خليفة بن سليمان بن عبد الرحمن: مخطوطة صناعة الورق والليق والحبر، ظهر ورقة ١ (مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٣٩ ــ صناعة).

وبالنسبة للمداد فكانت صناعته متقدمة في مصر، وينتج منه أنواع عدة، أشهرها المداد الأسود المستخرج من الدخان وهو أجود الأحبار، ونوع آخر صنع من العفص ثم الأحبار الملونة (الأخضر ــ الأحمر ــ الأصفر ــ الأبيض ــ الأزرق ــ الأخضر الزرعي ... ألخ).

أنظـر :

رسالة في صناعة الأحبار، وجه ٥، وجه ١١، وجه ١٧ (مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٤ صناعة ــ تيمورية)

، ابن باديس : عمدة الكتاب وعدة ذوى الألباب، تحقيق عبد الستار الحلوجي وعلي عبد المحسن زكي؛ مجلة معهد المخطوطات، مايو ١٩٧١، ص ٧٩ ــ ٩٠، ١٠١ ــ ١٠٥.

، محمود خليفة بن سليمان : المرجع السابق، وجه ٢ ــ وجه ٤.

٢١ ــ أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ٣٤.

٢٢ ــ أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي. القاهرة، ١٩٣٨، ص ٣٠.

٢٣ ــ أبو الفتوح رضوان: المرجع السابق، ص ٣٧.

٢٤ ــ نفس المرجع السابق، ص ص ٣٧ ــ ٣٨.

٢٥ ــ أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق، ص ٣٠، ٥٥٧.

٢٦ ــ أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ٣٨، أحمد عزت عبدالكريم : المرجع السابق، ص ٣١.

٢٧ ــ نفس المرجع.

٢٨ ــ نفس المرجع.

٢٩ ــ أنظر : محمد فؤاد شكري وآخرون : المرجع السابق، ص ١٠٧.

٣٠ ــ وثيقة رقم ٨٠ بتاريخ ٢٧ صفر سنة ١٢٣٦ هـ ــ دفتر رقم ١٦ معية تركي ــ دار الوثائق بالقاهرة.

، وثيقة رقم ٣٨٥ بتاريخ ١٧ محرم سنة ١٢٣٧ هـ ــ دفتر رقم ١٠ معية تركي ــ دار الوثائق بالقاهرة.

، وثيقة رقم ٢٥٣ بتاريخ ٨ ربيع آخر سنة ١٢٣٨ هـ ــ دفتر رقم ١١ معية تركي ــ دار الوثائق بالقاهرة.

٣١ ــ أحمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق، ص ٣٣.

محمد فؤاد شكري وآخرون : المرجع السابق، ص ص ١٠٧ ــ ١٠٨.

٣٢ ــ كانت أول بعثتين إلى ايطاليا في عامي ١٨٠٩، ١٨١٣ حيث كانت تربطها بمصر روابط وثيقة ترجع إلى ماض بعيد، إذ استطاعت الدويلات الايطالية منذ العصور الوسطى أن تنشىء صلات تجارية بينها وبين البلاد المصرية علاوة على وجود جاليات ايطالية كبيرة في مصر والشام. وكانت اللغة الايطالية أكثر اللغات الأجنبية شيوعا ولا سيما بين أهل الثغور. وكان الايطاليون فوق ذلك يعرفون اللغة العربية، كما وجد الكثير من الأهالي يعرفون الايطالية ويجيدون الكلام بها. فكان طبيعيا أن تصبح الايطالية أولى اللغات الأجنبية التي يقرر محمد علي تدريسها في مدارسه، وتترجم إليها الكتب من سائر اللغات، وكان من الطبيعي أيضا أن يرسل بعوثه الأولى إلى ايطاليا.

محمد فؤاد شكري وآخرون: المرجع السابق، ص ص ١٠١ ــ ١٠٢.

وكان في وسع محمد علي أن يتجه إلى غير ايطاليا، فهناك بعض الدول الكبرى كفرنسا وانجلترا وأن يأخذ عنها ما يشاء من ثقافات ما دام يهدف إلى «تطعيم» الثقافة الشرقية بثمرات الفكر الغربي. غير أن اهتمام الانجليز بمصر كان في بدايته، فلم يعنوا بنشر ثقافتهم بين أهلها ولم تكن لهم فيها جالية كبيرة. ولكن الأمر كان على عكس ذلك بالنسبة لفرنسا، فقد كانت الروابط بينها وبين مصر ما تزال قائمة على الرغم من جلاء الفرنسيين عنها. ولم يكف الفرنسيون عن السعي وبخاصة منذ الحملة الانجليزية على مصر بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧م، لتوطيد علاقتهم بمصر، ولكن محمد علي أرجأ العمل على توثيق هذه الصلات، إذ لم يكن قد مضى على انتهاء الاحتلال الفرنسي لمصر سوى سنوات معدودات؛ وبدأ ابتداء من سنة ١٨٢٦م يرسل البعثات إلى فرنسا وتلتها بعثات أخرى إلى فرنسا أيضا في سنوات ١٨٢٨، ١٨٢٩، ١٨٣٠، ١٨٣٢م. وقد وزع أعضاء بعثة سنة ١٨٢٩م على فرنسا وانجلترا. وبعد ذلك توالى ارسال البعثات التعليمية لدول أوربا لدراسة الصناعات والطب والهندسة والفنون البحرية .

عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي. القاهرة، ١٩٥١، ص ص ٤٧٧ ــ ٤٨٠.

، محمد فؤاد شكري : المرجع السابق، ص ١٠٦

، محمود نجيب أبو الليل : المرجع السابق، ص ١٢٨.

وقد قر الرأي عند النظر في تنظيم شئون التعليم في عام ١٨٣٦ على ضرورة المضي في ارسال البعوث إلى أوربا، لأن الحاجة لا تزال ماسة إلى عدد من الأساتذة الصالحين لتدريس مواد التعليم الفني والتعليم النظري العالي، ولأنه كان من المتعذر القاء الدروس بلغة البلاد (العربية) لصعوبة ترجمة المصطلحات العلمية ووضع الكتب اللازمة في مختلف العلوم والفنون، ولذلك استمر ارسال البعوث إلى نهاية حكم محمد علي.

محمد فؤاد شكري : المرجع السابق، ص ص ١٠١ ــ ١٠٦.

٣٣ ــ عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق، ص ٤٧٧.

، أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق، ص ٤٧٧.

، اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، جـ٢. القاهرة، ١٣١٤ هـ، ص ص ٢٣٠ ــ ٢٣١.

٣٤ ــ كلوت بك، أ.ب. : لمحة عامة إلى مصر، ترجمة محمد مسعود، جـ٢. القاهرة، د.ت، ص ص ٥١٨ ــ ٥١٩.

، أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق، ص ٣٥.

٣٥ ــ محمد فؤاد شكري وآخرون : المرجع السابق، ص ١٠٢.

٣٦ ــ عمر طوسون : البعثات العلمية في عهد محمد علي، ثم في عهد عباس الأول ــ وسعيد. الاسكندرية، ١٩٣٤، ص ١٠، عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق، ص ٤٧٧.

٣٧ ــ محمد فؤاد شكري وآخرون : المرجع السابق، ص ١٢٠، أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ٤٠.

٣٨ ــ محمد فؤاد شكري وآخرون : المرجع السابق، ص ١٢١، أنظر، قائمة الكتب المطبوعة من سنة ١٨٢٢م حتى سنة ١٨٤٨م (ملحق رقم ١).

٣٩ ــ خليل صابات : المرجع السابق، ص ٣٠٩.

٤٠ ــ نفس المرجع، أبو الفتوح رضوان: المرجع السابق، ص ٨٨.

٤١ ــ نفس المرجع، ص ٨٩.

٤٢ ــ نفس المرجع، ص ٩٠.

٤٣ ــ القرش يساوي ٤٠ فضة أو بارة. و١٠ = ٤/١ قرش.
أحمد أحمد الحتة : تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير. القاهرة، ١٩٥٠، ص ٩٣.

٤٤ ــ أبو الفتوح رضوان: المرجع السابق، ص ص ٣١٦ ــ ٣١٧.

٤٥ ــ أمين سامي : المرجع السابق، جـ٢، ص ٥٥٤

٤٦ ــ لين، أ.و. : المرجع السابق، ص ص ١٨٤ ــ ١٨٥
، خليل صابات : المرجع السابق ، ص ٢٤٨.

٤٧ ــ أنظر، لوحة رقم (١)

٤٨ ــ عبد الستار الحلوجي : المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري. الرياض، ١٩٧٨، ص ١٦٨، أنظر لوحة رقم (٢).

٤٩ ــ نفس المرجع، ص ١٦٩، أنظر (لوحة رقم ٣)

٥٠ ــ نفس المرجع والصفحة؛ أنظر (لوحة رقم ٣).

٥١ ــ أنظر، لوحة رقم (٤).

٥٢ ــ أنظر، لوحة رقم (٥)، لوحة رقم (٦)

٥٣ ــ عبد الستار الحلوجي : المرجع السابق، ص ١٧١

٥٤ ــ أنظر، لوحة رقم (٤أ)، لوحة رقم (٧).

٥٥ ــ أنظر على سبيل المثال :
ابن المجدوى (أبو العباس أحمد) : الرسالة المجدية في العمل بالربع المرسوم بالمقنطرات، مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٦٥ تيمورية.
، محمد النعماني : نهج السلوك إلى معرفة دول الملوك (مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٥٩٩ ــ تاريخ تيمورية).

٥٦ ــ أنظر، ابن شرف شاه (الحسن بن محمد) : شرح الشافية لابن الحاجب ــ (مخطوطة بدار الكتب برقم ٥٧٣١ هـ)، لوحة رقم (٢أ)، لوحة (٣).

٥٧ ــ أنظر، لوحة رقم (٣أ)، لوحة رقم (٤ ب) ، لوحة رقم (٥أ)، لوحة رقم (٨).

٥٨ ــ بالنسبة لحجم الربع أنظر على سبيل المثال :
محمد قاسم بن يعقوب : روض الأخبار المنتخب من ربيع الأسرار، (مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٦٧٩ ــ أدب تيمورية).

أما حجم الثمن أنظر سحنون بن عثمان : سهام الربط المخمس خالي الوسط، (مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٣٤٤٠ج).

وبالنسبة للحجم ١٦/١ أنظر، جالينوس : علم تدبير الأبدان وصحة التفريع وقواعد أصل الأجسام والتبيان والتشريح (مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٤٤١ ــ طب تيمورية).

٥٩ ــ بالنسبة لحجم الربع، أنظر ــ لوحة رقم (١)، ولحجم الثمن ــ أنظر، لوحة رقم (٤).

٦٠ ــ أنظر، لوحة رقم (٢أ)، لوحة رقم (٣)، لوحة رقم (٤ ب)، لوحة رقم (٥)، لوحة رقم (٧).

٦١ ــ أنظر، محمد جمال الدين الشوربجي : قائمة بأوائل المطبوعات العربية المحفوظة بدار الكتب حتى سنة ١٨٦٢م. القاهرة، دار الكتب، ١٩٦٣، ص ص ٣٠ ــ ١١٩، الملحق رقم (١).

٦٢ ــ أنظر، فؤاد سيد : فهرست المخطوطات؛ نشرة بالمخطوطات التي اقتنتها الدار من سنة ١٩٣٦ ــ ١٩٥٥، ٣ مجلدات . القاهرة، دار الكتب ، ١٩٦١ ــ ١٩٦٣.

٦٣ ــ أنظر على سبيل المثال، مخطوطة المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردى ــ خط سنة ١٣٢٧ هـ (برقم ٢٣٥٥ تاريخ) دار الكتب، مخطوطة جني الأزهار من الروض المعطار للمقريزي، خط ١٣٤٤ هـ (برقم ١٦٢ ــ تيمورية ــ بلدان) دار الكتب.

٦٤ ــ أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ٤١.

٦٥ ــ نفس المرجع، ص ص ٦٤ ــ ٦٥، أنظر، محمد فؤاد الشوربجي : المرجع السابق، ص ص ٣٠ ــ ١١٩.

٦٦ ــ أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ص ٣٥٤ ــ ٣٥٨.
، لين، أ.و. : المرجع السابق، ص ١٩١

٦٧ ــ أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ٤٢.

٦٨ ــ لين، أ.و. : المرجع السابق، ص ١٨٥.

٦٩ ــ أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ٣٤٩

٧٠ ــ لين، أ.و. : المرجع السابق، ص١٨٤

٧١ ــ Paton, A.A.: A History of the Egyptian Revolution, vol. II. London, 1870, p. 246.

٧٢ ــ أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ٢٤٩.

٧٣ ــ Paton, A.A.: op. Cit., vol. II, p. 246.

٧٤ ــ لين، أ.و.: المرجع السابق، ص ١٩٥.
، أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦
، أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق، ص ٥٥٨.

٧٥ ــ لين، أ.و. : المرجع السابق، ص ١٩٥
، أبو الفتوح رضوان : المرجع السابق، ص ٢٥٦

٧٦ ــ أنظر جدول الكتب المطبوعة وتوزيعها على الموضوعات المختلفة.

٧٧ ــ علي مبارك : الخطط التوفيقية، جـ ١٣. القاهرة، ١٣٠٦ هـ، ص ٥٥.

(ملحق رقم ١)

وفيما يلي قائمة(*) بعناوين ومؤلفي الكتب العربية المطبوعة في مصر وموضوعاتها خلال الفترة سنة ١٨٢٢م حتى سنة ١٨٤٨م مرتبة حسب تواريخ طبعها (**)

مسلسل	الكتاب	الموضوع
١	قاموس ايطالياني وعربي، تأليف القس رافائيل زخور. (***) ١٨٢٢، ٢٦٦ ص (٦٤)	لغة
٢	كتاب في صناعة صباغ الحرير، تأليف ماكير، ترجمة رافائيل زخور. ١٨٢٣، ١٨٨ ص	صناعة
٣	القانون الثاني في درس العسكري.١٨٢٣، ٦٠ ص	فنون حربية
٤	التقاط الأزهار في محاسن الأشعار.١٨٢٦، ٦٢ ص	أدب
٥	شرح الآجرومية، تأليف حسن الكفراوي.١٨٢٦، ٢٤٤ ص	نحو
٦	مختصر مشارع الأشواق، إلى مصارع العشاق، ومثير الغرام إلى دار السلام، تأليف أحمد بن ابراهيم بن محمد النحـــــــاس. ١٨٢٦، ٢٤٤ ص	تصوف
٧	بديع الانشا والصفات في المكاتبات والمراسلات، تأليف مرعي بن يوسف المقدسي. ١٨٢٧، ٩٠ ص	أدب
٨	تحفة الأخوان، تأليف مصطفى بن ابراهيم. ١٨٢٧، ١٠٧ ص.	نحو
٩	تعليق الفواضل على اعراب العوامل للبركوي، تأليف حسين بن أحمد. ١٨٢٨، ١٣٨ ص.	نحو
١٠	لائحة زراعة الفلاح، وتدبير أحكام السياسة بقصد النجاح. ١٨٢٩، ٧٦ ص.	زراعة
١١	اظهار الأسرار، تأليف محمد بن بير علي. ١٨٣١، ٥٥ ص.	نحو
١٢	التوضيح لألفاظ التشريح البيطري، تأليف جيرار، ترجمة يوسف فرعون. ١٨٣٣ (جزءان في مجلد).	بيطرة
١٣	قلائد المفاخر، في غريب عوائد الأوائل والأواخر، تأليف دنبغ الفرنسي، ترجمة رفاعة الطهطاوي. ١٨٣٣، ٣٤٠ ص.	تاريخ
١٤	كليلة ودمنة، تأليف بيدبا الهندي، ترجمة ابن المقفع. ١٨٣٣، ١٠٩ ص.	أدب
١٥	المنحة في سياسة علم الصحة، تأليف برنار، ترجمة جورجي فيدال، تصحيح محمد الهراوي. ١٨٣٤، ٤٠٤ ص.	طب
١٦	عقد الجمان في أدوية الحيوان، تأليف آمون الحكيم، ترجمة يوسف فرعون، تصحيح مصطفى كساب. ١٨٣٤، ٨٢ ص.	بيطرة
١٧	الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار، تصحيح رفاعة الطهطاوي. مطبعة مكتب الطوبجية بطرة، ١٨٣٤، ١٤٣ ص.	جغرافيا
١٨	منتهى الأغراض في علم شفاء الأمراض، تأليف بروسيه وسانسون، ترجمة يوحنا عنحوري، تصحيح محمد الهراوي. ١٨٣٤ (جزءان في مجلد).	طب
١٩	حاشية العطار على شرح الأزهرية للشيخ خالد الأزهري، تأليف حسن بن محمد العطار. ١٨٣٥، ١٦٤ ص.	نحو
٢٠	حلية الناجي، تأليف مصطفى بن محمد الكوربي. ١٨٣٥، ٥٦٢ ص.	فقه
٢١	الخلاصة، وهي المشهورة بالألفية، تأليف محمد بن عبدالله بن مالك. ١٨٣٥، ٥٦ ص.	نحو
٢٢	الدر الثمين في فن الأقرباذين، تأليف حسن الرشيدي. ١٨٣٥، ٤٢٢ ص.	صيدلة
٢٣	ديوان علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، جمع أحد العلماء. ١٨٣٥، ٧٨ ص.	أدب
٢٤	كليلة ودمنة، تأليف بيدبا الفيلسوف الهندي، ترجمة عبدالله ابن المقفع. مطبعة مكتب الطوبجية بطرة، ١٨٣٥، ١٠٩ ص.	أدب
٢٥	مبلغ البراح في فن الجراح، تأليف كلوت بك، ترجمة يوحنا عنحوري، تصحيح محمد الهواري. ١٨٣٥، ٥٥٢ ص.	طب
٢٦	اسعاف المرضى من علم منافع الأعضاء، تأليف سوسون، ترجمة علي هيبة، تصحيح محمد محرم. ١٨٣٦، ١٧٢ ص.	طب
٢٧	دستور الأعمال الأقرباذينية لحكماء الديار المصرية، نشر أرباب المشورة الصحية. ١٨٣٦، أربعة أجزاء في مجلد.	صيدلة
١٨	مختصر ترجمة مشاهر قدماء الفلسفة، ترجمة عبدالله بن حسن المصري. ١٨٣٧، ١٨٦ ص.	تراجم
٢٩	السواد الأعظم، تأليف اسحق بن محمد بن اسماعيل. ١٨٣٧، ٥٦ ص.	علم الكلام
٣٩	شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تأليف عبدالله بن يوسف بن أحمد بن هشام. ١٨٣٧، ١٦٠ ص.	نحو

(*) استبعد من هذه القائمة الكتيبات التي طبعت في تلك الفترة والتي لا يزيد عدد صفحات الواحد منها عن ٤٨ صفحة ولا يقل عن خمس صفحات.
(**) أنظر، محمد جمال الدين الشوربجي. قائمة بأوائل المطبوعات العربية المحفوظة بدار الكتب حتى سنة ١٨٦٢م. القاهرة، ١٩٦٣، ص ص ٣٠ ــ ١١٩.
(***) الناشر هو مطبعة بولاق ويعمل بذلك فيما يلي ما لم يذكر ناشر آخر.

مسلسل	الكتـــــاب	الموضوع
٣١	موقد الأذهان وموقظ الوسنان، تأليف عبدالله بن يوسف بن أحمد المعروف بابن هشام. ١٨٣٧، ١٩٤ ص.	نحو
٣٢	قانون تعليم العساكر الجهادية المشاة. ١٨٣٧، ٨٧ ص.	فنون حربية
٣٣	كليات أبي البقاء، أو كليات العلوم، تأليف أبي البقاء الحسيني، ١٨٣٧، ٤٣٠ ص.	لغة
٣٤	نبذة في أصول التشريح العام، تأليف كلوت بك، ترجمة ابراهيم النبراوي وتصحيح محمد الهراوي. ١٨٣٧، ٥٥ ص.	طب
٣٥	نبذة في التشريح المرضي، تأليف كلوت بك، ترجمة ابراهيم النبراوي وتصحيح محمد محرم. ١٨٣٧، ٧٦ ص.	طب
٣٦	الأزهار البديعة في علم الطبيعة، تأليف بيرون، ترجمة يوحنا عنحوري. ١٨٣٨، ٣٣٠ ص.	طبيعة
٣٧	التعريبات الشافية لمريد الجغرافية، ترجمة رفاعة الطهطاوي. ١٨٣٨، ٩٦ ص.	جغرافية
٣٨	تنوير المشرق بعلم المنطق، تأليف دومرسيه، ترجمة خليفة بن محمود. ١٨٣٨، ٦٠ ص.	منطق
٣٩	حاشية الطهطاوي على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، تأليف أحمد بن محمد بن اسماعيل الطهطاوي، ١٨٣٨، أربعة أجزاء في أربعة مجلدات.	فقه
٤٠	حاشية الكانقري، على حاشية الخيالي، على شرح السعد للعقائد النسفية، تأليف عبدالله بن حسن الكانقري. ١٨٣٨، ٩١ ص.	علم الكلام
٤١	الدراسة الأولية في الجغرافية الطبيعية، تأليف فيلكس لامروس، ترجمة أحمد حسن الرشيدي. ١٨٣٨، ٢٣٦ ص.	جغرافية
٤٢	كنز البراعة في مبادىء فن الزراعة، ترجمة خليل محمود. ١٨٣٨، ٧٦ ص.	زراعة
٤٣	مشكاة اللائذين في علم الاقرباذين، تأليف لايتون، ترجمة محمد عبد الفتاح. ١٨٣٨، ١٣٠ ص.	صيدلة
٤٤	الأربطة الجراحية، وتسمى الأجهزة الجراحية، ترجمة ابراهيم النبراوي، مراجعة محمد محمد الهراوي. ١٨٣٩، ١٧٩ ص.	طب
٤٥	أصول الهندسة، تأليف ليجاندر، ترجمة محمد عصمت. ١٨٣٩، ٢٨٤ ص.	هندسة
٤٦	تحفة الرياض في كليات الأمراض «البيطرية» تأليف برنس، ترجمة يوسف فرعون، تصحيح مصطفى كساب. ١٨٣٩، ١٢٥ ص.	بيطرة

مسلسل	الكتـــــاب	الموضوع
٤٧	حاشية دده جونكي، على شرح التفتازاني على التصريف العزي للزنجاني، تأليف كمال الدين دده خليفة. ١٨٣٩، ٢٤٨ ص.	صرف
٤٨	روح البيان في تفسير القرآن، تأليف اسماعيل حقي. ١٨٣٩، أربعة اجزاء في أربعة مجلدات.	تفسير
٤٩	غاية المرام في أدويه الاسقام «الطب البيطري»، ترجمة يوسف فرعون، تصحيح مصطفى كساب. ١٨٣٩، ٢١٠ ص.	بيطرة
٥٠	نزهة الأنام في التشريح العام «تشريح بيطري» تأليف لافارج، ترجمة يوسف فرعون، تصحيح مصطفى كساب. ١٨٣٩، ١٢١ ص.	بيطرة
٥١	حاشية السيالكوتي، على حاشية اللاري، على الفوائد الضيائية للجامي، على الكافية لابن الحاجب، تأليف عبد الحكيم السيالكوتي. ١٨٤٠، جزءان في مجلدين.	نحو
٥٢	حاشية محرم أفندي، على شرح الجامي المسمى بالفوائد الضيائية، على الكافية لابن الحاجب، تأليف محرم «أفندي». ١٨٤٠، ٧٤٧ ص.	نحو
٥٣	دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار، تأليف محمد بن عبد الرحمن الجزولي. طبع حجر بديوان المدارس، ١٨٤٠، ١٦٦ ص.	تصوف
٥٤	روضة الأذكيا في علم الفيسلوجيا «طب بيطري»، تأليف لافارج، ترجمة يوسف فرعون، تصحيح كساب. ١٨٤٠، ١٣٢ ص.	بيطرة
٥٥	ضياء النيرين في مداواة العينين، ترجمة أحمد حسن الرشيدي. ١٨٤٠، ٤٦٥ ص.	طب
٥٦	علم الجبر والمقابلة، ترجمة محمد بيومي. ١٨٤٠، ٥٧١ ص.	رياضة
٥٧	منتهى البراح في علم الجراح «الطب البيطري»، تأليف برنس، ترجمة يوسف فرعون، تصحيح مصطفى كساب. ١٨٤٠، ٢٦٠ ص.	بيطرة
٥٨	الأقوال المرضية، في علم بنية الكرة الأرضية، تأليف بوبيه، ترجمة أحمد فايد، تصحيح إبراهيم عبد الغفار. ١٨٤١، ١٧٤ ص.	جغرافية
٥٩	البريقة المحمودية، في شرح الطريقة المحمدية، والشريعة النبوية، في السيرة الأحمدية، للبيركلي، تأليف محمد أبي سعيد الخادمي. ١٨٤١، جزءان في مجلد.	تصوف
٦٠	الدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص والمنافع، تأليف انطون فيجري، تصحيح محمد بن عمر التونسي. ١٨٤١، ٢٩٨ ص.	نبات

مسلسل	الكتاب	الموضوع
٦١	شرح الشفاء للقاضي عياض، تأليف علي بن سلطان الهروى. ١٨٤١، جزءان في مجلد.	حديث
٦٢	لائحة زراعة الفلاح، وتدبير أحكام السياسة بقصد النجاح. ١٨٤١، ٧٦ ص.	زراعة
٦٣	مطالع شموس السير في وقائع كرلوس الثاني عشر، تأليف أوليتر، ترجمة محمد مصطفى البياع. ١٨٤١، ٢٧٨ ص.	تاريخ
٦٤	نزهة المحافل في معرفة المفاصل «الطب البيطري تأليف ريجو، ترجمة محمد عبد الفتاح، تصحيح مصطفى كساب. ١٨٤١، ٨٠ ص.	بيطرة
٦٥	نظم اللآلىء في السلوك، فيمن حكم فرنسا ومن قابلهم على مصر من الملوك ، ترجمة أبي السعود بن أبي السعود، تصحيح رفاعة الطهطاوي. ١٨٤١، ٣٥١ ص.	تاريخ
٦٦	اتحاف الملوك الالبا، بتقدم الجمعيات في بلاد أوربا، تأليف روبرتسون، ترجمة سوار، تعريب خليفة بن محمود. ١٨٤٢، ٤١٦ ص.	تاريخ
٦٧	تحفة القلم في أمراض القدم، تأليف جيرار، ترجمة محمد عبد الفتاح. ١٨٤٢، ٢١٩ ص.	طب
٦٨	حاشية الأزميري، على شرح ملاخسرو، على مختصرة في الأصول المسمى : مرآة الأصول، في شرح مرقاة الوصول، تأليف سليمان الأزميري. ١٨٤٢، جزءان في مجلد.	أصول الفقه
٦٩	طالع السعادة والاقبال في علم الولادة وأمراض النساء والأطفال، تأليف فليوس الحكيم، ترجمة أحمد حسن الرشيدي. ١٨٤٢، جزءان في مجلدين.	طب
٧٠	الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية، تأليف بيرون الحكيم، تصحيح محمد الهراوي، محمد بن عمر التونسي. ١٨٤٢ ــ ١٨٤٤ ، ثلاثة أجزاء في ثلاثة مجلدات.	كيمياء
٧١	نزهة الرياض في علم الأمراض «الأمراض الباطنية البيطرية»، تأليف برنس الحكيم، ترجمة يوسف فرعون، تصحيح مصطفى كساب. ١٨٤٣، ٢٣٧ ص.	بيطرة
٧٢	أحسن الأغراض في التشخيص ومعالجة الأمراض، ترجمة محمد شافعي الحكيم، تصحيح محمد بن عمر التونسي. ١٨٤٣، جزءان في مجلد.	طب
٧٣	رضاب الغانيات في حساب المثلثات، ترجمة أحمد دقلة، تصحيح ابراهيم الدسوقي. ١٨٤٣، ١٤٥ ص.	رياضة

مسلسل	الكتاب	الموضوع
٧٤	روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى. تأليف محمد علي البقلي، تصحيح سالم القنياتي. ١٨٤٣، ٢٤٦ ص.	طب
٧٥	قانون الجفالك. ١٨٤٣، ٥٣ ص.	قوانين
٧٦	قانون نامة سفرية، ترجمة رمضان عبد القادر. ١٨٤٣، ١٤٨ ص.	فنون حربية
٧٧	مبادىء الهندسة، ترجمة رفاعة الطهطاوي. ١٨٤٣، ١٢٥ ص.	هندسة
٧٨	اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الأمبراطور شرلكان، تأليف روبرتسون، ترجمة سوار، تعريب خليفة بن محمود. ١٨٤٤، ثلاثة أجزاء في ثلاثة مجلدات.	تاريخ
٧٩	بهجة الرؤساء في علاج أمراض النساء، تأليف أحمد حسن الرشيدي. ١٨٤٤، ٦٥١ ص.	طب
٨٠	البهجة السنية في أعمار الحيوانات الأهلية، تأليف جيرار، ترجمة محمد عبد الفتاح، تصحيح مصطفى كساب. ١٨٤٤، ١١١ ص.	بيطرة
٨١	تهذيب العبارات في فن أخذ المساحات، تأليف لوكوه، ترجمة السيد عمارة بن عبد العال، تصحيح بيومي «أفندي». ١٨٤٤، ١٧٢ ص.	هندسة
٨٢	الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال، تأليف كلوت بك، ترجمة محمد شافعي. ١٨٤٤، ١٣٢ ص.	طب
٨٣	القانون الرياضي في فن تخطيط الأراضي، ترجمة إبراهيم رمضان تصحيح إبراهيم الدسوقي عبد الغفار. ١٨٤٤، ٢٥٥ ص.	رياضة
٨٤	مشكاة اللائذين في علم الاقرباذين «البيطري»، تأليف لابتوت، ترجمة محمد عبد الفتاح، تصحيح مصطفى كساب. ١٨٤٤، ١٣٠ ص.	بيطرة
٨٥	كشف رموز السر المصون في تطبيق الهندسة على الفنون، ترجمة عيسى زهران وآخرون. ١٨٤٤، ثلاثة أجزاء في ثلاثة مجلدات.	هندسة
٨٦	التشريح العام، تأليف كلار، ترجمة عيسوى النحراوي. ١٨٤٥، ٤٥٣ ص.	طب
٨٧	اللآلىء البهية في الهندسة الوصفية، جـ١، ترجمة إبراهيم رمضان، تصحيح حسن الجبيلي. ١٨٤٥، ١٧٦ ص.	هندسة

مسلسل	الكتاب	الموضوع
٨٨	نزهة الأقبال في مداواة الأطفال، تأليف أحمد حسن الرشيدي. ١٨٤٥م، ٨٤٠ ص.	طب
٨٩	اظهار الأسرار، تأليف محمد بيرعلي، المعروف بيبركلي. ١٨٤٦، ٥٦ ص.	نحو
٩٠	عوامل البيركلي، تأليف محمد بير علي، المعروف بيبركلي. ١٨٤٦، ٦٤ ص.	نحو
٩١	حاشية الأزميري، على شرح ملاخسرو، على مختصره في علم الأصول، المسمى : «مرآة الأصول في شرح مرقاة الوصول»، تأليف سليمان الأزميري. ١٨٤٦، جزءان في مجلدين.	أصول الفقه
٩٢	سياحة أمريقة، تأليف مركام، هنري وترجمة سعد نعام. ١٨٤٦، ١١٩ص.	جغرافية
٩٣	قرة النفوس والعيون، بسير ما توسط من القرون، ترجمة مصطفى الزرابي، تصحيح رفاعة الطهطاوي. ١٨٤٦، جزءان.	تاريخ
٩٤	المنحة لطالب قانون الصحة «الصحة البيطرية»، تأليف جرونيه، ترجمة محمد عبد الفتاح، تصحيح مصطفى كساب. ١٨٤٦، ٢٦٢ ص.	بيطرة
٩٥	الروضة البهية، في مداواة الأمراض الجلدية، تأليف أحمد حسن الرشيدي. ١٨٤٦، جزءان في مجلدين.	طب
٩٦	نخبة الأماثل في علاج تشوهات المفاصل، تأليف أحمد حسن الرشيدي. ١٨٤٦، جزءان في مجلدين.	طب
٩٧	ترجمة الجلستان الفارسي العبارة، المشير إلى محاسن الآداب في لطف إشارة، تأليف صلاح الدين الشيرازي، ترجمة جبرائيل بن يوسف، تصحيح محمد بن اسماعيل. ١٨٤٧، ١٨٢ ص.	أدب
٩٨	تعريب الأمثال في تأديب الأطفال، ترجمة عبد اللطيف (أفندي)، تصحيح رفاعة الطهطاوي. ١٨٤٧، ١٣٢ ص.	تربية
٩٩	ثمرة الاكتساب في علم الحساب، ترجمة محمد بيومي. تصحيح إبراهيم الدسوقي عبد الغفار. ١٨٤٧، جزءان في مجلد.	رياضة
١٠٠	حاشية شيخ زاده، على تفسير القاضي البيضاوي، تأليف محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجي، ١٨٤٧، ستة أجزاء في ستة مجلدات.	تفسير
١٠١	دستور مبارك معرب عن سنة ١٢٦٣ هلالية هجرية، عام النفع في القطر المصري وغيره، تأليف محمود بن أحمد. ١٨٤٧، ٨٢ ص.	فلك
١٠٢	غرر النجاح في أعمال الجراح، تأليف محمد علي البقلي. ١٨٤٧، جزءان في مجلدين.	طب
١٠٣	ملتقى الأبحر، تأليف إبراهيم بن محمد بن إبراهيم. ١٨٤٧، ٤٢٢ ص.	فقه
١٠٤	شرح قطر الندى وبل الصدى، تأليف عبدالله ابن يوسف بن هشام. ١٨٤٨، ١٢٥ ص.	نحو
١٠٥	الاعراب عن قواعد الاعراب، تأليف عبدالله بن يوسف بن هشام. ١٨٤٨، ١٥٨ ص.	نحو
١٠٦	تاريخ ملوك فرنسا، من مبدأ ملكهم إلى الملك لويز فيليب، تأليف مونيقورس الفرنساوي، ترجمة حسن قاسم. ١٨٤٨، ٣٧٦ ص.	تاريخ
١٠٧	التنوير في قواعد التحضير، تأليف محمد الشباسي. ١٨٤٨، ٤٤٤ ص.	طب
١٠٨	جامع الثمرات في حساب المثلثات، تأليف جاندر، ترجمة محمد بيومي، تصحيح ابراهيم الدسوقي عبد الغفار. ١٨٤٨، ١١٢ ص.	رياضة
١٠٩	دستور مبارك ، معرب عن سنة ١٢٦٥ هلالية هجرية، عام النفع في القطر المصري وغيره، تأليف محمود بن أحمد. ١٨٤٨، ٥٦ ص.	فلك
١١٠	درّة الناصحين، تأليف عثمان بن حسن الخوبوي. ١٨٤٨، ٣١٥ ص.	تصوف
١١١	شرح ألفية ابن مالك، تأليف عبدالله بن عبد الرحمن بن عقيل. ١٨٤٨، ١٨٦ ص.	نحو
١١٢	علم تحرك السوائل، تأليف بيلانجة، ترجمة أحمد فايد. ١٨٤٨، ٢٢٩ ص.	طبيعة
١١٣	مجمع الغرر في سياسة البقر، تأليف روبينيه، يوسف وترجمة عطية أفندي، تصحيح مصطفى كساب. ١٨٤٨، ٢٦٨ ص.	بيطرة


بسم الله الرحمن الرحيم

قاموس

اطالياني و عربي

يتضمن بالاختصار كل الالفاظ الجاري بها العاده والالزم

لتعليم الكلام

والموجبه اللغتين علي الصحيح وقد ينقسم الي قسمين

القسم الأول

في القاموس المرتب علي حسب العناد بموجب ترتيب حروف الهجا

القسم الثاني

يتضمن مجموع مختصر لسما وافعال من الشد

الزام واستحضار لدرس اللغتين

تم الطبع في بولاق بمطبعة صاحب السعاده

١٢٣٨

لوحـة رقـم (١)

لوحة رقم (١) صفحة عنوان كتاب «قاموس اطلياني وعربي» وهو أول كتاب طبع في مطبعة بولاق عام ١٨٢٢م.



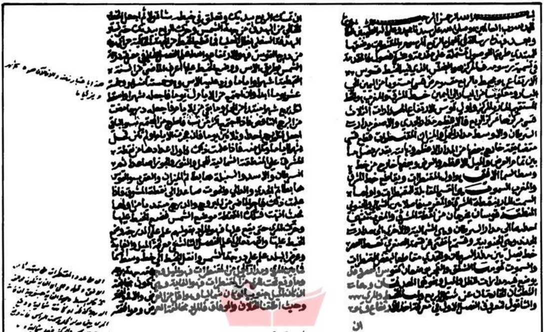
لوحـة رقـم (٢)

صفحة عنوان مخطوط «رسالة في عقائد الفرق» الذي ينسب لأحمد بن عبدالله الخادمي وقد كتب عام ١٢٣٣/١٢٣٤ هـ (١٨١٧/١٨١٨م) — مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٠٠٨٤ ب.



لوحـة رقـم (١٢)

صفحتان من مخطوط «رسالة في عقائد الفرق» ويظهر النص في وسط الصفحة، ويأتي الشرح حوله. ولسهولة ترتيب الصفحات قام الكاتب بكتابة الكلمة الأولى من الصفحة التالية في ذيل الصفحة الأولى.



لوحة رقم (٣)

الصفحتان الأولى والثانية من مخطوط «الرسالة المجدية في العمل خالي الربع المرسوم بالمقنطرات» لأبي العباس أحمد بن المجدي (مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٦٥ رياضيات — تيمورية).



لوحة رقم (٣ أ)

لوحة رقم ٣ أ — الصفحة الأخيرة من مخطوط «الرسالة المجدية في العمل خالي الربع» لأبي العباس أحمد بن المجدي.



لوحة رقم (٤)

الصفحة الأولى من كتاب «أصول الهندسة» لليجاندر، ترجمة محمد عصمت، وهو من مطبوعات بولاق سنة ١٨٣٩م. وقد وضع عنوان الكتاب داخل برواز.

٠٤٠٩٦	———	٣,١٤١٥٩١٤	———	٣,١٤١٥٩٣٣
٠٨١٩٢	———	٣,١٤١٥٩٢٣	———	٣,١٤١٥٩٢٨
١٦٣٨٤	———	٣,١٤١٥٩٢٥	———	٣,١٤١٥٩٢٧
٣٢٧٦٨	———	٣,١٤١٥٩٢٦	———	٣,١٤١٥٩٢٦

فظهر من الحساب المرقوم ان مساحة الدائرة = ٣,١٤١٥٩٢٦ لحيث صار تقديم الكسر الاعشارى الى سابع خانة وتركنا البواقى حسبت الكسور بزيادة ترقيم خانة ليكون حاصل الحساب مقرونا بالصحة وواصلا الى الحقيقة عند منتهى الخانات لئلا يكون الشبهة مجال فى صحة الحساب.

وحيث صارت مساحة الدائرة مساوية لحاصل ضرب نصف نصف قطرها بالمحيط تبين انه اذا كان نصف قطرها واحدا فنصف المحيط = ٣,١٤١٥٩٢٦ وان كان قطرها واحدا فالمحيط = ٣,١٤١٥٩٢٦ فظهر ان مقدار ط الذى هو اقرب لنسبة القطر الى المحيط كالحقيق = ٣,١٤١٥٩٢٦ فثبت المطلوب

الدعوى ــ الفائده

(شكل ١٧٠) اذا كان ضلع حـ هـ المساوى لضلع حـ د فى مثلث د حـ هـ المساوى الساقين المشترك فى رأس حـ بمثلث حـ ا ب وسطا متناسبا بين ضلعى حـ ا و حـ ب فالمثلثان المرقومان يكونان متكافئين وما عدا هذا اذا كانت زاوية حـ ا ب قائمة فعمود حـ و النازل على قاعدة المتساوى الساقين يكون وسطا متناسبا بين ضلع حـ ا وبين نصف مجموع ضلعى حـ ا و حـ ب

اولا حيث ان زاوية حـ مشتركة تكون نسبة مثلث ا ب حـ الى مثلث د حـ هـ متساوى الساقين كنسبة مستطيل ا حـ × حـ ب الى المستطيل د حـ × حـ هـ او كنسبة $\overline{\text{د حـ}}^2$ (كدمقالة ٣) وفى هذه الاربعة المتناسبة متى كان $\overline{\text{د حـ}}^2$ = ا حـ × حـ ب اعنى ان يكون د حـ وسطا متناسبا بين ضلعى ا حـ و حـ ب تبين ان يكون مثلثا ا ب حـ و د حـ هـ متكافئين لان تساوى حدى النسبة الثانية يستلزم تساوى حدى النسبة الاولى كما علم من خواص التناسب

ثانيا يلزم من تقسيم عمود حـ و لزاوية ا حـ ب الى قسمين متساويين ان تكون ا ر : ر ب :: ا حـ : حـ ب (ر مقالة ٣) وايضا بطريق التركيب تكون ا ر : ا ر + ر ب أو ا ب :: ا حـ : ا حـ + حـ ب لكن حيث ان نسبة ا ر الى ا ب كنسبة مثلث ا حـ ر الى مثلث ا حـ ب أو ٢ حـ د و ولوجود النسبة ... فى هذين التناسبين صارت ا حـ : ا حـ + حـ ب :: ا حـ ر : ٢ حـ د و وان كانت زاوية ا قائمة من تشابه مثلثى ... تكون ا حـ ر : حـ د و :: $\overline{\text{ا حـ}}^2$: $\overline{\text{حـ و}}^2$ او ... :: $\overline{\text{ا حـ}}^2$: ٢ $\overline{\text{حـ و}}^2$ ولوجود النسبة المشتركة فى التناسبين ايضا تكون $\overline{\text{ا حـ}}^2$: ٢ $\overline{\text{حـ و}}^2$ :: ا حـ : ا حـ + حـ ب فاذا ضربت الثانية من هذا التناسب فى مقدار ا حـ يتساوى ... الباقيان وتاليا ها فلذا صار ٢ $\overline{\text{حـ و}}^2$ = ا حـ × (ا حـ + حـ ب) أو $\overline{\text{حـ و}}^2$ = ا حـ × $\left(\frac{\text{ا حـ + حـ ب}}{٢}\right)$

فظهر من هذه المساواة انه متى كانت زاوية ا قائمة يكون عمود حـ و وسطا متناسبا بين ضلع ا حـ ونصف مجموع ضلعى ا حـ و حـ ب وبه ثبت المطلوب

الدعوى ــ العمل

طريق استنباط دائرة من شكل كثير الاضلاع منتظم معلوم بقدر ما يراد بان يكون التفاوت بينهما قليلا

لوحة رقم (٤ أ)

صفحتان من كتاب «أصول الهندسة» للیجاندر وقد كتبت العناوين الجانبية بحروف أكبر وبخط مغاير لنوع خط النص.

والملاحظ بالنسبة للترقيم استخدام الرقم المسلسل في ترقيم الصفحات، علاوة على كتابة الكلمة الأولى من الصفحة التالية في ذيل الصفحة السابقة.



لوحة رقم (٤ ب)

الصفحة الأخيرة من كتاب «أصول الهندسة» للیجاندر.


المقبل يحذر كل طبيعة ضدها من الدواء والغذاء
حتى تعتدل طبائعك وتستقيم
واما صفة رياح الطبايع الاربع التي في الا
نسان واسماوها وافعالها
فمنها الجاذبة وهي حارة رطبة تقوى الدم وتجذب
الطعام من الفم الى المعدة ولا يستطيع شيء طعامه
وشرابه الا بها وبذلك وكلت وتسير على غذا ان
حار رطب من المعدة الى الكبد الى العروق فمن التفت
الريح المتضادتان في بعض مايخرجان الغذا
من الجسد فتمنع احدها الاخرى من ان تجري في سبيلها
فيستعين الانسان بذلك وهي تنحدر من اعلى المعدة
الى اسفل البطن فتخرج متغيرة الشم وهي حارة
رطبة على شكل ريح الجنوب يشهد على حرارتها
امتناع

امتناع شمها من التغيير على رطوبتها انحدارها
من الفم الى المعدة وذلك الحار من تنفس النفس
والرطوبة تنحدر وشكل هذا الريح الدم والمرى
والكبد والدماغ والشم والثانية
الماسكة وهي باردة يابسة تقوى المرة السوداء و
تمسك الطعام والشراب في المعدة ولا تستطيع المعدة
امساك شيء الا بها وبذلك وكلت وتسير على الغذاء
بارد يابس من المعدة الى الطحال الى الامعاء وهذه الريح
تصعد من المعدة الى الفم وتخرج باردة الشم وهي باردة
يابسة يشهد على برودتها تغيير شمها وتصاعدها
ونظير هذا الريح ريح الشمال وهي باردة يابسة
فلولا طبعها انفسدت الجاذبة الجسد بحرها ورطوبتها
ولولا الجاذبة انفسدت الماسكة الجسد ببرودتها

لوحة رقم (٥)

صفحتان من مخطوط «علم تدبير الابدان وصحة التفريخ وقواعد أصل الأجسام والتبيان والتشريح «لجالينوس (مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٤٤١ ــ طب تيمورية) ولترقيم صفحات المخطوط، قام الكاتب بكتابة الكلمة الأولى من الصفحة التالية في ذيل الصفحة السابقة.



لوحة رقم (٥ أ)

.محة الأخيرة من مخطوط «علم تدبير الأبدان» لجالنيوس.



لوحة رقم (٦)

صفحة من كتاب «التوضيح الألفاظ علم التشريح البيطري» لجرار، من مطبوعات بولاق سنة ١٨٣٣م. وقد كتب عنوان الباب بنفس خط النص وحجم حروفه.



لوحة رقم (٧)

صفحة من كتاب «المنحة في سياسة الصحة» لبرنار من مطبوعات بولاق سنة ١٨٣٤م ــ وقد وضع النص داخل برواز كما ان العناوين الجانبية كتبت بحروف أكبر وبخط مغاير لخط النص.



لوحة رقم (٨)

الصفحة الأخيرة من كتابه «ثمرة الاكتساب في علم الحساب» ترجمة محمد بيومي، من مطبوعات بولاق سنة ١٨٤٧م.

مراكــــز المعلومـــــات التربويـــــة

حشمت محمد علي قاسم
أستاذ مشارك وخبير المكتبات
بجامعة الامارات العربية

تمهيـــد :ـــ

التربية بوجه عام من أوفر مجالات العلوم الاجتماعية حظا في جهود التوثيق وتنظيم المعلومات، وذلك على المستويين الوطني والعالمي. ويرجع ذلك إلى ما يحظى به المجال من اهتمام كل من اليونسكو وشعبها الوطنية والمكتب الدولي للتربية IBE والمنظمات التربوية الاقليمية ومراكز البحوث التربوية في جميع أنحاء العالم. وليس أدل على هذا الاهتمام من كثافة اللقاءات التي تنظمها اليونسكو لتدارس قضايا تداول المعلومات والافادة منها في مجال التربية. ومن أبرز هذه اللقاءات الدورة التاسعة عشرة للمؤتمر العام لليونسكو والتي عقدت في نيروبي بكينيا عام ١٩٧٦م، والمؤتمر الدولي السادس والثلاثون للتربية الذي عقد في جنيف فيما بين الثلاثين من أغسطس والثامن من سبتمبر عام ١٩٧٧، وكذلك ندوة البرامج المستقبلية للمعلومات والاتصال في التخطيط التربوي والتي عقدت بمقر اليونسكو في باريس فيما بين الحادي والعشرين والخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٧٧م[١]. كما يتمثل هذا الاهتمام أيضا في حرص اليونسكو على توفير أدوات العمل في مراكز المعلومات التربوية. ومن أهم هذه الأدوات مكنز التربية الذي أعده المكتب الدولي للتربية. وحرصا من المكتب الدولي للتربية على توفير مقومات التنسيق والتعاون بين مراكز المعلومات التربوية في العالم كان صدور «دليل مراكز التوثيق والمعلومات التربوية» في طبعات متلاحقة. وقد صدرت الطبعة الرابعة من هذا الدليل عام ١٩٨٢م[٢] كجزء من الجهود الرامية لتطوير الشبكة الدولية للمعلومات التربوية (INED).

ونحاول في هذه الدراسة التعرف على بعض الأنماط التي تحكم تنظيم مراكز المعلومات التربوية والاتجاهات السائدة في نمو هذه المراكز وتطورها على المستوى العالمي. وتستخدم كلمة «التنظيم» هنا بأوسع معانيها حيث تدل على وضع أجهزة المعلومات التربوية في السلم التنظيمي للهيئات التي تتبعها، والموارد البشرية المتاحة لهذه الأجهزة، ومقتنياتها من مصادر المعلومات، والأساليب الفنية المتبعة في معالجة هذه المقتنيات، وطبيعة ما تمارسه هذه المراكز من أنشطة، وما تقدمه من خدمات، وإلى أي حد أفادت هذه المراكز من الابتكارات التكنولوجية في مجال تنظيم المعلومات والمتمثلة أساسا في الحاسبات الالكترونية والمصغرات الفليمية. ونعرض لهذه العناصر التنظيمية في سياقها الجغرافي والتاريخي، كما نحاول الربط فيما بينها لمعرفة ما إذا كانت هناك تأثيرات متبادلة فضلا عن المساهمة في تحديد معالم التطور واتجاهاته.

وتعتمد هذه الدراسة على البيانات المستقاة من الطبعة الرابعة من الدليل الذي سبقت الاشارة إليه، والذي يعطي عن كل مركز اسمه وعنوانه وتاريخ انشائه والجهة التي يتبعها وعدد العاملين فيه من المهنيين وغير المهنيين وطبيعة الانشطة التي يمارسها والخدمات التي يقدمها وفئات المستفيدين من هذه

الخدمات، ومجالات التغطية الموضوعية للمقتنيات وحجم هذه المقتنيات من الكتب والوثائق والدوريات، هذا بالاضافة إلى الخطط المتبعة في تصنيف المقتنيات والنظم المستخدمة في تجهيز البيانات، ومدى الاهتمام بالمواد السمعية والبصرية وامكانات التصوير والاستنساخ ، فضلا عما يصدر عن المركز من دوريات وكتب ودراسات، ولم ترد كل هذه البيانات مكتملة بالنسبة لجميع المراكز التي شملها الحفر بالطبع حيث اقتصر الأمر على الاستجابات الواردة من المراكز بناء على استمارة مبسطة لتجميع البيانات اعدها المكتب الدولي للتربية. وقد اكتنف تصميم هذه الاستمارة قصور انعكست نتائجه على ما تم تجميعه من بيانات. فمجال التوثيق وتنظيم المعلومات ما زال يعاني من بعض مظاهر الخلط وتضارب المفاهيم، وكان لا بد من الحرص في تصميم هذه الاستمارة على تثبيت مفاهيم المجال من وجهة نظر الجهة الراعية على الأقل، وهي منظمة لها وزنها في المجال على المستوى الدولي ولا شك. وكان عليها التزاما بمقتضيات الوظيفة التعليمية لهذه الاستمارة العمل على تحديد المجالات الدلالية لأهم مصطلحات المجال، وخاصة تلك المصطلحات الواردة في الاستمارة والمصطلحات التي يمكن أن تستعمل في تعبئتها. ولكن المجال قد ترك مفتوحا أمام المسئولين عن تعبئة الاستمارة وخاصة بالنسبة للبيانات الخاصة بالأنشطة والخدمات وفئات المستفيدين من الخدمات. وقد كان من الصعب على من قاموا بتعبئة الاستمارات في كثير من الأحيان التمييز بين ما يدخل ضمن الأنشطة وما يعتبر في عداد الخدمات. وربما كان من الأفضل أيضا أن يقدم المكتب الدولي للتربية حصرا لفئات المستفيدين من خدمات مراكز المعلومات التربوية كمحاولة للتقنين أو كحد أدنى على الأقل وأن يترك لكل مركز حرية الاختيار ثم الاضافة إذا دعت الضرورة. ومما يؤخذ على هذه الاستمارة أيضا التقسيم الثنائي للعاملين بمراكز المعلومات وعدم تحديد مواصفات ومؤهلات كل من الفئتين . وسوف تتضح آثار هذا القصور فيما يلي من تحليلات. ونرجو تدارك مظاهر القصور هذه فيما يصدر من هذا الدليل من طبعات لاحقة.

التوزيع الجغرافي لأجهزة المعلومات التربوية :

يشتمل الدليل على ١٠٨ أجهزة للمعلومات التربوية موزعة على ٨٦ دولة فقط، في كل من أوربا الغربية، وأوربا الشرقية، وأفريقيا، وآسيا، والولايات المتحدة ودول أمريكا اللاتينية والعالم العربي، واستراليا ودول الأوقيانوس (جدول١). ومن بين هذه الأجهزة هناك ٩٦ جهازا وطنيا وسبعة أجهزة اقليمية وخمسة أجهزة دولية. وتتركز الأجهزة الاقليمية في الدول النامية أساسا حيث نجد جهازين في افريقيا وجهازين في العالم العربي احدهما في لبنان والآخر في تونس، وجهازا واحدا في آسيا وجهازا واحدا في دول امريكا اللاتينية ومقره شيلي. أما الأجهزة الدولية فتتركز في الدول المتقدمة وهي فرنسا وأسبانيا وسويسرا والمانيا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية. هذا ومن الملاحظ أن دول أوربا الغربية تستأثر بأكبر عدد من مراكز التوثيق والمعلومات التربوية. والغالبية العظمى من الدول التي شملها الحصر (٧٥٫٦٪) لا يوجد بكل منها سوى جهاز واحد للمعلومات التربوية، بينما تمثل الدول التي يوجد بكل منها مركزان ٢٣٫٣٪. أما الدولة الوحيدة التي يوجد بها ثلاثة مراكز فهي فرنسا حيث يوجد بها مركز وطني وآخر اقليمي يتبع مجلس التعاون الثقافي الأوربي وثالث دولي يتبع المعهد الدولي للتخطيط التربوي. وإذا ما استبعدنا المراكز الاقليمية والمراكز الدولية فانه يتبين لنا أن هناك تسع دول فقط (١٠٫٥٪) ترعى كل منها مركزين وطنيين للتوثيق والمعلومات التربوية. ولدول أوربا الشرقية أكبر نصيب في هذه الفئة. ولا ندري ما إذا كان مرد عدم تمثيل جميع دول العالم في هذه البيانات إلى نقص في تغطية الدليل أم إلى افتقار بقية الدول إلى أجهزة التوثيق والمعلومات التربوية.

التطور التاريخي لأجهزة المعلومات التربوية :

بدأ الاحساس بوطأة مشكلة المعلومات يتزايد مع نهاية القرن التاسع عشر، حيث تركزت الجهود في ابتكار أساليب غير تقليدية لتنظيم الوثائق واختزان بياناتها وتيسير سبل استرجاعها كما بدأ الاهتمام بالضبط الوراقي وتنظيم تدفق المعلومات على المستوى العالمي يتخذ بعض الخطوات الايجابية التي تمثلت في تأسيس «بول أو تليه» و«لافونتين» للمعهد الدولي للوراقة الذي تحول فيما بعد إلى الاتحاد الدولي للتوثيق. وكان من أبرز ثمار جهود ذلك المعهد تطوير نظام التصنيف العشري العالمي على أمل استخدامه في ترتيب الوراقية العالمية .

هذا وقد أمدنا مصدر البيانات بتواريخ انشاء واحد وتسعين جهازا فقط، أي حوالي ٨٤٫٣٪ من مجموع الأجهزة التي شملها الدليل. وكما يتضح من جدول (٢) فان النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد شهد ميلاد سبعة أجهزة للمعلومات التربوية (٧٫٧٪ من المجموع)، خمسة منها في أوربا الغربية وواحد في المجر وواحد في الهند. وأقدم هذه الأجهزة على الاطلاق المكتبة الادارية في النمسا (١٨٤٩)، تليها المكتبة المركزية ومتحف التربية في المجر (١٨٧٧)، ثم المكتبة المركزية لوزارة التربية والثقافة في بلجيكا (١٨٧٩) (وبلجيكا كما نعلم هي مهد التوثيق) والمركز القومي للتوثيق التربوي في فرنسا الذي أنشىء في عام ١٨٧٩م أيضا وهو أقدم مركز قائم استعمل كلمة «التوثيق» في تسميته، ثم المكتبة القومية للتربية وعلم النفس في السويد (١٨٨٥) والمكتبة القومية للتربية في الدانمارك (١٨٨٧). ومكتب الأمانة العامة لوزارة التربية والثقافة في الهند (١٨٩٧). تلك هي المفرزة الأولى التي تحملت عبء الريادة في مجال التوثيق التربوي قبل ذيوع مصطلح «التوثيق» نفسه.

جدول (١) التوزيع الجغرافي للمراكز

عدد المراكز / المنطقة	مركز واحد دولة	مركزان/ دولة	ثلاثة مراكز دولة	مجموع الدول العدد	مجموع الدول ٪	مجموع المراكز العدد	مجموع المراكز ٪
أوربا الغربية	٩	٦	١	١٦	١٨,٦	٢٤	٢٢,٢
أوربا الشرقية	٢	٦	—	٨	٩,٣	١٤	١٣,٠
أفريقيا	١٤	٢	—	١٦	١٧,٦	١٨	١٦,٧
آسيا	١١	٢	—	١٣	١٥,١	١٥	١٣,٩
أمريكا	١٢	٢	—	١٤	١٦,٣	١٦	١٤,٨
العالم العربي	١٢	٢	—	١٤	١٦,٣	١٦	١٤,٨
الأوقيانوس	٥	—	—	٥	٥٫٨	٥	٤,٦
المجموع	٦٥	٢٠	١	٨٦	١٠٠,٠	١٠٨	١٠٠,٠

جدول (٢) التوزيع الزمني الجغرافي للمراكز

المناطق / التاريخ	أوربا الغربية	أوربا الشرقية	أفريقيا	آسيا		العالم	الأوقيانوس	المجموع العدد	%
قبل ١٩٢٠	٥	١	—	١	—	—	—	٧	٧,٧
٢٠ — ١٩٢٩	٢	١	—	—	—	—	—	٣	٣,٣
٣٠ — ١٩٣٩	١	—	—	—	١	—	—	٢	٢,٢
٤٠ — ١٩٤٩	١	١	—	١	—	—	—	٣	٣,٣
٥٠ — ١٩٥٩	٣	٣	١	—	٣	١	—	١١	١٢,١
٦٠ — ١٩٦٩	٤	٤	٤	٤	٧	٧	١	٣١	٣٤,١
٧٠ — ١٩٧٩	٣	٤	٨	٥	٥	٦	—	٣١	٣٤,١
٨٠ — ٠	—	—	—	١	—	١	١	٣	٣,٣
المجموع	١٩	١٤	١٣	١٢	١٦	١٥	٢	٩١	١٠٠,١

وكما يتضح مما توافر لنا من بيانات فإن تأسيس أجهزة التوثيق التربوي قد توقف منذ بداية العقد العاشر من القرن التاسع عشر وحتى بداية العقد الثالث من القرن العشرين، وربما كانت الحرب العالمية الأولى مسئولة جزئيا عن هذا التوقف. ولم تكد عجلة هذا النشاط تستأنف دورانها في مطلع العقد الثالث من القرن العشرين حتى مني العالم بالحرب الكونية الثانية التي استمرت آثارها السلبية على التوثيق التربوي حتى بداية العقد السادس من القرن الحالي. وقد شهد العقدان السابع والثامن من القرن الحالي زيادة ملحوظة في أجهزة التوثيق التربوي حيث يسجل هذان العقدان ميلاد (١ر٦٨٪) من الأجهزة التي حصلنا على تواريخ تأسيسها، ومن ثم فان هذين العقدين هما عقدا التوثيق التربوي على المستوى العالمي بلا منازع، حيث شهدا ميلاد ٧ر٨٦٪ من مراكز التوثيق التربوي في العالم العربي و٧٥٪ من المراكز في دول أمريكا اللاتينية، و٧٥٪ من المراكز في آسيا، و٣ر٩٢٪ من المراكز في أفريقيا، و١ر٥٧٪ من المراكز في دول أوربا الشرقية، و٨ر٣٦٪ من المراكز في أوربا الغربية. هذا ومن الجدير بالذكر أن هذين العقدين قد شهدا ميلاد حوالي ٧ر٦٦٪ من مجموع المراكز الاقليمية والدولية معا. ويدل ذلك على أن ما شهدته الستينات والسبعينات من القرن الحالي من نشاط مكثف على جبهة المراكز الوطنية قد صاحبه اتجاه متزايد نحو التنسيق والتعاون على المستويين العالمي والاقليمي. ولن يمر وقت طويل بالطبع حتى يبلغ هذا النشاط مرحلة التشبع لأن حاجة كل مجتمع إلى مثل هذه الخدمات وقدرته على تمويلها ورعايتها محدودة ولا شك، ويؤكد ذلك الانخفاض الملحوظ في عدد المراكز التي انشئت في السنوات الثلاث الأولى من ثمانينيات القرن الحالي.

النمط التنظيمي لأجهزة المعلومات التربوية :

ويقصد بالنمط التنظيمي هنا طبيعة الأجهزة المسئولة عن التوثيق التربوي ووضع هذه الأجهزة في التسلسل الاداري وطبيعة المؤسسات التي ترعاها، والمصطلحات المستعملة في تسمية هذه الأجهزة وانعكاس كل ذلك على ما تمارسه من

أنشطة وما تقدمه من خدمات، وكما تبين مما توافر من بيانات فإن تقديم خدمات التوثيق والمعلومات في مجال التربية مسئولية ثلاث فئات من الأجهزة، أجهزة توثيق ومعلومات مستقلة مكرسة لهذا النشاط دون غيره، ويقصد بالاستقلال هنا الشخصية الاعتبارية، ومكتبات متخصصة وجامعية تقدم خدمات التوثيق والمعلومات ضمن ما تقدمه من خدمات، ومعاهد ومراكز بحوث ودراسات تربوية تقدم خدمات التوثيق والمعلومات كنشاط هامشي (جدول ٣).

وتمثل الأجهزة المستقلة من مراكز ووحدات حوالى ٥٩٫٣٪ من مجموع الأجهزة. وتسجل هذه الفئة أعلى نسبة لها في الولايات المتحدة ودول أمريكا اللاتينية (٩٣٫٧٪) ثم في العالم العربي (٨٧٫٥٪) ودول أوربا الشرقية (٥٧٫١١٪). ومن بين هذه الأجهزة ما يخدم مجال التربية إلى جانب غيره من المجالات كما هو الحال مثلا في مركز التوثيق الايراني التابع لمعهد البحوث والتخطيط في العلوم والتربية، والمركز القومي للتوثيق في تنزانيا، وقسم التوثيق المركزي بهولندا.

وتأتي الاكاديميات والمعاهد ومراكز البحوث والدراسات التربوية في المرتبة الثانية من حيث العدد، حيث تشكل حوالى ٢٥٫٩٪ من مجموع الأجهزة، وتسجل أعلى نسبة لها في استراليا ودول الأوقيانوس (٦٠٫٠٪) ثم في أفريقيا (٥٥٫٥٪).

أما المكتبات فتمثل حوالى ١٤٫٨٪ من مجموع الأجهزة، وتسجل أعلى نسبة لها في أوربا الغربية وجميع هذه المكتبات متخصصة في مجال التربية فيما عدا مكتبة جامعية واحدة في أفريقيا.

هذا ومن الممكن تقسيم أجهزة التوثيق التربوي وفقا لتبعيتها الادارية (جدول ٤) إلى الفئات الست التالية :

١ — أجهزة تتبع وزارات التربية، وهذه تشكل الغالبية العظمى على المستوى العام (٦٠٫٢٪) ويتفاوت نصيبها من منطقة إلى أخرى، ويبلغ هذا النصيب أعلى حد له في العالم العربي (٨١٫٣٪) ويليه مباشرة في كل من الدول الآسيوية والدول الأفريقية (٦٦٫٧٪) ثم في أوربا الشرقية (٥٧٫١٪) ثم في الولايات المتحدة ودول أمريكا اللاتينية (٥٦٫٣٪) وأوربا الغربية (٥٤٫٢٪). وترتبط معظم أجهزة هذه الفئة بالادارات المسئولة عن البحوث أو التطوير أو الاحصاء أو التنسيق بوزارات التربية.

٢ — أجهزة تتبع الاكاديميات ومراكز البحوث والدراسات التربوية وهذه تأتي في المرتبة الثانية من حيث العدد وتشكل حوالى ١٣٫٩٪ على المستوى العام. وأكثر ما تكون هذه الأجهزة كثافة في دول أوروبا الشرقية حيث تشكل حوالى ٣٥٫٧٪ تليها الدول الآسيوية حيث تشكل حوالى ٢٦٫٧٪.

جدول (٣) فئات أجهزة المعلومات التربوية

الفئات / المنطقة	أجهزة مستقلة		مكتبات		مؤسسات بحث		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
اوربا الغربية	١٢	٥٠٫٠	٧	٢٩٫٢	٥	٢٠٫٨	٢٤	٢٢٫٢
أوربا الشرقية	٨	٥٧٫١	٤	٢٨٫٦	٢	١٤٫٣	١٤	١٣٫٠
أفريقيا	٧	٣٨٫٩	١	٥٫٦	١٠	٥٥٫٥	١٨	١٦٫٧
آسيا	٦	٤٠٫٠	٤	٢٦٫٧	٥	٣٣٫٣	١٥	١٣٫٩
أمريكا	١٥	٩٣٫٧	—	٠٫٠	١	٦٫٣	١٦	١٤٫٨
العالم العربي	١٤	٨٧٫٥	—	٠٫٠	٢	١٢٫٥	١٦	١٤٫٨
الأوقيانوس	٢	٤٠٫٠	—	٠٫٠	٣	٦٠٫٠	٥	٤٫٦
المجموع	**٦٤**	**٥٩٫٣**	**١٦**	**١٤٫٨**	**٢٨**	**٢٥٫٩**	**١٠٨**	**١٠٠٫٠**

جدول (٤) التبعية الادارية لأجهزة المعلومات التربوية

الجهة الراعية / المنطقة	وزارة التربية		مراكز البحوث		المنظمات		الجامعات		وزارة الشئون		جهات أخرى		لم يبين		المجموع
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	
أوربا الغربية	١٣	٥٤,٢	١	٤,٢	٥	٢٠,٨	١	٤,٢	٢	٨,٣	٢	٨,٣	—	٠,٠	٢٤
أوربا الشرقية	٨	٥٧,١	٥	٣٥,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	١	٧,١	—	٠,٠	١٤
أفريقيا	١٢	٦٦,٧	١	٥,٦	٢	١١,١	٢	١١,١	—	٠,٠	١	٥,٦	—	٠,٠	١٨
آسيا	١٠	٦٦,٧	٤	٢٦,٧	١	٦,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	١٥
أمريكا	٩	٥٦,٣	٣	١٨,٧	٢	١٢,٥	—	٠,٠	—	٠,٠	٢	١٢,٥	—	٠,٠	١٦
العالم العربي	١٣	٨١,٣	١	٦,٣	٢	١٢,٥	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠			١٦
الأوقيانوس	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	٢	٤٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	٣	٦٠,٠	٥
المجموع	٦٥	٦٠,٢	١٥	١٣,٩	١٢	١١,١	٥	٤,٦	٢	١,٨	٦	٥,٥	٣	٢,٨	١٠٨

٣ — أجهزة تتبع المنظمات الدولية والمنظمات الاقليمية، وهذه تأتي في المرتبة الثالثة من حيث الكم وتشكل حوالى ١ر١١٪ من مجموع الأجهزة. وتأتي اليونسكو في مقدمة المنظمات الدولية الراعية لمثل هذه الأجهزة. وأكثر ما تكون هذه الأجهزة كثافة في دول اوربا الشرقية (٨ر٢٠٪).

٤ — أجهزة تتبع الجامعات، وتأتي في المرتبة الرابعة من حيث الكم وتشكل حوالى ٦ر٤٪ من مجموع الأجهزة وتتركز بشكل ملحوظ في استراليا ودول الأوقيانوس والدول الأفريقية.

٥ — أجهزة تتبع وزارة الشئون المحلية، وتأتي في المرتبة السادسة وتشكل ٨ر١٪ من مجموع الأجهزة ولا نجدها في دول أوربا الغربية.

٦ — أجهزة تتبع هيئات متفرقة كالمجالس واللجان القومية المتخصصة، وتأتي في المرتبة الخامسة وتشكل حوالى ٥ر٥٪ من مجموع الأجهزة. ونجدها بنسب متفاوتة في كل من دول أمريكا اللاتينية وأوربا الغربية وأوربا الشرقية وأفريقيا في ترتيب تنازلي.

وبقدر ما تتعدد تسميات الأجهزة ما بين قسم ووحدة وشعبة وقطاع وإدارة ومكتب ومصلحة ومركز ... إلى آخر ذلك من التسميات الدالة على الموقع في الهرم التنظيمي، تتعدد أيضا المصطلحات الدالة على الأنشطة التي تنضوي تحت راية المعلومات التربوية؛ فبالاضافة إلى «التوثيق» وغيره من المصطلحات المشتقة من نفس مادته اللغوية هناك المصطلحات المشتقة من المادة «ع ل م» كالاعلام والمعلومات، فضلا عن العبارات التي تربط بين مشتقات مادة «و ث ق» ومشتقات «ع ل م» كالمعلومات الوثائقية والاعلام الوثائقي. ومن تتبع تسميات الأجهزة في توزيعها الجغرافي (جدول ٥) يتبين لنا ما يلي:

١ — أن المصطلح «توثيق» منفردا قد استخدم في تسمية ٢٦ جهاز أي حوالي ١ر٢٤٪ من مجموع الأجهزة، واستخدم في تسمية ٣ر٥٦٪ من الأجهزة في الدول العربية، وفي تسمية ٢ر٢٩٪ من الأجهزة في أوربا الغربية، وفي ٢٥٪ من الأجهزة في دول أمريكا اللاتينية، وفي ٤٠٪ من الأجهزة في استراليا ودول الأوقيانوس.

٢ — أن المصطلح «معلومات» منفردا قد استخدم في تسمية حوالى ٨ر٣٪ من مجموع الأجهزة، كما استخدم بنسب متفاوتة في كل من أوربا الشرقية والدول الآسيوية ودول أمريكا اللاتينية في ترتيب تنازلي.

جدول (٥) التوزيع الجغرافي للمصطلحات

المصطلح / المنطقة	التوثيق	التوثيق والمعلومات	المعلومات
أوربا الغربية	٧	٤	—
أوربا الشرقية	—	٢	٦
أفريقيا	٢	٣	—
آسيا	٢	٢	٢
أمريكا	٤	١٠	١
العالم العربي	٩	٥	—
الأوقيانوس	٢	—	—
المجموع	٢٦	٢٦	٩

جدول (٦) التوزيع التاريخي للمصطلحات

٣ — أن الجمع بين المصطلحين «توثيق» و«معلومات» قد تم في تسمية حوالى ٢٤٫١٪ من مجموع الأجهزة، كما تم بنسب متفاوتة في كل من دول أمريكا اللاتينية والدول العربية وأوربا الغربية والدول الأفريقية. ودول أوربا الشرقية والدول الآسيوية في ترتيب تنازلي.

٤ — أن المصطلح «توثيق» قد ورد في أسماء حوالى ٤٨٫١٪ من مجموع الأجهزة وفي أسماء نسب متفاوتة من المراكز في كل من الولايات المتحدة الأمريكية ودول أمريكا اللاتينية والدول العربية، ودول أوربا الغربية، واستراليا ودول الأوقيانوس، والدول الآسيوية والدول الأفريقية، ودول أوربا الشرقية في ترتيب تنازلي.

٥ — أن المصطلح «معلومات» قد ورد في أسماء حوالى ٣٢٫٤٪ من مجموع الأجهزة وفي أسماء نسب متفاوتة من المراكز في كل من الولايات المتحدة الأمريكية ودول امريكا اللاتينية ودول أوربا الشرقية والدول العربية، والدول الآسيوية في ترتيب تنازلي.

والنشر والاحصاء والبحوث والدراسات والمحفوظات من المصطلحات التي ترد مصاحبة للتوثيق أو المعلومات أو كليهما معا في أسماء بعض الأجهزة. وأكثر هذه المصطلحات تواترا هو «النشر» يليه «الاحصاء» والأول مرتبط بالتوثيق باعتباره أحد الأنشطة، أما الثاني فيستخدم بمعنيين أولهما مرتبط بتجميع البيانات الاحصائية التربوية كأحد الأنشطة، أما المعنى الثاني فيرتبط بتقديم هذه البيانات بشكل يمكن الافادة منه لأغراض البحث والتخطيط واتخاذ القرارات كخدمة متميزة تقدمها بعض الأجهزة.

وإذا نظرنا إلى الموقف في سياقه التاريخي، واضعين في الاعتبار احتمال تغيير اسم الجهاز بعد تأسيسه بحيث لا يكون هناك ارتباط مباشر بين تاريخ تأسيس الجهاز وبدء استخدام المصطلح في تسميته (جدول ٦) فإننا نلاحظ ما يلي:

١ — أن المصطلح «توثيق» قد بدأ استخدامه في المراحل المبكرة لتطور خدمات المعلومات التربوية، وقد بلغ ذروته في العقد السابع من القرن الحالي، حيث استخدم منفردا في تسمية ٣٨٫٧٪ من الأجهزة التي أنشئت في هذا العقد، كما تردد في تسمية ٥٨٫١٪ من هذه الأجهزة.

٢ — أن استخدام المصطلح «توثيق» منفردا قد بدأ يتراجع ابتداء من العقد الثامن من القرن الحالي، حيث بدأ يشاركه وبشكل مكثف المصطلح «معلومات»، وما هذا التحول إلّا صدى لما كان يدور وقتئذ على جبهة البحث بمعاهد المكتبات وعلم المعلومات.[٣]

٣ — أن المصطلح «معلومات» لم يبدأ استخدامه منفردا إلا في العقد السادس من القرن الحالي، وما زال استخدامه بصحبة «التوثيق» يفوق معدل استخدامه منفردا.

وما إذا كان لهذه التسميات المختلفة انعكاسها على ما توافر لهذه الأجهزة من موارد مادية وبشرية وعلى طبيعة ما تمارسه من أنشطة وما تقدمه من خدمات، أمر سوف نحاول استجلاءه في اقسام لاحقة من هذه الدراسة.

والاتجاه نحو التنسيق والتعاون على المستوى العالمي من العناصر التنظيمية التي لا يمكن تجاهلها في تطور خدمات التوثيق والمعلومات. ويحظى هذا الاتجاه في مجال التربية برعاية المكتب الدولي للتربية في اطار الشبكة الدولية للمعلومات التربوية. وقد بلغ مجموع هذه الأجهزة المشاركة في هذه الشبكة ٣٦ جهازا وطنيا أي ما يمثل حوالى ٣٧ر٥٪ من مجموع المراكز الوطنية. وتتفاوت هذه النسبة من منطقة إلى أخرى، حيث تبلغ ذروتها في دول أمريكا اللاتينية (٥٧ر١٪) تليها مباشرة الدول العربية (٤٢ر٩٪) ثم استراليا ودول الأوقيانوس (٤٠ر٠٪) ودول أوربا الغربية (٣٦ر٨٪) وكل من آسيا وأوربا الشرقية (٢٨ر٦٪). وإذا علمنا أن كل مركز من هذه المراكز الوطنية يمثل دولة بذاتها فإن معنى ذلك أن ستا وثلاثين دولة فقط (٤١ر٩٪) قد استجابت حتى الآن للدعوة إلى التنسيق والتعاون.

الموارد البشرية :

تتطلب خدمات التوثيق والمعلومات جهود فئات متعددة من العاملين : فبالاضافة إلى المتخصصين الموضوعيين القادرين على تقييم الانتاج الفكري وتحليله هناك المهنيون المسئولون عن تتبع الانتاج الفكري وتوثيقه وتيسير سبل الافادة منه. فضلا عن المساعدين الكتابيين الذين يضطلعون بالمهام الروتينية، والفنيين المسئولين عن تشغيل الأجهزة. وقد أمدنا الدليل ببيانات القوى البشرية في ثلاثة وثمانين جهازا فقط أي حوالى ٧٦ر٨٪ من مجموع الأجهزة حيث تقسم هذه البيانات العاملين إلى فئتين، مهنيون وغير مهنيين (جدول ٧) ومن الممكن الخروج من هذا الجدول بالنتائج التالية :

جدول (٧) التوزيع الجغرافي للموارد البشرية

العاملون / المنطقة	عدد المراكز		العاملون: مهنيون		العاملون: غير مهنيين		مجموع العاملين		متوسط عدد العاملين بكل مركز	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	مهنيون	غير مهنيين
أوربا الغربية	١٩	٢٢,٩	٢٦٠	١٢,٦	١٥٤	٩,٢	٤١٤	١١,١	١٣,٧	٨,١
أوربا الشرقية	١٠	١٢,٠	٤٤١	٢١,٤	٢٠٦	١٢,٣	٦٤٧	١٧,٤	٤٤,١	٢٠,٦
أفريقيـا	٧	٨,٤	٢٧	١,٣	٨٨	٥,٣	١١٥	٣,١	٣,٩	١٢,٦
آسيـا	١٤	١٦,٩	٦٣٦	٣٠,٩	٦٥١	٣٨,٩	١٢٨٧	٣٤,٥	٤٥,٤	٤٦,٥
أمريكـا	١٦	١٩,٣	٣٥١	١٧,١	١٦٩	١٠,١	٥٢٠	١٣,٩	٢١,٩	١٠,٦
العالم العربي	١٢	١٤,٥	١٤٣	٧,٠	١١٦	٦,٩	٢٥٩	٦,٩	١١,٩	٩,٧
الأوقيانوس	٥	٦,٠	١٩٨	٩,٦	٢٨٩	١٧,٣	٤٨٧	١٣,١	٣٩,٦	٥٧,٨
المجمـوع	٨٣	١٠٠,٠	٢٠٥٦	٩٩,٩	١٦٧٣	١٠٠,٠	٣٧٢٩	١٠٠,٠	٢٤,٨	٢٠,٢

جدول (٨) توزيع المراكز حسب اعداد العاملين

عدد العاملين / عدد المراكز	١ ـ ١٠	١١ ـ ٢٠	٢١ ـ ٣٠	٣١ ـ ٤٠	٤١ ـ ٥٠	٥١ ـ ٦٠	٦١ ـ ٧٠	٧١ ـ ٨٠	٨١ ـ ٩٠	٩١ ـ ١٠٠	أكثر من ١٠٠
أوربا الغربية	٨	٥	٣	١	١	—	—	—	—	—	١
أوربا الشرقية	—	٣	١	—	١	—	١	١	١	—	٢
أفريقيا	٦	—	—	—	—	—	—	١	—	—	—
آسيا	٣	—	٢	٢	١	١	—	—	—	—	٥
أمريكا	٩	٢	١	١	—	—	٢	—	—	—	١
العالم العربي	٦	٣	١	—	—	١	—	—	—	١	—
الأوقيانوس	١	—	—	١	—	—	—	١	—	١	١
المجموع	٣٣	١٣	٨	٥	٣	٢	٣	٣	١	٢	١٠

١ ــ أن متوسط عدد العاملين بكل مركز حوالى ٤٥ عاملا منهم حوالى ٢٥ عاملا من المهنيين وحوالى ٢٠ عاملا من غير المهنيين، وكنا نتوقع أن يكون عدد غير المهنيين أكبر من عدد المهنيين.

٢ ــ أن توزيع العاملين سواء من حيث الكم أو الكيف أبعد ما يكون عن التوازن.

٣ ــ من الممكن اعتمادا على بيانات جدول (٧) تقسيم المناطق الجغرافية وفقا لنصيبها من القوى البشرية بوجه عام إلى فئتين :

أ ــ مناطق يقل نصيبها من القوى البشرية عن نصيبها من الأجهزة وهي أوربا الغربية، وافريقيا، والولايات المتحدة وامريكا اللاتينية، والدول العربية. وكل هذه المناطق يقل فيها متوسط عدد العاملين بكل مركز سواء من المهنيين أو غير المهنيين عن المتوسط العام. إلا أنه من الممكن للأسباب المفضية إلى هذه النتيجة في دول أوربا الغربية أن تختلف عن الأسباب المفضية إليها في المناطق الأخرى.

ب ــ مناطق يزيد نصيبها من القوى البشرية عن نصيبها من عدد المراكز وهي أوربا الشرقية، وآسيا واستراليا والأوقيانوس.

٤ ــ يمكن من حيث فئات العاملين تقسيم المناطق إلى ثلاث فئات :ــ

أ ــ مناطق يزيد نصيبها النسبي من العاملين المهنيين على نصيبها النسبي من العاملين غير المهنيين، وهي أوربا الغربية وأوربا الشرقية، والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية.

ب ــ مناطق يقل نصيبها النسبي من العاملين المهنيين عن نصيبها النسبي من العاملين غير المهنيين وهي أفريقيا، وآسيا، واستراليا ودول الأوقيانوس .

جـ ــ مناطق يتساوى نصيبها النسبي من العاملين المهنيين مع نصيبها النسبي من العاملين غير المهنيين، وهي الدول العربية.

٥ ــ لا تساعدنا مثل هذه البيانات على الخروج بأساس معياري لتحديد الحجم الأمثل لعدد العاملين بمراكز المعلومات التربوية، وتحديد نسب العاملين غير المهنيين

إلى العاملين المهنيين في هذه المراكز. ويرجع ذلك إلى اختلاف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من منطقة إلى أخرى ومن دولة إلى دولة داخل نفس المنطقة. هذا بالاضافة إلى أن ما خرجنا به من متوسطات إنما تخفي في طياتها أكثر مما تظهر بكثير. ويبين جدول (٨) مدى التفاوت في توزيع العاملين على المراكز.

هذا وقد تبين من مقارنة أنماط توزيع العاملين في المراكز التي تستخدم النظم الالكترونية والمراكز التي لا تستخدم هذه النظم، في كل من أوربا الغربية، وأوربا الشرقية، والولايات المتحدة الأمريكية، أن استخدام الحاسبات الالكترونية في مراكز المعلومات التربوية لم يسفر عن تغير يذكر في الأنماط السائدة، وكان من المنتظر أن يؤدي إلى تناقص نسب العاملين غير المهنيين.

مقتنيات المراكز من مصادر المعلومات :

تشكل الكتب والوثائق والدوريات أساس مجموعات الأجهزة من مصادر المعلومات، وعلى الرغم من أن الدليل لم يشر إلى ما إذا كانت البيانات الخاصة بالكتب والوثائق تدل على العناوين أم على المجلدات فإنه لا بأس من اعتماد هذه البيانات كمؤشر كمي يمكن الاعتماد عليه في المقارنة والربط طالما روعي الاطراد في تجميعها. وكما يتضح من جدول (٩) فإن هناك تفاوتا واضحا في حجم مقتنيات المراكز من الكتب والوثائق. وظروف النشأة والعمق التاريخي من العوامل الكامنة وراء هذا التفاوت، خاصة وأن الغالبية العظمى من الأجهزة تهتم بمجال التربية وما يتصل به بوجه عام. ونسبة المراكز التي لا يتجاوز حجم مقتنياتها من الكتب والوثائق العشرة آلاف مرتفعة بشكل ملحوظ (٧ر٣٤٪) وتتركز هذه المراكز الناشئة في كل من الدول الافريقية والدول العربية، ودول أمريكا اللاتينية، واستراليا ودول الأوقيانوس، وهذه كلها تدخل في عداد الدول النامية. أما الأجهزة التي يبلغ حجم مقتنياتها من الكتب والوثائق نصف المليون أو أكثر فلا تتجاوز أربعة أجهزة، وتتمثل أساسا في تلك الأجهزة المعتمدة على موارد المكتبات العريقة المتخصصة في التربية في كل من أوربا الغربية والاتحاد السوفيتي وآسيا.

ولا يختلف توزيع مقتنيات الأجهزة من الدوريات (جدول ١٠) كثيرا عن توزيع مقتنياتها من الكتب والوثائق. وتشكل الأجهزة التي يقل عدد ما تحصل عليه سنويا من الدوريات عن المائة النسبة الغالبة (٣ر٢٧٪) وتتركز هذه الأجهزة بوضوح في

جدول (٩) توزيع المراكز وفقا لحجم مجموعاتها من الكتب والوثائق *

المجموعات / عدد الأجهزة	أقل من		١٠ ــ ١٩		٢٠ ــ ٢٩		٣٠ ــ ٣٩		٤٠ ــ ٤٩		٥٠ ــ ٥٩		٦٠ ــ ٦٩		٧٠ ــ ٧٩		٨٠ ــ ٨٩		٩٠ ــ ٩٩		١٠٠ ــ ١٩٩		٢٠٠ ــ ٢٩٩		٣٠٠ ــ ٣٩٩		٤٠٠ ــ ٤٩٩		٥٠٠ ــ ٥٩٩		٦٠٠ فأكثر		المجموع	
	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪
أوربا الغربية	٥	٢٣,٨	٥	٢٣,٨	١	٤,٨	١	٤,٨	—	٠,٠	—	٠,٠	٢	٩,٥	—	٠,٠	—	٠,٠	١	٤,٨	١	٤,٨	٢	٩,٥	١	٤,٨	—	٠,٠	٢	٩,٥	—	٠,٠	٢١	١٠٠,١
أوربا الشرقية	—	٠,٠	٢	١٦,٧	٢	١٦,٧	—	٠,٠	٢	١٦,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	١	٨,٣	—	٠,٠	—	٠,٠	٢	١٦,٧	١	٨,٣	١	٨,٣	—	٠,٠	١	٨,٣	١٢	١٠٠,٠
أفريقيا	٩	٦٩,٢	٢	١٥,٤	—	٠,٠	١	٧,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	١	٧,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	—	—	٠,٠	—	٠,٠	—	١٣	١٠٠,٠
آسيا	٣	٢١,٤	٢	١٤,٣	٢	١٤,٣	١	٧,١	١	٧,١	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	١	٧,١	—	٠,٠	١	٧,١	١	٧,١	١	٧,١	—	٠,٠	١	٧,١	—	٠,٠	١٤	٩٩,٧
أمريكا	٦	٤٠,٠	٤	٢٦,٧	١	٦,٧	٢	١٣,٣	—	٠,٠	—	٠,٠	١	٦,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠		٠,٠	—	٠,٠	١	٦,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	١٥	١٠٠,١
العالم العربي	٨	٥٣,٣	٥	٣٣,٣	١	٦,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	١	٦,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	٥	١٠٠,٠
الأوقيانوس	٢	٤٠,٠	٣	٦٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠																		
المجموع	٣٣	٣٤,٧	٢٣	٢٤,٢	٧	٧,٤	٥	٥,٣	٣	٣,٢	—	٠,٠	٤	٤,٢	—	٠,٠	٢	٢,١	١	١,١	٣	٣,٢	٥	٥,٣	٣	٣,٢	٢	٢,١	٣	٣,٢	١	١,١	٩٥	١٠٠,٣

جدول (١٠) توزيع المراكز وفقا لحجم مجموعاتها من الدوريات

المجموعات / عدد المراكز	أقل من ١٠٠		١٠٠ ــ ١٩٩		٢٠٠ ــ ٢٩٩		٣٠٠ ــ ٣٩١		٤٠٠ ــ ٤٩٩		٥٠٠ ــ ٥٩٩		٦٠٠ ــ ٦٩٩		٧٠٠ ــ ٧٩٩		٨٠٠ ــ ٨٩٩		٩٠٠ ــ ٩٩٩		١٠٠٠ فأكثر		المجموع	
	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪
أوربا الغربية	١	٤,٨	٣	١٤,٣	١	٤,٨	٥	٢٣,٨	—	٠,٠	٢	٩,٥	—	٠,٠	١	٤,٨	٢	٩,٥	—	٠,٠	٦	٢٨,٦	٢١	١٠٠,١
أوربا الشرقية	١	٨,٣	١	٨,٣	٣	٢٥,٠	١	٨,٣	—	٠,٠	—	٠,٠	٢	١٦,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	٢	١٦,٧	٢	١٦,٧	١٢	١٠٠,٠
أفريقيا	٥	٤٥,٥	٢	١٨,٢	١	٩,١	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	٣	٢٧,٣	١١	١٠٠,١
آسيا	٢	١٦,٧	١	٨,٣	٢	١٦,٧	١	٨,٣	—	٠,٠	٢	١٦,٧	—	٠,٠	١	٨,٣	١	٨,٣	—	٠,٠	٢	١٦,٧	١٢	١٠٠,٠
أمريكا	٤	٣٠,٨	—	٠,٠	٥	٣٨,٥	—	٠,٠	١	٧,٧	١	٧,٧	—	٠,٠	١	٧,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	١	٧,٧	١٣	١٠٠,١
العالم العربي	١٠	٧١,٤	١	٧,١	٢	١٤,٣	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	١	٧,١	١٤	٩٩,٩
الأوقيانوس	١	٢٠,٠	٢	٤٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	١	٢٠,٠	١	٢٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	٥	١٠٠,٠
المجموع	٢٤	٢٧,٣	١٠	١١,٤	١٤	١٥,٩	٧	٧,٩	٢	٢,٣	٦	٦,٨	٢	٢,٣	٣	٣,٤	٣	٣,٤	٢	٢,٣	١٥	١٧,٠	٨٨	١٠٠,٠

كل من الدول العربية والدول الأفريقية، وفي مقابل ذلك نجد أن الأجهزة التي يتجاوز ما تحصل عليه سنويا الألف دورية تمثل ١٧٪، وتتركز بشكل واضح في دول أوربا الغربية ثم في الدول الأفريقية، ودول أوربا الشرقية، والدول الآسيوية . ويرجع بروز أجهزة الدول الأفريقية في هذه الفئة إلى نشأة هذه الأجهزة في كنف مكتبات غنية إلى حد ما.

طرق التصنيف والاسترجاع :

أمكن الحصول على البيانات الخاصة بخطط التصنيف في ٩٨ مركزا والبيانات الخاصة بالنظم المتبعة في تجهيز البيانات والاسترجاع في ٩٧ مركزا. وكما يتضح من جدول (١١) فإن هناك أربع خطط معيارية للتصنيف بالاضافة إلى تعديلات بعض هذه الخطط ، فضلا عن الخطط الخاصة أو المحلية. وعلى عكس ما استقر في الأذهان من ارتباط التصنيف العشري العالمي بالعلوم والتكنولوجيا، فإننا نلاحظ أن هذا التصنيف هو أكثر الخطط استخداما في المراكز التي شملها الحصر (٣٤٫٣٪). ويأتي ديوى العشري في المرتبة الثانية (٢٦٫٧٪) يليه تصنيف مكتبة الكونجرس ويتساوى تصنيف بلس Bliss وهو التصنيف البريطاني الوحيد مع ديوى المعدل (١٫٩٪) أما الخطط الخاصة أو المحلية فتستخدم في حوالى ٣٢٫٤٪ من المراكز. ولا ندري ما إذا كان التصنيف التحليلي التركيبي الخاص بمجال التربية والذي وضعه دوجلاس فوسكت قد ضاع ضمن هذه الفئة أم أنه لم يحظ بالقبول في أي من الأجهزة التي شملها الحصر.

هذا ومن الملاحظ أن هناك بعض الأجهزة التي تستخدم أكثر من خطة واحدة للتصنيف ؛ فالتصنيف العشري العالمي يشاركه عدد من الخطط الخاصة في كل من مركز المعلومات العلمية والنشر في بولندا، والمكتبة الوطنية للتربية في الاتحاد السوفيتي، والمكتبة النرويجية للتربية، كما يشاركه ديوى العشري في المركز القومي للتوثيق والمعلومات التربوية في الاكوادور. أما تصنيف ديوى العشري فتشاركه خطة خاصة في مكتبة المعهد القومي للبحوث التربوية في اليابان.

وكما يتضح من جدول (١١) أيضا فإن دول أوربا الشرقية أقل المناطق تنوعا في خطط التصنيف. ولا شك أن لهذا الاتجاه مزاياه في التنسيق وتوفير مقومات التعاون. وديوى العشري في شكليه الأصلي والمعدل هو أكثر الخطط انتشارا في الدول العربية على الرغم من تبني إدارة التوثيق والمعلومات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لمشروع خطة تحليلية تركيبية لتصنيف الانتاج الفكري في مجال التربية. وفي الوقت الذي لا نجد فيه

جدول (١١) الخطط المستخدمة في تصنيف الوثائق

الخطة / المنطقة	العشري العالمي ع	العشري العالمي ٪	ديوى ع	ديوى ٪	ديوى المعدل ع	ديوى المعدل ٪	الكونجرس ع	الكونجرس ٪	بليس ع	بليس ٪	خاصة ع	خاصة ٪	المجموع ع	المجموع ٪
أوربا الغربية	٨	٣٤٫٨	١	٠٤٫٣	—	٠٫٠	—	٠٫٠	١	٤٫٣	١٣	٥٦٫٥	٢٣	٩٩٫٩
أوربا الشرقية	٩	٥٢٫٩	—	٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	٨	٤٧٫١	١٧	١٠٫٠
أفريقيا	٥	٣٥٫٧	٣	٢١٫٤	—	٠٫٠	١	٧٫١	١	٧٫١	٤	٢٨٫٦	١٤	٩٩٫٩
آسيا	—	٠٫٠	١١	٧٨٫٦	—	٠٫٠	١	٧٫١	—	٠٫٠	٢	١٤٫٣	١٤	١٠٠٫٠
أمريكا	١١	٦٤٫٧	٤	٢٣٫٥	—	٠٫٠	—	٠٫٠	٢	١١٫٨	١٧	١٠٠٫٠		
العالم العربي	٢	١٣٫٣	٦	٤٠٫٠	٢	١٣٫٣	—	٠٫٠	—	٠٫٠	٦	٣٣٫٣	١٥	٩٩٫٩
الأوقيانوس	١	٢٠٫٠	٣	٦٠٫٠	—	٠٫٠	١	٢٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	٥	١٠٠٫٠
المجموع	٣٦	٣٤٫٣	٢٨	٢٦٫٧	٢	١٫٩	٣	٢٫٩	٢	١٫٩	٣٤	٣٢٫٤	١٠٥	١٠٠٫١

جدول (١٢) النظم المستخدمة في الاسترجاع

النظام / المنطقة	نظم يدوية ع	نظم يدوية ٪	نظم ميكانيكية ع	نظم ميكانيكية ٪	نظم الكترونية ع	نظم الكترونية ٪	المجموع ع	المجموع ٪
أوربا الغربية	١٢	٦٠,٠	١	٥,٠	٧	٣٥,٠	٢٠	١٠٠,٠
أوربا الشرقية	٨	٥٧,١	٢	١٤,٣	٤	٢٨,٦	١٤	١٠٠,٠
أفريقيا	١٥	١٠٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	١٥	١٠٠,٠
آسيا	١١	٧٨,٦	١٢	١٤,٣	١	٧,١	١٤	١٠٠,٠
أمريكا	١٢	٨٠,٠	١	٦,٧	٢	١٣,٣	١٥	١٠٠,٠
العالم العربي	١٣	٨٦,٧	١	٦,٧	١	٦,٧	١٥	١٠٠,١
الأوقيانوس	٣	٦٠,٠	١	٢٠,٠	١	٢٠,٠	٥	١٠٠,٠
المجموع	**٧٤**	**٧٥,٥**	**٨**	**٨,٢**	**١٦**	**١٦,٣**	**٩٨**	**١٠٠,٠**

لتصنيف مكتبة الكونجرس أثرا في أجهزة الولايات المتحدة أو في دول أمريكا اللاتينية فانه يستخدم في ثلاثة أجهزة موزعة في أفريقيا وآسيا وجزر الهند الغربية (جامايكا). وربما يتساوى كل من ديوى العشري والعشري العالمي في مدى الانتشار الجغرافي؛ ففي الوقت الذي لا نجد فيه أثرا لديوى العشري في دول أوربا الشرقية فإن أيا من المراكز في الدول الآسيوية لا يستخدم العشري العالمي. نخلص من ذلك إلى أن كثيرا من الجهد في انتظار المهتمين بالشبكة الدولية للمعلومات التربوية على جبهة التصنيف.

أما عن النظم المستخدمة في الاسترجاع فإنها بناء على ما توافر من بيانات تنقسم إلى ثلاث فئات، وهي النظم اليدوية والنظم الميكانيكية والنظم الالكترونية (جدول ١٢). ولا زالت النظم اليدوية هي الأكثر انتشارا تليها النظم الالكترونية مع فارق شاسع. أما النظم الميكانيكية فتأتي في المرتبة الثالثة والأخيرة ويتفاوت الانتشار النسبي لهذه الفئات الثلاث من منطقة إلى أخرى؛ فالنظم اليدوية تبلغ ذروتها في الدول الأفريقية حيث تسيطر على جميع الأجهزة. وتأتي الدول العربية في المرتبة الثانية (٧ر٦٨٪) تليها كل من دول أمريكا اللاتينية والدول الآسيوية واستراليا ودول الأوقيانوس، وأوربا الغربية وأوربا الشرقية في ترتيب تنازلي.

وتأتي دول أوربا الغربية في مقدمة الدول المستفيدة من نظم الاسترجاع الالكترونية، تليها مباشرة دول أوربا الشرقية، ثم استراليا ودول الأوقيانوس، والولايات المتحدة ودول أمريكا اللاتينية، والدول الآسيوية، والدول العربية في ترتيب تنازلي. أما الدول الأفريقية فلم تستفد حتى الآن من امكانات الحاسبات الألكترونية في هذا المجال.

وتسجل النظم الميكانيكية أقصى درجات انتشارها النسبي في دول الأوقيانوس، يليها مباشرة كل من دول أوربا الشرقية ودول آسيا في نفس المستوى، بينما تأتي كل من دول أمريكا اللاتينية والدول العربية في المرتبة الثالثة، في حين تأتي دول أوربا الغربية في المرتبة الرابعة. أما الدول الأفريقية فيبدو أنها لم تتجاوز مرحلة النظم اليدوية بعد.

هذا ومن الجدير بالذكر أن استخدام كل من النظم الميكانيكية والنظم الالكترونية لم يؤد إلى الاستغناء عن النظم اليدوية.

الأنشطة التي تمارسها أجهزة المعلومات التربوية :

كان من الصعب على بعض المراكز التي شملها الحصر التمييز بين الأنشطة والخدمات. وهذه كما أشرنا مسئولية مصممي استمارة تجميع البيانات. فربما كان من الأفضل لمصممي تلك الاستمارة تجميع كل ما يمكن أن يدخل ضمن أنشطة مراكز التوثيق والمعلومات التربوية في فئات محددة بدلا من ترك المجال مفتوحا أمام من يقومون بتعبئة الاستمارات وما تسفر عنه هذه الحرية من خلط وتضارب تكمن بذورهما في تربة المجال؛ فقد ورد الاحصاء والترجمة مثلا ضمن الأنشطة والخدمات في نفس الوقت. هذا وقد أمكن حصر أربعة عشر لونا من الأنشطة التي تمارسها الأجهزة التي يغطيها الدليل (جدول ١٣). ويأتي التوثيق في مقدمة هذه الأنشطة حيث يمارسه حوالى ٨٩٫٦٪ من مجموع المراكز. ومراكز أوربا الغربية هي أقل المراكز ممارسة لهذا النشاط أما مراكز كل من أوربا الشرقية والدول العربية فهي أكثر المراكز ممارسة له. وكما يتضح من جدول (١٣) فإن الأمر لا يقتصر على تلك الأنشطة الخاصة بالتجميع والتحليل والتنظيم والبث، فهناك بعض المراكز التي تقوم بانتاج المواد السمعية والبصرية وغيرها من الوسائل التعليمية بالاضافة إلى المساهمة في إعداد الكتب المدرسية، والاشراف على المكتبات المدرسية والتنسيق فيما بينها. هذا بالاضافة إلى تطوير مناهج التعلم وتقديم المشورة وتنظيم البرامج التدريبية للمدرسين والعاملين بالمكتبات والتوثيق، فضلا عن اقامة المعارض الخاصة بالوسائل التعليمية وتنظيم المؤتمرات العلمية. هكذا تتضح أبعاد الدور الحيوي لأجهزة المعلومات التربوية في دعم الأنشطة التربوية والتعليمية.

ويأتي النشر في المرتبة الثالثة بين الأنشطة حيث يمارسه حوالى ٧٠٫٨٪ من الأجهزة التي شملها الحصر، ويتفاوت مدى الاهتمام به من منطقة إلى أخرى حيث يبلغ ذورته في الدول العربية، تليها دول أوربا الشرقية، ثم دول أوربا الغربية، والدول الآسيوية ثم أمريكا واستراليا ودول الأوقيانوس، والدول الأفريقية في ترتيب تنازلي. ولمعظم أجهزة المعلومات التربوية برامجها الخاصة بالنشر العلمي. وعادة ما تركز المواد التي يتم نشرها في الدوريات والكتب أحادية الموضوع وتقارير البحوث والدراسات، فضلا عن الأدلة والمطبوعات الوراقية (البيليوجرافية).

أما إجراء الدراسات والبحوث فيأتي في المرتبة الرابعة حيث يمارسه حوالى ٥٢٪ من الأجهزة. إلا أننا نلاحظ أن الدول النامية بوجه عام أكثر اهتماما من غيرها بهذا النشاط، ويدل ذلك على مدى قوة المزاوجة بين البحث والتوثيق في هذه الدول حيث تضطلع الأجهزة بمهمة مزدوجة بدلا من انشاء اجهزة مستقلة للبحوث والدراسات التربوية وأخرى لأنشطة التوثيق والمعلومات التربوية.

ومن الملاحظ بوجه عام أن هناك ارتباطا بين المصطلحات الواردة في أسماء الأجهزة والأنشطة التي تمارسها هذه الأجهزة، اللهم إلا في حالات نادرة. إلا أننا نود أن نؤكد أن القضية ليست قضية أسماء وتسجيل قوائم مطولة بالأنشطة، وإنما قضية توافر المقومات الأساسية والموارد الضرورية والتي يمكن بدونها أن تصبح الأجهزة هياكل لا أكثر. ولو خضعت استمارة جمع البيانات لأبسط اجراءات اختبار الصحة لخرجنا بصورة للموقف

جدول (١٣) توزيع المراكز وفقا لما تمارسه من أنشطة

الأنشطة / المنطقة	التوثيق ع	التوثيق ٪	المعلومات ع	المعلومات ٪	النشر ع	النشر ٪	البحث ع	البحث ٪	التدريب ع	التدريب ٪	الاحصاء ع	الاحصاء ٪	الوسائل التعليمية ع	الوسائل التعليمية ٪	المعارض ع	المعارض ٪	المؤتمرات ع	المؤتمرات ٪	تطوير المناهج ع	تطوير المناهج ٪	الاستشارات ع	الاستشارات ٪	الكتب المدرسية ع	الكتب المدرسية ٪	التنسيق ع	التنسيق ٪	المكتبات المدرسية ع	المكتبات المدرسية ٪	المجموع*
أوربا الغربية	١٩	٧٩٫٢	١٧	٧٠٫٨	١٦	٦٦٫٧	٦	٢٥٫٠	٧	٢٩٫٢	١	٤٫٢	٢	٨٫٣	٢	٨٫٣	١	٤٫٢	٢	٨٫٣	١	٤٫٢	١	٤٫٢	—	٠٫٠	—	٠٫٠	٢٤
أوربا الشرقية	١٤	١٠٠٫٠	١٢	٨٥٫٧	١٣	٩٢٫٩	٧	٥٠٫٠	٥	٣٥٫٧	٥	٣٥٫٧	١	٧٫١	٤	٢٨٫٦	—	٠٫٠	١	٧٫١	—	٠٫٠	١	٧٫١	—	٠٫٠	—	٠٫٠	١٤
أفريقيا	١٧	٩٤٫٤	١١	٦١٫١	١٠	٥٥٫٥	١٣	٧٢٫٢	٩	٥٠٫٠	١	٥٫٥	٦	٣٣٫٣	٢	١١٫١	—	٠٫٠	١	٥٫٥	—	٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	١٨
آسيا	١٣	٩٢٫٩	١١	٧٨٫٦	٩	٦٤٫٣	٩	٦٤٫٣	٧	٥٠٫٠	٥	٥٣٫٧	٣	٢١٫٤	٤	٢٨٫٦	٣	٢١٫٤	—	٠٫٠	٢	١٤٫٣	—	٠٫٠	—	٠٫٠	١	٧٫١	١٤
أمريكا	١٣	٨١٫٢	١٥	٩٣٫٨	١٠	٦٢٫٥	٧	٤٣٫٨	٢	١٢٫٥	١	٦٫٢	١	٦٫٢	١	٦٫٢	—	٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	٢	١٢٫٥	١	٦٫٢	١٦
العالم العربي	١٥	١٠٫٠	١١	٧٣٫٣	١٤	٩٣٫٣	٩	٦٠٫٠	٤	٢٦٫٧	٣	٢٠٫٠	٢	١٣٫٣	—	٠٫٠	١	٦٫٧	—	٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	١٥
الأوقيانوس	٤	٨٠٫٠	٢	٤٠٫٠	٣	٦٠٫٠	٤	٨٠٫٠	٢	٤٠٫٠	—	٠٫٠	١	٢٠٫٠	٢	٤٠٫٠	١	٢٠٫٠	٢	٤٠٫٠	١	٢٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	—	٠٫٠	٥
المجموع	٩٥	٨٩٫٦	٧٩	٧٤٫٥	٧٥	٧٠٫٨	٥٥	٥١٫٩	٣٦	٣٤٫٠	١٦	١٥٫١	١٦	١٥٫١	١٥	١٤٫١	٦	٥٫٧	٦	٥٫٧	٤	٣٫٨	٢	١٫٩	٢	١٫٩	٢	١٫٩	١٠٦

* مجموع المراكز التي وردت البيانات الخاصة بما تمارسه من أنشطة في الدليل

جدول (١٤) توزيع المراكز وفقا لما تقدمه من خدمات

الخدمات / المنطقة	الاطلاع		الورقيات		الاعارة		الرد على الاستفسارات		البث الانتقائي للمعلومات		تبادل الاعارة		الترجمة		بحث الانتاج		التصوير		الاحاطة الجارية		المجموع*
	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	ع	٪	
أوربا الغربية	١٤	٦٦,٧	١٥	٧١,٤	١٦	٧٦,٢	١٠	٤٧,٦	٦	٢٨,٦	٧	٣٣,٣	٢	٩,٥	٣	١٤,٣	٣	١٤,٣	١	٤,٨	٢١
أوربا الشرقية	١٠	٧٦,٩	١٣	١٠٠,٠	٩	٦٩,٢	٧	٥٣,٨	٨	٦١,٥	٤	٣٠,٨	٨	٦١,٥	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	١٣
افريقيا	١٦	١٠٠,٠	٥	٣١,٢	٨	٥٠,٠	٩	٥٦,٢	٤	٢٥,٠	٣	١٨,٨	١	٦,٢	—	٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	١٦
آسيا	٨	٥٧,١	٩	٦٤,٣	٨	٥٧,١	٧	٥٠,٠	٥	٣٥,٧	٦	٤٢,٩	٢	١٤,٣	—	٠,٠	٢	١٤,٣	١	٧,١	١٤
أمريكا	٩	٥٦,٢	١٥	٩٣,٨	٧	٤٣,٨	٥	٣١,٢	٨	٥٠,٠	٦	٣٧,٥	٤	٢٥,٠	٧	٤٣,٨	٤	٢٥,٠	٢	١٢,٥	١٦
العالم العربي	١٠	٦٦,٧	١١	٧٣,٣	١١	٧٣,٣	١٠	٦٦,٧	٥	٣٣,٣	٤	٢٦,٧	٤	٢٦,٧	١	٦,٧	—	٠,٠	—	٠,٠	١٥
الأوقيانوس	٤	٨٠,٠	٣	٦٠,٠	٤	٨٠,٠	٣	٦٠,٠	١	٢٠,٠	٣	٦٠,٠	—	٠,٠	١	٢٠,٠	—	٠,٠	—	٠,٠	٥
المجموع	٧١	٧١,٠	٧١	٧١,٠	٦٣	٦٣,٠	٥١	٥١,٠	٣٧	٧٣,٠	٣٣	٣٣,٠	٢١	٢١,٠	١٢	١٢,٠	٩	٩,٠	٤	٤,٠	١٠٠

* مجموع المراكز التي وردت البيانات الخاصة بما تقدمه من خدمات في الدليل

تختلف تماما عما يمكن الخروج به من جدول (١٣) وعلى ذلك فإننا ينبغي أن نكون في غاية الحذر في تفسير هذه النتائج.

الخدمات التي تقدمها أجهزة المعلومات التربوية :

الخدمات هي الحصيلة النهائية لتفاعل عناصر الموارد والنظم والأنشطة مع الأوساط التي وجدت الأجهزة لتلبية احتياجاتها من المعلومات. وتختلف خصائص الأوساط المستفيدة من خدمات أجهزة المعلومات التربوية من مجتمع لآخر تبعا لاختلاف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والادارية والجغرافية.. إلى آخر ذلك من العوامل. ومن هنا كان التنوع فيما تقدمه الأجهزة من خدمات (جدول ١٤). ومن الممكن **تقسيم الخدمات العشر الواردة في هذا الجدول إلى ثلاث فئات:**

١ ـــ خدمات مكتبية : **وهذه تضم توفير امكانات الاطلاع** على الانتاج الفكري والاعارة وتبادل الاعارة فيما بين المكتبات والرد على الاستفسارات أو ما يعرف بالخدمة المرجعية.

٢ ـــ خدمات توثيقية : وهي تشمل بحث الانتاج الفكري والاحاطة الجارية والبث **الانتقائي للمعلومات والترجمة.**

٣ ـــ خدمات مشتركة ما بين المكتبات ومراكز المعلومات وتشمل إعداد الورقيات بكل أشكالها والتصوير العلمي.

ولمثل هذا الحشد من الخدمات دلالته على طبيعة ما تقدمه مراكز التوثيق التربوي من خدمات مقارنة بما عهدناه من الخدمات المكتبية. ولعل من أبرز أدلة ما يكتنف استمارة تجميع البيانات من قصور قلة عدد المراكز التي تقدم خدمة الاحاطة الجارية عن عدد المراكز التي تقدم خدمة البث الانتقائي للمعلومات بينما هذه الأخيرة ليست إلا شكلا من أشكال الأولى. هذا بالاضافة إلى أنه لم يرد في البيانات ذكر لخدمتين غاية في الأهمية وهما تحليل المعلومات وتوفير الوثائق دعما للموارد المحلية من مصادر المعلومات وبرامج تبادل الاعارة بين المكتبات.

وترد الخدمات في جدول (١٤) وفقا لمدى توافرها بالأجهزة في ترتيب تنازلي. ومن الملاحظ أن خدمات التوثيق بوجه عام تتركز في النصف الثاني من قائمة الأولويات في حين تأتي الخدمات المكتبية في الصدارة. ويدل ذلك على أن هناك كثيرا من المراكز التي لا زالت تدور في فلك الخدمات المكتبية التقليدية. ومن الملاحظ أيضا أن خدمة الترجمة وهي من خدمات التوثيق المتميزة تأتي في المرتبة السابعة ولا تحظى بالاهتمام إلا حيثما تشتد الحاجة إلى تخطي الحواجز اللغوية، وذلك في كل من دول أوربا الشرقية والدول العربية، ودول أمريكا اللاتينية والدول الآسيوية في ترتيب تنازلي.

الخلاصـــــة :

من الممكن الخروج من هذه الاستطلاعات بالنتائج العامة التالية :

١ ــ أن الاحساس بأهمية خدمات المعلومات التربوية والحرص على توفير مقوماتها قد بلغ ذروته في العقدين السابع والثامن من القرن الحالي.

٢ ــ من الممكن نمو عدد أجهزة المعلومات التربوية على المستوى العالمي أن يبلغ مرحلة التشبع قبل نهاية العقد التاسع من القرن الحالي.

٣ ــ أن معظم أجهزة التوثيق والمعلومات التربوية في الدول النامية لم تكتمل مقوماتها بعد.

٤ ــ تعدد الأنماط التنظيمية للأجهزة الوطنية المسئولة عن التوثيق وتوفير المعلومات التربوية.

٥ ــ تبدى أجهزة التوثيق التربوي حساسية فائقة لما يدور على جبهة الدراسات والبحوث النظرية في المجال.

٦ ــ لا زال نقص الموارد البشرية من أهم المشكلات التي تواجه أجهزة المعلومات التربوية وخاصة في الدول النامية.

٧ ــ لا زالت معظم أجهزة التوثيق التربوي وخاصة في الدول النامية مفتقرة إلى الرصيد المناسب من مصادر المعلومات. والتنسيق والتعاون هما أهم ضمانات دعم موارد هذه المراكز.

٨ ــ أن الدعوة الى التنسيق والتعاون على المستوى العالمي تسبق المقومات الأساسية للتنسيق والتعاون على المستوى الاقليمي ولا بد من ايجاد الشبكات الأقليمية أولا.

٩ ــ يعوق تعدد الخطط المتبعة في تصنيف الوثائق والنظم المتبعة في اختزان المعلومات واسترجاعها فرص التنسيق والتعاون ولا بد من البدء أولا بتوفير الأدوات المعيارية والحث على استخدامها وخطط التصنيف ولغات التكشيف في مقدمة هذه الأدوات.

١٠ ــ لا زالت أجهزة التوثيق التربوي تخطو خطواتها الأولى في الاستفادة من تكنولوجيا المعلومات والمتمثلة في الحاسبات الألكترونية ووسائل الاتصال والمصغرات الفيلمية.

المراجــــع

(١) Information; an essential factor in educational palnning and policy. Paris, UNESCO, 1980. 303 p.

(٢) Directory of educatinal decumentation and information services. 4th ed. Paris, UNESCO, 1982.

(٣) حشمت قاسم. علم المعلومات في رحلة البحث عن هوية. مجلة المكتبات والمعلومات العربية، ع١، مج١، يناير ١٩٨١م. ص ص ٥ــ٣٦.

تاريخ الصحافــــة الكربلائيـــــة

سلمان هادي الطعمة

كربلاء ــ العراق

تعتبر كربلاء إحدى مدن العراق التي لها ماضيها التليد وحاضرها المشرق. انبثقت منها بين حين وآخر صحف ومجلات تعبر عن المطامح والاهتمامات.

وقد لعبت الصحافة الكربلائية دوراً كبيراً في مضمار الحياة الفكرية، وكان لها نصيب وافر ونشاط ملموس في دفع زخم الحركة الثقافية إلى التطور والازدهار، ولا شك أنها تساعد على تنمية الوعي القومي، وتصور مظاهر اليقظة الفكرية، وعلى صفحاتها انعكست تيارات المجتمع الكربلائي واتجاهاته السياسية والاجتماعية والثقافية، فهي لم تكن أقل شأناً من أخواتها الصحف القطرية التي ساهمت في رفع المستوى الثقافي والفكري في سائر المدن العراقية كبغداد والموصل والبصرة وغيرها، وكان الطابع العام لتلك الصحف تنوير الرأي العام والدعوة إلى الاصلاح والتجديد وإيجاد الروابط بين المجتمع الكربلائي ومجتمعات المدن العراقية والعربية.

أجدني بحاجة إلى ذكر أقدم مطبعة حجرية عرفها العراق أسست في كربلاء سنة ١٨٥٦م في عهد مشير العراق والحجاز محمد رشيد باشا وقد طبعت طائفة من رحلات الآلوسي الكبير أبي الثناء شهاب الدين محمود مفتي بغداد.

وما دمنا بصدد الحديث عن الصحافة الكربلائية، لا بد لنا أن نستعرض تاريخ صدور هذه الصحف وما أدته من خدمة نافعة في تطوير الحياة الأدبية والعلمية والسياسية خلال الحقبة التي صدرت فيها تلك الصحف، وأبرز الكتّاب الذين غذوا الصحافة هذه بآثارهم الخالدة. كما أشرت إلى الأعداد الخاصة في المناسبات التاريخية والدينية والوطنية والاقتصادية التي ظهرت من كل صحيفة. وقد فصلت القول في كل صحيفة من هذه الصحف ورتبتها حسب تاريخ صدورها، وهي كما يلي:

١ ــ الاتفاق

صحيفة أنشأها في كربلاء الحاج مرزا علي الشيرازي، صدر عددها الأول في ٧ آذار سنة ١٩١٦م، وقد حَيّا صدورها الشاعر الوطني محمد حسن ابو المحاسن بهذين البيتين:

قل لمن حاول مجداً إنــــــه ثمر حلــو الجنـــى حلـــو المذاق

ما جنتـــه أمـــة قبـــل ولا يجتنــــى الا بجد و(اتفـــاق)

٢ ــ الغروب

جريدة أدبية أسبوعية مصورة جامعة، صاحبها عباس علوان الصالح، مديرها المسؤول المحامي حسن محمد علي، صدرت في كربلاء (الأربعاء ٢٤ تموز ١٩٣٥م/ ٢٢ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ). وقد نشرت مختلف الأبحاث الاجتماعية والدراسات الأدبية الممتعة، وكافة فنون المعرفة، إضافة إلى النقد والقصص وحوادث الأسبوع، وأصدرت عدداً خاصاً بالنهضة العربية وذلك في يوم ٩ شعبان ١٣٥٤هـ/٦ تشرين الثاني ١٩٣٥م، وتفانت في الذود عن تراث الأمة العربية المجيدة. وكانت تطبع في مطبعة الشباب بكربلاء التي تعود لصاحب الجريدة نفسه. وظلت تصدر في كربلاء حتى عام ١٩٣٧م بعد أن جاوزت أعدادها الثلاثين، ومن ثم غربت عن الأنظار.

وبتاريخ ١٩٣٨/٦/٩م أبدل اسمها باسم (الأسبوع). وقد تبارت على صفحات الغروب أقلام مشاهير الأدباء وأقطاب الحركة الفكرية والسياسية في العراق وخارجه من أمثال: السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني وعبد المسيح وزير والدكتور عبد الجواد الكليدار آل طعمه وعبد الرزاق آل وهاب آل طعمه

ومحمد جواد الخطيب ومشكور الأسدي وهادي العصامي والدكتور عبد الرزاق محي الدين والشاعر أحمد الصافي النجفي والشاعر محمد علي اليعقوبي وغيرهم، وكان لها أثر واضح في بلورة مسار الحركة الثقافية في العراق.

وبين حين وآخر يصدر ملحق للغروب، اشتراكه السنوي (٧٥٠) فلساً، يبحث في الآداب العالمية والعلوم الرفيعة، ويشترك في تحريره نخبة من أعلام الأدب أيضاً.

٣ ـــ الأسبوع

جريدة أسبوعية أدبية مصورة جامعة، صاحبها الأستاذ عباس علوان الصالح ومديرها المسؤول المحامي راجي العسكري.

صدر عددها الأول في كربلاء بتاريخ ٥ أيلول ١٩٣٨م الموافق ٩ رجب ١٣٥٧ هـ، وتوجت صفحاتها بنشر البحوث والمقالات والدراسات الأدبية الجادة والشعر الرصين. وبعد صدور ستة أعداد منها انتقلت إلى بغداد، وصدر عددها الأول هناك في ٣ كانون الأول سنة ١٩٤٥م، وبقيت تصدر فيها دون توقف، وعندما نشر صاحبها كتاباً تناول فيه المعاهدة العراقية الانكليزية، صادرته وزارة الداخلية آنذاك، وألغت امتياز جريدته، بعد أن استمرت بالصدور لغاية ١٩٤٦/٧/٩م، وكان من أبرز كتابها: توفيق الفكيكي وتقي المصعبي ومحمد علي اليعقوبي.

٤ ـــ الندوة

في سنة ١٩٤١ تشكلت في كربلاء جمعية أدبية باسم (ندوة الشباب العربي) وأصدرت جريدة أسبوعية أدبية جامعة، مديرها المسؤول المحامي السيد محمد مهدي الوهاب آل طعمه.

وقد أسهمت هذه الجريدة في التوعية الوطنية، فنشرت مقالات عديدة عن حركة مايس ١٩٤١م ودعت الأهالي إلى ضرورة تأييد الحركة القومية التي تزعمها رشيد عالي الكيلاني آنذاك، وذلك بدعوتها إلى عقد اجتماعات ومؤتمرات في المدن العراقية. ولابد أن أشير إلى أنه عقد فعلاً مؤتمر قومي كبير في كربلاء حضره آلاف من الأهلين منهم العلماء والزعماء والوجوه والفتوة وطلبة المدارس، ألقيت فيه القصائد والخطب تأييداً لقضيتنا الوطنية ورفع لواء الجهاد المقدس وتأليف الكتائب للانضمام إلى الجيش الباسل. كما نشرت الجريدة البلاغات الحربية وفتاوى العلماء مما كان لها الأثر الكبير في تأجيج روح الحماس، إضافة إلى نشر بعض القصص والدراسات الأدبية والأخبار المحلية. وقد ساهم في تحريرها نخبة من أصحاب السماحة العلماء أمثال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والشيخ محمد الخطيب، ومن الأدباء مشكور الأسدي والمحامي حمزه بحر والشيخ محسن أبو الحب ومظهر أطيمش وغيرهم. صدر عددها الأول بتاريخ ٣ أيار سنة ١٩٤١م، وكان مجموع ما صدر منها ١٤ عدداً، وطبعت أعدادها في مطبعة الثقافة في كربلاء.

٥ ـــ القدوة

جريدة أسبوعية أدبية جامعة. مؤسسها الأستاذ رحيم خضر الكيال، ومديرها المسؤول المحامي حسن عبدالله. ساهم في تحريرها رعيل من شباب كربلاء المثقف بينهم الدكتور صالح جواد الطعمة والدكتور محمد جواد رضا وحسين فهمي الخزرجي وحسن عبد الأمير ومهدي جاسم وغيرهم. صدر عددها الأول في ٣ نيسان سنة ١٩٥١م (٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠هـ)، وقد اتسمت بالموضوعية ونزاهة القصد، ويمكن القول بأن القدوة كان لها تأثير موجّه في تنشيط الحركة الأدبية والثقافية عامة في المجتمع الكربلائي، وذلك بما نشرته من طائفة صالحة من المقالات الأدبية والاجتماعية الهادفة، كما اعتنت بنشر أخبار منوّعة صوّرت الحياة الاجتماعية للمجتمع الكربلائي. اختتمت السنة الأولى بالعدد (٢٣) وصدر من هذه السنة عدد خاص بالإمام الحسين رضي الله عنه حوى نتاجاً متميزاً، وقد حمل الرقم (٢٠). أما سنتها الثانية فقد انتهت بالعدد (٥٥)، وأصدرت خلالها عدداً خاصاً بالإمام الحسين رضي الله عنه أيضا يحمل الرقم (٤٧). وانتهت السنة الثالثة بالعدد (٦٠)، وقد صدر بتاريخ ١٩٥٤/٢/١٣، الموافق ٩ **جمادى الثانية سنة ١٣٧٣هـ**. وبهذا العدد اختتمت القدوة أعدادها.

٦ ـــ رسالة الشرق

مجلة ثقافية شهرية جامعة صاحبها السيد صدر الدين الحكيم

الشهرستاني، ومديرها المسؤول المحامي حسن حيدر. صدر عددها الأول بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٣٧٣هـ (آذار سنة ١٩٥٤م). حرر فيها لفيف من أدباء كربلاء ومفكريها أمثال الدكتور عبد الجواد الكليدار آل طعمه وعبد الرزاق الوهاب آل طعمه وحسين فهمي الخزرجي وحسن عبد الأمير ومرتضى الوهاب وجاسم الكلكاوي وكاتب المقال وغيرهم. وكان طابعها العام أدبياً ودينياً. وقد أرّخ صدورها الشاعر الكربلائي المرحوم **السيد مرتضى الوهاب بهذه الأبيات :**

مجلة للعلم غراءُ	لاح بها للفجر لألاؤ
تصدّر الدين بها سدّةٌ	فهي (لصدر الدين) اعلاء
زفت كمعطاء لقرائها	تزينّها للفخر أزياء
من لم يرد سلسل عرفانها	ضل وغابت عنه أسماء
رقت حواشيها وأبحاثها	كما صفت بالكأس صهباء
أحيت رفات الشرق مذ أر	خت (رسالة للشرق أحياء)
	١٣٧٣هـ

وبسبب صدور القانون العام للمطبوعات، ألغي امتيازها بتاريخ ١٩٥٤/٢/١٧م بعد أن صدر منها عشرة أعداد فقط. وصدر من هذه السنة عدد خاص بالإمام الحسين بن علي يحمل الرقم (٨). وبالاجمال فإن المجلة عالجت مواضيع ثقافية على جانب كبير من **الأهمية، ودعت إلى إحياء** الحركة الثقافية في المدينة.

٧ ــ شعلة الأهالي

جريدة أسبوعية سياسية أصدرها في كربلاء المحامي السيد عبد الصاحب يوسف الأشيقر. صدر عددها الأول بتاريخ ٢٥/ رمضان ١٣٧٩هـ الموافق ٢٢ آذار ١٩٦٠م، كانت تعكس في صفحاتها إخلاص وتفاني الكربلائيين في دعم كيان هذا البلد، وعبّرت عن اسهامة الحرف العربي الأصيل. وقد برهنت أعدادها القليلة على سلوكها النبيل في النهج الديمقراطي السليم، ونشرت عدة بحوث ودراسات في صفحة (الأدب الحي) منها بحث واف عن الشاعر الوطني محمد حسن أبو المحاسن ودراسة مستفيضة **عن الشاعر الوطني محمد باقر الشبيب. وأصدرت عدداً خاصاً** بذكرى الإمام الحسين بن علي يحمل الرقم (١٤). وكانت تمثل في نهجها العام أفكار الحزب الوطني الديمقراطي في العراق. حرر فيها نخبة من أدباء كربلاء منهم : حسين فهمي الخزرجي وحسن عبد الأمير ومرتضى الوهاب وعلي محمد الحائري وكاتب المقال وغيرهم. انقطعت عن الخدمة العامة بعد أن صدر منها ٢٨ عدداً، وكان آخر عدد منها تاريخه ١٧ كانون الثاني ١٩٦١م.

٨ ــ الاقتصاد

مجلة إقتصادية تصدرها غرفة تجارة كربلاء، كانت تصدر مرتين في الشهر مؤقتا. صدر عددها الأول بتاريخ ١٥ تموز سنة ١٩٦٠م. كان هدفها خدمة الاقتصاد الوطني وتحقيق المصلحة العامة ضمن اختصاصات الغرفة التجارية وإمكانياتها، ساهم في تحريرها فريق من المثقفين منهم : محمد القريني وفيصل عبد الهادي الدخيل وشاكر عبد القادر البدري وصادق الخليلي ومحمد هادي الأميني وغيرهم. وقد سعى لاخراجها إلى حيز الوجود السيد هاشم السيد حسن آل نصر الله، رئيس الغرفة. صدر منها تسعة أعداد فقط. وكان آخر عدد منها صدر بتاريخ ١٥ كانون الأول سنة ١٩٦٠م.

٩ ــ المجتمع

جريدة أسبوعية أدبية جامعة صاحبها جاسم محمد الكلكاوي. رئيس تحريرها المحامي جواد الظاهر. صدر عددها الأول يوم الخميس ٤ تموز ١٩٦٣م، وتوقفت عن الصدور بتاريخ ١٩٦٣/١١/١٨م ثم عاودت الصدور ثانية، وتولى رئاسة تحريرها الشيخ عبد اللطيف الدارمي، وصدر منها ٤٨ عدداً بحجم جريدتي القدوة والندوة، حيث صدرت بتاريخ ١٣ شعبان ١٣٨٤ هـ (١٩٦٩/١٠/٢٥م). وفي هذه الفترة أرّخ الشاعر الكربلائي السيد مرتضى الوهاب عودة المجتمع بأبيات، ومادة التاريخ هي:

بكربلاء للجيل في تاريخها	(فعاد بالوعي ظهور المجتمع)
	١٩٦٩ م

وبعد استقالة رئيس تحريرها أصبح مكانه جواد محمد علي أبو التمن، ومن بعده عبد الجبار عبد الحسين الحضر. وأصبح حجمها

بحجم الجرائد الحالية.

أصدرت أعداداً خاصة بالإمام الحسين وثورة العشرين الوطنية، كما أنها نشرت وقائع الاحتفال الكبير بمهرجان الإمام علي في كربلاء، بالإضافة إلى الدراسات الأدبية وأبواب الشعر والقصة والنقد والأخبار المحلية. ساهم في تحريرها رعيل من المثقفين أمثال الدكتور علي الوردي وعبد الرزاق الهلالي وعزيز السيد جاسم ومظهر أطيمش وصادق محمد رضا آل طعمه ومشكور الأسدي وحميد مجيد هدو وغيرهم. توقفت عن الصدور فترة زمنية ثم عادت، وظلت تصدر حتى منتصف عام ١٩٧٣م، ثم توقفت. ومما صدر منها جاوز الـ ١٩٠ عدداً.

١٠ ــ الرائــد

مجلة أدبية تربوية عامة. أصدرها فرع نقابة المعلمين في كربلاء تولى هيئة تحريرها: عبد الجبار عبد الحسين الخضر وعدنان غازي الغزالي وشاكر عبد القادر البدري. صدر عددها الأول في تموز سنة ١٩٦٨م. وكانت تطبع بمطبعة أهل البيت في كربلاء. احتوت على بحوث مستفيضة في التربية والأدب والاجتماع، إضافة إلى ما يخص شؤون قضيتنا الكبرى فلسطين. كما نشرت دراسات نقدية هادفة وقصصاً طريفة ومسرحيات وقصائد عبّرت عن الكلمة العربية الصادقة. صدر منها ستة أعداد فقط. وقد أرّخ صدورها الشاعر السيد مرتضى الوهاب بهذه الأبيات:

ليلٌ للجهل بدا غدُهُ   وصدور (الرائد) موعده
وسيظهر من إشراقتها   نور للجهـل يـبـدده
هي للمتعلـم مدرسة   هي للمتعبـد مسجـده

ومادة التاريخ هي :

يا طيراً غنى تاريخاً   (للرايد دمت مغرده)
١٩٦٨ م

١١ ــ الحـرف

مجلة تعني بالفكر الرائد والتجربة الهادفة بشكلها المعاصر. صدر منها عدد واحد فقط وذلك سنة ١٩٦٧م. ثم توقفت عن الصدور . صاحبها محمد علي عبد عون الخفاجي.

١٢ ــ الحـرف

مجلة فكرية تربوية أدبية سنوية، أصدرتها مديرية تربية كربلاء. صدر عددها الأول سنة ١٣٨٩ هـ /١٩٦٩م. وقد أحرزت نجاحاً كبيراً، وحظت بسعة الانتشار في الأوساط التعليمية، وكان لها أعظم الأثر في الحركة الفكرية، وقد احتوت صفحاتها أبواب القصة والمسرحية والشعر والدراسات الأدبية. وكانت أعدادها الأولى تطبع بمطبعة أهل البيت في كربلاء، ثم طبعت بمطبعة النعمان في النجف. وكان يشترك في كتابتها كل من: حسين فهمي الخزرجي وشاكر عبد القادر البدري وباسم يوسف الحمداني وعبد الجبار عبد الحسين الخضر وعلي محمد الحائري وعدنان حمدان وغيرهم. وقد تبارت على صفحاتها المواهب الغنية والقرائح الخصبة والأقلام المبدعة البنّاءة. صدر من المجلد الأول للسنة الأولى ستة أعداد ضخام، أما عددها السابع فقد صدر في سنتها الثانية، ثم توقفت عن الصدور .

١٣ ــ صوت الاسلام

مجلة فكرية عامة تصدرها جمعية النهضة الإسلامية في كربلاء، رئيس تحريرها : الشيخ عبد اللطيف عبد الحسين الدارمي. صدر عددها الأول في صفر وربيع الأول سنة ١٣٩٢هـ الموافق ١٩٧٢م. وقد حيا صدورها الشاعر المؤرخ مرتضى الوهاب بقوله:

حوزة العلم أحرزتها الطفوفُ   ولها سابق الهدى والطريف
وكسا علمها الدياجير نوراً   وتجلى عنها السحاب الكثيف
وحبا روضها الربيع اخضراراً   من نمير الحيا وولى الخريف
جاهد الدارمي فيها وأبلى   بانتصار لم يعره التزييف
حين دوى صوت الهدى ارخوه (بث صوت الاسلام ـــ يمناً ـــ لطيف)
١٣٩١ هـ

وقد ساهم فيها غالبية أدباء كربلاء ومفكريها، بما نشروه من أبحاث وافية ودراسات أدبية وقصص هادفة وأخبار عامة. وظلت تصدر بانتظام نحو ثمانية أعوام. وصدر آخر عدد منها ٩و١٠ سنة ١٩٨١م، وهي تحاول أن تطور نفسها شكلاً ومحتوىً من خلال الأقلام الجديدة لمواكبة مسيرة الانسان في تطوره الحضاري، وأخيراً توقفت عن الصدور.

١٤ـ الأخيضـر

جريدة أصدرتها اللجنة الإعلامية لمهرجان الأخيضر في كربلاء. رئيس تحريرها : طالب جواد الربيعي، وسكرتير التحرير: طارق أمين الخفاجي. صدر منها عددان، أما عددها الأول فقد صدر بتاريخ ١٩٨٢/٤/٢٧م، وصدر العدد الثاني بتاريخ ١٩٨٢/٤/٢٨م. وهي جريدة مصورة طبعت بدار الحرية ببغداد. من بين المواضيع التي نشرت في العدد الأول منها (لمحات تاريخية وفنية وحضارية من حصن الأخيضر) كتبه الدكتور محمد باقر الحسيني مدير عام آثار ومتاحف المنطقة الغربية. و(الطار) موقع اثري شامخ، و(فعاليات يشهدها الأخيضر) و(لجان المهرجان) و(مفكرة الأخيضر).

أما العدد الثاني فقد اشتمل على المواضيع التالية (احتفال جماهيري كبير على فعاليات ونشاطات مهرجان الأخيضر الرابع) و(مهرجان الأخيضر عرس الانتصار وعيد كربلاء) و(كربلاء تزهو بقبابها الذهبية) و(مسجد وحصن الأخيضر عمارته وصيانته) و(في معرض المخطوطات والتحف النادرة) وغيرها.

إضافة إلى الجرائد والمجلات الرسمية المذكورة، فقد صدرت في كربلاء مجموعة كبيرة من الدوريات التي تحمل نفس الطابع، وتدعو للغرض نفسه، وهي بحجم المجلة أو الجريدة، بيد أنها لم تحصل على امتياز رسمي، لأن الامتياز يتطلب أن يكون رئيس تحريرها محامياً، ولم يتوفر لأصحاب تلك الدوريات والنشرات ذلك الشرط، وكان لها الأثر الواضح في نشر العلم والإصلاح، أي أن طابعها العام كان طابعاً دينياً توجيهياً، ما خلا (الرائد الجديد). وسنفصل القول في كل ما صدر من تلك الدوريات، حسب ما توصلنا إليه وفق تواريخ صدورها:

أ ـ أجوبة المسائل الدينية

نشرة دينية شهرية صاحبها السيد عبد الرضا المرعشي الحسيني الشهرستاني، صدرت سنة ١٩٥١م واستمرت في الصدور حتى سنة ١٩٧١م بعد أن صدر منها ٢٠ مجلداً. وكانت تحوي أبحاثاً هامة في الدين والفكر واجابات شافية لكبار العلماء على الأسئلة الموجهة إليها من كافة الأقطار العربية والإسلامية.

٢ ـ من وحي ذكرى أهل البيت

نشرة دينية أدبية تصدرها (اللجنة الدينية الأدبية) في مدرسة السليمية الدينية . صدر منها سبعة أعداد فقط إبتداء من سنة ١٩٥٧م/١٣٧٦ هـ حتى سنة ١٣٧٨هـ. ساهم في تحريرها فريق من العلماء والأدباء.

٣ ـ الأخلاق والآداب

نشرة شهرية تعني بشؤون الدين والاجتماع. أصدرها فريق من الروحانيين. صدرت سنة ١٣٧٨هـ/١٩٥٧م، ثم توقفت عن الصدور سنة ١٩٦٣م، بعد ثلاث سنوات أمضتها في خدمة الفكر الإسلامي. وكتب فيها معظم رجال الدين.

٤ ـ صوت المبلغين

نشرة دينية ثقافية أصدرها مكتب صوت المبلغين بمدرسة البقعة الدينية. صدر عددها الأول في رجب سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) ولغاية سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٣م) غير أنها لم تكمل سنتها الثانية. حرر فيها فريق من العلماء وأهل الفضل.

٥ ـ منابع الثقافة الإسلامية

نشرة دينية فكرية هادفة أصدرتها مدرسة البادكوبة الدينية سنة ١٩٦٠م. وهي سلسلة كتب كانت تصدر تباعاً من قبل كل مؤلف، وقدّمت زاداً شهياً للقراء جاء في صفحاتها التعريف التالي: (منابع الثقافة الإسلامية سلسلة كتب علمية ثقافية تبحث في الإسلام تصدر عشرة كتب في السنة ولا تصدر في شهري محرم وصفر). أما آخر عدد وجدته من هذه السلسلة هو الكتاب السادس للسنة التاسعة ١٣٨٨ هـ.

٦ ــ صوت شباب التوحيد

نشرة إسلامية أصدرتها هيئة شباب التوحيد بكربلاء، وطبعت بمطبعة أهل البيت. صدر منها ٣ أعداد فقط. ساهم فيها بعض المثقفين. وكان تاريخ صدورها ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣م).

٧ ــ ذكريات المعصومين

نشرة شهرية دينية يصدرها لفيف من الروحانيين . صدر عددها الأول في شهر رمضان سنة ١٣٨٥هـ. وكان آخر عدد صدر منها تاريخه ١٧ صفر سنة ١٣٨٩هـ. وبلغ مجموع أعدادها ٢٤ عدداً. وكانت تطبع في مطابع النجف. ساهم في تحريرها بعض رجال العلم والدين.

٨ ــ رسالة الجمعية الخيرية الإسلامية

نشرة إسلامية جامعة أصدرتها الجمعية الخيرية الإسلامية في كربلاء. رئيس تحريرها الشيخ عبد الحسن البيضاني. ظهر عددها الأول والثاني لشهري شعبان ورمضان سنة ١٣٨٦هـ. وكان مجموع ما صدر منها ستة أعداد فقط، حرر فيها فريق من شباب كربلاء المثقف. وكانت تطبع بمطبعة أهل البيت.

٩ ــ نداء الإسلام

نشرة دينية أصدرتها مدارس حفاظ القرآن الكريم بتاريخ ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧م). ظهر منها ستة أعداد فقط. ساهم في تحريرها نفر من أهل الفضل.

١٠ ــ الرائد الجديد

نشرة مركزية أصدرتها نقابة المعلمين ــ فرع كربلاء ــ ساهم في تحريرها صاحب المقال وعدنان غازي الغزالي وعبد الجبار عبد الحسين الخضر وصاحب الشاهر وشاكر عبد القادر البدري وباسم يوسف الحمداني. صدر عددها الأول في ٧ نيسان سنة ١٩٨٠م الموافق جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ، وظهر منها سبعة أعداد فقط، ثم توقفت عن الصدور.

١١ ــ العهـد

نشرة خاصة أصدرها الاتحاد العام لنساء العراق ــ فرع كربلاء بمناسبة مهرجان الأخيضر القطري الرابع. رئيسة التحرير مكارم زيني. صدر منها عدد واحد فقط وذلك بتاريخ ١٩٨٢/٤/٢٧م. يقع العدد في ٨ صفحات، والصفحتان الأخيرتان باللغة الانكليزية.

وهناك مجلات ونشرات موسمية كانت تصدرها إدارات المدارس الإعدادية والمتوسطة والإبتدائية والجمعيات الدينية في المدينة ، لا مجال لاستعراض أسمائها وتاريخها.

كشاف بأسماء المصادر

١ ــ تاريخ الصحافة العربية فيليب دي طرازي (بيروت ١٩١٣م).
٢ ــ تاريخ الصحافة العراقية عبد الرزاق الحسني (بغداد ١٩٣٥م).
٣ ــ تراث كربلاء سلمان هادي الطعمة (النجف ١٩٦٤م).
٤ ــ ديوان أبي المحاسن الكربلائي تحقيق : محمد علي اليعقوبي (النجف ١٣٨٣هـ).
٥ ــ الدليل العراقي لسنة ١٩٣٦ (بغداد ١٩٣٦م).
٦ ــ الصحافة في العراق رفائيل بطي (القاهرة ١٩٥٥م).
٧ ــ كشاف الجرائد والمجلات العراقية زاهده ابراهيم. الطبعة الثانية (الكويت ١٩٨٢م)
٨ ــ الموسوعة الصحفية العراقية فائق بطي (بغداد ١٩٧٦م).

المخطوطات

كتاب كوكب الروضة

لجلال الدين السيوطي

مصطفى الشكعة

جامعة الامارات العربية المتحدة

يمثل جلال الدين السيوطي نمطا متميزا من أنماط علماء المسلمين في القرون ما بعد الوسيطة، ونعني بها الفترة الزمنية التي حكم فيها المماليك مصر والشام والحجاز وعددا من الأطراف، هذا النمط المتعدد الثقافات، المتنوع أسباب المعرفة، الآخذ من كل علم بنصيب كبير، الضارب في كل ميدان بسهم أو سهام.

لقد اشتهر جلال الدين السيوطي بلقب الامام، وهو لقب يطلق على النابهين من علماء السنة الذين اسهموا بالاجتهاد في علوم الدين، وكانت لهم في الشريعة نظرات متميزة وفي الفقه فتاوى سليمة. غير أن نشاط السيوطي لم يقف عند العلوم الدينية وحدها من علوم قرآنية وتفسير وحديث ورواية وفقه وأصول، وإنما امتد نشاطه العلمي إلى اللغة والنحو والتاريخ والتراجم والطبقات والأدب من نثر وشعر انشاءً وابداعا، فهو والحال كذلك مفسر فقيه حافظ محدث أصولي لغوي نحوي مؤرخ أديب كاتب شاعر، ولقد ألف جلال الدين مئات الكتب في هذه الفنون، ومن ثم فهو من المكثرين في التأليف حتى أن تلميذه محمد بن علي الداوودي أحصى مؤلفاته بنحو من خمسمائة كتاب ورسالة، غير أن الأمر الجدير بالذكر أن الباحث المغربي أحمد الشرقاوي اقبال قد أصدر مؤخرا كتابا بعنوان «مكتبة الجلال السيوطي» ضمنها عناوين مؤلفاته وكتب تعريفا بكل مؤلف فاذا هي تزيد على السبعمائة.

على أن الشيء الجدير بالذكر هو أن مؤلفات السيوطي لا تصلح جميعا لأن يطلق عليها كتبا، صحيح أن بعضا من كتبه يتكون من عدة مجلدات، ولكن الصحيح أيضا أن بعض مؤلفاته تقع في صفحة أو صفحتين، وأن بعضا آخر يقع في بضع عشرة صفحة، ومن ثم وجب أن يأخذ الدارسون جانب الحذر حين يظنون ان هذا العدد الضخم من العناوين التي خلفها السيوطي تشكل جميعها ما يمكن أن يطلق عليه كتبا، وعلى الرغم من ذلك فان ما ألفه السيوطي من كتب كبيرة الحجم نفيسة المحتوى يضعه دونما جهد أو تجاوز في قائمة كبار المؤلفين المكثرين من علماء المسلمين.

إن مائدة الامام السيوطي والحال كذلك مائدة حافلة خصبة، متعددة الألوان سائغة الطعام، ومن ثم فان خاصة الدارسين والمحققين ينبغي أن يقتربوا منها أكثر وأكثر. صحيح أن عددا كبيرا من مؤلفات السيوطي قد قدم للناس محققا مطبوعا، وأن عددا آخر قدم غير محقق، فشابته المآخذ وتعددت فيه الأغلاط، ولكن الصحيح أيضا أن عددا من المؤلفات النفيسة للسيوطي لا تزال مخطوطة لم تلمسها يد، ولم يقترب منها دارس أو محقق، مع ما تضم دفاتها من علم نافع ومعرفة أصيلة وثقافة عريقة. وكتاب «كوكب الروضة» يعتبر واحدا من تلك المخطوطات التي تنطبق عليها تلك الصفات من نفع وأصالة وعراقة.

إن كتاب «كوكب الروضة» ــ على ما سوف نفصل بعد قليل ــ مختص بالتعريف بجزيرة الروضة في نيل القاهرة تعريفا شموليا من النواحي التاريخية والجغرافية والأدبية وكل ما له صلة بها من داخلها أو من حولها، كالقلاع والقصور والجوامع والمصانع

والبساتين والأزاهير والمقياس والنيل ومواسم فيضانه أو غيضه، وكسر الخليج والاحتفالات به، والاسماك والسفن، وغير ذلك مما يتصل بالجزيرة أو النيل من قريب أو بعيد، شعرا ونثرا على مسيرة تاريخ جزيرة الروضة حتى عصر السيوطي.

مخطوطات الكتاب :

إن عددا غير قليل من «مخطوط كوكب الروضة» موفور في المكتبات العامة والخاصة في العالم العربي وتركيا وبعض الدول الأوربية، ولقد وقفنا على تسع نسخ منها تختلف تواريخ نسخها بين القدم والحداثة، كما يتفاوت خطها بين الحسن والرداءة ويتغاير نقلها بين الدقة والاهمال، ويتراوح عدد ورقاتها بين الطول والقصر تبعا لحجم الورق المستعمل ومساحته.

وقد يجمل بنا أن نشير في سرعة وايجاز إلى تلك النسخ التي سعينا للاطلاع عليها واقتنينا بعضاً منها لمكتبتنا الخاصة :

— المخطوطة رقم ٢٦٣ تاريخ، نسخة دار الكتب المصرية، وتقع في مائتين واحدى وسبعين ورقة من القطع المتوسط ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠٠٦ هـ.

— المخطوطة رقم ٥٠٣٧ تاريخ، دار الكتب المصرية، وتقع في مائة وثمان وثمانين ورقة من القطع الكبير ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠٠٩ هـ.

— المخطوطة رقم ٢٦٤ تاريخ، دار الكتب المصرية، وتقع في مائة وأربع وسبعين ورقة من القطع الكبير، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٢٧٢ هـ.

— المخطوطة رقم ٥٥٤ تاريخ، المكتبة التيمورية، وتقع في ثلاثمائة وأربعين ورقة من القطع الصغير، وهي رديئة الخط كثيرة الأغلاط، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠٢٤ هـ.

— المخطوطة رقم ٥٢١ تاريخ، المكتبة التيمورية، وتقع في مائتين وسبع عشرة ورقة من القطع المتوسط، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٢٧٣ هـ.

— المخطوطة رقم ١٢٠٥ تاريخ، المكتبة التيمورية، وهي ثلاثمائة وستون ورقة من القطع الصغير وقد تلف عدد من صفحاتها الأولى وضاع عدد من صفحاتها الأخيرة ولا يعرف تاريخ كتابتها.

— المخطوطة رقم ٣٠٦ تاريخ، رواق الشوام بالأزهر، وتقع في مائتين وخمس وسبعين ورقة من القطع المتوسط، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠٣٣ هـ.

— المخطوطة رقم ٣١٤ تاريخ، مكتبة الأزهر، وتقع في مائتين وست وخمسين ورقة من القطع المتوسط ، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٠١٠ هـ.

— المخطوطة رقم ٧١٣ طوبقبو سراي باستامبول، وتقع في مائتين وثمان وسبعين ورقة من القطع المتوسط وهي بدون تاريخ.

على أن الشيء الذي يدعو إلى الأسف الشديد هو أن هذه النسخ جميعا مليئة بالأخطاء التي كان سببها أمّيّة النسّاخ وجهلهم بالقراءة الصحيحة أو القيام بعملية النسخ بشكل عفوي عشوائي دون إعمال للعقل أو تنبيه للفكر.

إن صفحة واحدة من صفحات النسخ التسع التي أسلفنا الاشارة إليها لا تكاد تخلو من بضعة أخطاء، وأحيانا تتزاحم الأخطاء في صفحة واحدة لتصير بضعة عشر خطأ، وأحيانا أخرى لا يستطيع الناسخ قراءة لفظ فيترك مكانه مساحة بيضاء فارغة. وان بعض هذه الاخطاء مما يصعب تصويبه حتى مع مقابلة النسخ بعضها ببعض، ومناط التصويب في هذه الحالة يكمن في الخلفية الثقافية للقارىء أو المحقق، يستمد بعض أسبابه من منطق تركيب الكلمة ومعقولية السياق، وها نحن نسوق مثالا للأخطاء جمعناها بشكل عشوائي من خمس صفحات متتالية من واحدة من أفضل النسخ المخطوطة:

الأشار وصحتها الآثار. الحين وصحتها الحسين. أي وصحتها ابن. النزير وصحتها الزبير. بيلوا وصحتها يبدو. انساد الحي وصحتها نساء الحي . زابه وصحتها رأيه. معددات القرآن وصحتها مفردات القرآن. العفني وصحتها العقبى. يدي وصحتها بيتي في الحديث الشريف ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة. في موحولها وصحتها فيما حولها. السما وصحتها المسماة. برايك وصحتها يريك. فعوبت في ذلك وصحتها فعوتب في ذلك. الأبيج وصحتها الأريج.

هناك صعوبة أخرى تصادف القارىء والمحقق على مساحة كل النسخ المتاحة في المخطوطة، تلك هي أن اكثر القصائد والمقطوعات الشعرية قد كتبها النساخ موصولة الأبيات وكأنها نثر وليست شعرا،

ذلك أن النساخ لم يستطيعوا التفرقة بين الشعر والنثر، فاختلط الامر عليهم خاصة وأن الكتاب يضم كثيرا من النصوص النثرية في اطار رسائل مرصعة ومقامات مصنوعة ومحاورات مسجوعة، ناهيك عن تشويه النصوص الشعرية التي تحتاج الى كبير مراجعة، والخلط بين أسماء الشعراء الذين هم من الكثرة بمكان ومن الوفرة بمقدار.

ولكن ينبغي التنبيه إلى أن أكثر النسخ انضباطا من حيث شموليتها بغض النظر عن الأغلاط التي نبهنا إليها هي المخطوطة رقم ٢٦٤ تاريخ المحفوظة بدار الكتب المصرية لأنها منقولة عن المخطوطة التي استنسخها لنفسه محمد بن علي بن أحمد الداوودي تلميذ السيوطي من نسخة شيخه سنة ٨١٠ هـ أي في حياة السيوطي وباذن منه، وذلك قبلَ وفاته بعام واحد.

منهج الكتاب ومصادره:

الامام السيوطي صاحب دربة في التأليف وخبرة في التصنيف فهو من أوفر علماء المسلمين تأليفا ومن أخصبهم انتاجا، وتتسم كل كتبه بدقة التنظيم وسلامة المنهج، وإن الذي يراجع كتبه في اللغة والنحو مثل المزهر، وهمع الهوامع والاقتراح، او في التاريخ مثل حسن المحاضرة ، وتاريخ الخلفاء، أو في الطبقات مثل بغية الوعاة وطبقات المفسرين وطبقات الحفاظ، او في الفقه مثل الاشباه والنظائر وغيرها من كتبه الأخرى سوف يجد عالما حاذقا فيما يكتب ، متقنا لما يؤلف ، صاحب منهج متسق وخطة مدروسة.

فاذا ما كان الأمر متعلقا بكتاب «كوكب الروضة» فان الاتجاه في هذه الزاوية يكون مختلفا بعض الشيء، بمعنى ان المؤلف لم يقسم هذا الكتاب إلى ابواب او فصول وهو المنهج الذي الزمه المؤلفون ولا يزالون ومن بينهم السيوطي نفسه ــ ولكنه اكتفى بعناوين جانبية لكل موضوع من موضوعات الكتاب، تلك الموضوعات التي تتراوح بين الطول والقصر على الرغم من كثرتها.

أما من الناحية الموضوعية فان السيوطي كان ملتزما المنهج العلمي في كتابه من ناحيتين أساسيتين: الناحية الأولى وهي تتعلق بايراد كل ما يتصل بجزيرة الروضة من قريب أو بعيد من خلال دراسة أصيلة جادة ذات شقين أحدهما تاريخي والآخر أدبي وقد وشحهما بين الحين والآخر بمسحة لغوية أو فقهية حديثية .وليس ذلك بمستغرب من عالم كالسيوطي فقد كان الرجل لغويا كبيرا، وفقيها عظيما، وحافظا ثقة، بل ربما تجاوز السيوطي هذه الميادين جميعا فأضفى على الكتاب مسحة جغرافية وأخرى أثرية معمارية في بعض المناسبات، فضلا عن الوجه الحضاري الذي يوشي به المؤلف كتابه من أوله الى آخره.

من الملامح اللغوية في الكتاب ما ذكره السيوطي عن لفظ «الروضة» ومعناها ولغاتها والامثال التي قيلت فيها وأشعار العرب في ذلك. وقد استهل السيوطي كتابه بهذا الملمح اللغوي، بل إنه اتخذ عنوان الكتاب من واقع الاستعراض اللغوي للفظ الروضة، إذ يقول : «وفي الصحاح وغيره : كوكب الروضة نورها» ويستطرد قائلا: «وبه سميت هذا الكتب»، ولقد بدا هذا الملمح بشكل جزئي في المقامة البحرية التي ضمنها هذا الكتاب مع عدد آخر من مقاماته الأدبية ورسائله الفقهية.

أما ملامح العالم الفقيه المحدث فهي أكثر وضوحا من ملامح العالم اللغوي، لأنها احتلت مساحة أكبر في مواطن متعددة من فصول الكتاب وصفحاته، فقد اهتم السيوطي بحكم إقامة فريضة الجمعة في الجزيرة، وهل تعتبر الجزيرة بلدا مستقلا بذاته أم لا، واستعرض السيوطي الأمر في ضوء الاحكام الفقهية في بحث طويل انتهى إلى صحة اقامة الجمعة بها لأنها بلد مستقل عن مدينة الفسطاط، ولأنها صارت في عهد العبيديين (الفاطميين) مدينة عامرة لها وال وقاض، وأنه كان يقال : مصر والقاهرة والجزيرة.

ومن الملامح الفقهية أيضا رسالته «الجهر في منع البروز على شاطىء النهر» وسبب وضع الرسالة أن أحد أصحاب البيوت في الجزيرة قد برز ببناء بيته على شاطىء النهر، فأصدر السيوطي فتواه ببطلان ذلك مستندا على آراء الأئمة الأربعة وفقهاء المذاهب، وذكر نقول الشافعية والمالكية والأحناف والحنابلة، ولم يقف الأمر بالسيوطي عند اصدار فتواه من خلال رسالته تلك، بل عاد فنظم الفتوى في قصيدة طويلة اسماها «النهر لمن برز على شاطىء النهر».

ومن الطرائف الفقهية أيضا التي ضمنها السيوطي كتابه «كوكب الروضة» موضوع اباحة افطار الصائم المسافر في السفن ضمن فصل طريف عنوانه : ذكر المراكب والسفر، ولقد افتى السيوطي بافطار المسافر بحرا بالسفينة، ثم انتهز المناسبة فأورد الحديث الشريف الخاص بركاب السفينة التي حاول أحدهم فتح

ثقب فيها وضرورة أن يضرب المسافرون على يديه حتى لا يغرقوا جميعا.

وحول حرمة هدم المساجد وقطع الشجر المثمر والنخل يورد السيوطي خبرا عن الملك الصالح أيوب أنه لما بنى القلعة بالروضة قطع بن الموضع الذي أنشئت فيه ألف نخلة مثمرة كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظره وطيب طعمه ، وخرب قصر المختار وقصر الهودج، وهدم ثلاثة وثلاثين مسجدا، ثم عاد الملك وأمر بهدم مسجد كبير لكي يبنى مكانه قاعة فخمة، وبالفعل هدم المسجد وعمرت القاعة مكانه وكملت، ثم قدم الفرنج على الديار المصرية وخرج الملك الصالح مع عساكره اليهم فتوفي بالمنصورة، فلم يدخل القاعة حيا، وجعل جثمانه في مركب وأتى به إلى الروضة، فوضع في تلك القاعة التي بنيت مكان المسجد مدة إلى أن بنيت له التربة التي دفن بها. ولعل السيوطي بايراده الخبر على هذا النحو كان يحذر الحكام من العدوان على بيوت الله، مذكرا اياهم بسوء العاقبة. على أن السيوطي لم يكتف بذلك وإنما لجأ إلى تشجيع الملوك والحكام على بناء المساجد فأعطى عناية خاصة لأخبار ركوب السلاطين إلى الروضة لبناء المساجد وتعميرها.

والسيوطي كحافظ محدث لا يدخر وسعا في ذكر الاحاديث النبوية الشريفة كلما كانت المناسبة تقتضي ذكرها أو تسمح به، فقد أورد الاحاديث التي رويت عن الخضرة والماء والوجه الحسن وأورد جميع الأحاديث التي ذكرت فيها عبارة «روضة من رياض الجنة» كما أورد عددا من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في النخيل والتمر، كما ذكر الروايات المأثورة عن المفسرين ورجال الحديث حول القاء موسى عليه السلام في النيل، بل إن السيوطي تجاوز ذلك كله — وهو في ذلك منسجم مع تكوينه متسق مع فكره — فأورد أنموذجين لخطبتين في الاستسقاء في مناسبة نقص النيل ثم زيادته سنة ٨٢٣ جعل احداهما بصيغة الاستغفار والثانية بصيغة التكبير.

ومن الملامح الجغرافية في الكتاب تلك المعلومات التي ذكرها السيوطي حول نهر النيل وهو يطلق عليه «سيد الانهار» وهو لقب صادق، لأن النيل في انتظامه في السير وانضباطه في مواعيد الفيضان وما يهديه للأراضي التي تقع في حوضه من الخصب والعطاء يجعل لقب السيادة الذي خلعه عليه السيوطي في مقام من الصدق ومكانة من الدقة، ومن الطريف أن صديقنا العالم الجغرافي الاستاذ الدكتور محمد محمود الصياد قد اصدر كتابا عن نهر النيل يحمل ذلك العنوان.

إن السيوطي أفرد حديثا طويلا للنيل جعل عنوانه: ذكر كلام بعض الصحابة والتابعين في منبع النيل ومخرجه وزيادته، وأورد فيه كلاما لطيفا لعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، ووهب بن منبه، وكعب الاحبار، وعلى سبيل المثال أن معاوية بن أبي سفيان يسأل كعب الأحبار قائلا: هل نجد لهذا النيل خبرا في كتاب الله؟ فيجيب كعب الأحبار قائلا: أي والذي فلق البحر لموسى إني لأجده في كتاب الله يوحى إليه في كل عام مرتين، يوحى اليه عند جريه: إن الله يأمرك أن تجرى، فيجري ما كتب الله له، ثم يوحى اليه بعد ذلك : يا نيل عد حميدا.

ويسوق السيوطي في مضمار حديثه عن النيل أخبارا كثيرة، بعضها يتسم بالسذاجة أو الطرافة، وبعضها الآخر يتميز بالصدق ويتمشى مع العلم الحديث المنبثق من الاكتشافات الجغرافية الحديثة.

إن عددا كبيرا من الأخبار الساذجة التي ساقها السيوطي منسوبة إلى مصادرها، تربط بمنابع النيل، فمن هذه الأخبار ما ذكره الجاحظ في كتاب الأمصار أن كلا من نهري السند والنيل ينبعان من موضع واحد، واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما وكون التمساح يعيش في كل منهما، ومن ذلك أيضا ما نقله السيوطي عن ابن عبد الحكم أن عبدالله بن عمر قال: نيل مصر سيد الأنهار — وهو القول الذي استهل به السيوطي الكتاب وذكرناه قبل قليل — سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، فاذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر ان يمده فأمدته الأنهار بمائها وفجر الله له الأرض عيونا فاذا انتهت جريته إلى ما أراد الله، أوحى إلى كل ماء ان يرجع إلى عنصره. وينقل السيوطي من كتاب جزيرة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردي أنه ليس في الدنيا نهر أطول من نهر النيل لأنه مسيرة شهرين في الاسلام وشهرين في الكفر وأربعة شهور في الخراب ومخرجه من جبل القمر خلف خط الاستواء.

على أن السيوطي يأتي من الجانب الآخر بمعلومات دقيقة عن النيل نقلا عن قدامة بن جعفر والشريف الادريسي ابتداء من منبعه وانطلاقا معه في مساره الطويل عبر الأقطار المختلفة حتى يصب في

بحر الروم وهو ما نعرفه في العصر الراهن بالبحر الابيض المتوسط.

وينطلق السيوطي في الحديث عن الأحياء التي تعيش في النيل فيذكرها بشيء من التفصيل من حيث وصفها وفوائدها ومضارها واستطبابات بعضها وما روى حولها من أخبار ونوادر وما قيل فيها من طرائف وأشعار، فيذكر التمساح والسنقور والرعاد وفرس البحر وكلب البحر وشيخ البحر، وهذا الأخير يكون — حسب رواية السيوطي — على صورة آدمي وله لحية طويلة ويكون بناحية دمياط، وهو مشئوم، فاذا ظهر في مكان ما دل على القحط.

ولقد اهتم السيوطي في كتابه بذكر الجوانب المعمارية والمباني الأثرية في الجزيرة مثل الجوامع والمدارس والقصور والقلاع فتحدث عن كل واحد من هذه الآثار حديثا يضفى ملمحا أثريا على الكتاب، ولعل من الأمور الطبيعية في هذا المقام ألا يهمل المؤلف الحديث عن الجوانب الأثرية في الجزيرة طالما أن ذلك مرتبط بها ارتباطا عضويا حسب التعبير الحديث.

فمن الجوامع التي بنيت في الجزيرة يذكر السيوطي جامع المقياس، وجامع غبن — وكان غبن هذا واحدا من خدم الحاكم بأمر الله الفاطمي — وجامع الرئيس، وجامع الفخر نسبة إلى القاضي فخر الدين ناظر الجيش ايام الناصر محمد بن قلاوون ويعرف ايضا بالمقسى، وجامع الأشرف قايتباي. ومن المدارس ذكر السيوطي المدرسة التقوية وكانت خاصة بتعليم المذهب الشافعي، والمدرسة العزية التي بناها عز الدين التركاني، ومن القصور ذكر السيوطي قصر المختار الذي بناه الاخشيد ليفاخر به قصور بغداد، وقصر الهودج الذي بناه الخليفة الفاطمي الامر لمحبوبته البدوية التي عافت سكنى قصور القاهرة، وقصر المنتهى الذي كان يتردد عليه الخلفاء الفاطميون، وقصر ومنتزه الروضة الذي بناه الأفضل ابن أمير الجيوش وبه سميت الجزيرة. كذلك ذكر السيوطي القلعة التي بناها الصالح أيوب ومراحل بنائها ثم هدمها ثم بنائها مرة أخرى وما قد عاصرت من أحداث أو شاهدت من وقائع، كما ذكر حصن الطولونيين بالجزيرة وجاء بقصيدة فريدة رثاهم بها سهيل بن العامري.

إن الأمر الذي لا شك فيه أن السيوطي عمد في كتابه هذا إلى الإطراف في مواضع كثيرة منه، مع الإكثار من ذكر النوادر اللطيفة والأخبار الطريفة مما لا يتسع المقام هنا لذكره أو التمثيل لبعضه، ولكن يجب ألا نهمل تعرضه بالحديث عن كل ما يمت إلى الجزيرة بسبب أو أسباب، ويرتبط بها بوشيجة أو وشائج مثل حكم صلاة الجمعة في الجزيرة وقد سبقت إلى ذلك الاشارة، أو بروز المباني على شاطىء النهر، وقد سبقت الاشارة أيضا إلى ذلك فأصدر فتواه في المسألة في شكل رسالة لم يلبث أن صاغها في منظومة، كما وصف احتفالات المصريين بعيد الغطاس من عهد المأمون إلى عهد الفاطميين لأنها كانت تقام أمام الجزيرة. ولما كان خليج أمير المؤمنين الذي حفر في عام الرمادة بين مدينتي مصر والقلزم يقع منبعه مواجها للجزيرة فقد تحدث عنه الكتاب حديثا مفيدا، ولما كانت شطآن الجزيرة حافلة بالمراكب والسفن الراسية على جانبها فان السيوطي تناول السفن بحديث لطيف فأورد الآيات القرآنية التي ذكرت الفلك وبعض الأشعار التي قيلت في السفن مع ذكر بعض الاحداث الطريفة في هذا المقام، بل إن السيوطي لم يكتف بذلك جميعا، وإنما غلبت عليه طبيعته الفقهية فتعرض لقضية الصيام والافطار وحكمها على المسافر في السفينة.

وحيثما جرى الماء توفر السمك ونشط الصيادون ، ونهر النيل الذي تتوسطه الجزيرة حافل بأنواع الأسماك الجيدة ومن ثم فان السيوطي يفرد فصلا قصيرا للحديث عن فوائد صيد السمك وأنواع سمك النيل ويتمثل في هذا المقام بعدة نصوص شعرية قيلت في صياد وفي شبك الصيد وفي السمك نفسه. ولا يكتفي السيوطي بالنماذج الشعرية وإنما يردد نص رسالة نثرية لطيفة كتبها فخر الدين بن مانس إلى البدر البشتكي وقد صاد حوتا عظيما بالروضة.

ولما كانت السباحة ضرورية لمن يعيشون على مقربة من الماء فان السيوطي لم يتردد في الحديث في كتابه عن السباحة وشمر عن قلمه وكتب رسالة أدبية دينية اجتماعية لطيفة أسماها «الباحة في ذكر السباحة» استهلها بالحديث الشريف الذي توجه به أبو رافع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم سائلا: يا رسول الله، أللولد علينا حق كحقنا عليه؟ قال: «نعم حق الولد أن يعلمه (أي ابوه) الكتابة والسباحة والرمي وأن يورثه طيبا».

ومن المعروف أنه لا تكاد تخلو حديقة أو روضة من الذباب والبعوض، كما أن منازل الطبقة الوسطى آنذاك لم تكن تخلو من البراغيث، ولذلك فان السيوطي يورد نصوصا طريفة عن ناموس

الروضة وبراغيثها، ويمضي فيتحدث عن بعض الأطراف غير المسكونة من الجزيرة «كالخرطوم» والمنيل وهو محلة لا تزال معروفة باسمها إلى يومنا هذا، بل إن السيوطي يتجاوز أحياء الجزيرة وأطرافها إلى الحديث عن أقرب الأحياء إلى الجزيرة من شاطئها الشرقي، وأعني بذلك دار النّحاس وهو فيما نعتقد الحي الذي كان يعرف إلى عهد غير بعيد بحي «دير النحاس».

إن ثمة عنصرا هاما نريد التركيز عليه ولفت الأنظار اليه، وهو أن السيوطي إذا كان قد استهدف من تأليفه «كوكب الروضة» أن يجعل منه مصدرا تاريخيا أدبيا للجزيرة فانه لم يكن من الجمود بحيث وقف عند الاخبار التاريخية المحدودة والاستشهاد بالنماذج الأدبية المتنوعة، وإنما كان من سعة الأفق التاريخي وعمق الحس الأدبي ورجاحة النظرة الثقافية بحيث استطرد في نطاق التزامه بالمنهج ما كان الاستطراد نافعا غير ضار، وتوسع في ايراد النص والخبر ماكان التوسع بريئا من شبهة الاضرار بالكتاب أو التقليل من قيمته، ولعله في هذا الطراز من التأليف أقرب ما يكون إلى الجاحظ في عدد من ذخائره النفيسة.

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الأساس الثاني لكتاب «كوكب الروضة» من الناحية المنهجية كان علينا أن نركز اهتمامنا على المصادر التي استعان المؤلف بها ورجع إليها في تحصيل مادته العلمية.

إن الحقيقة التي لا مراء فيها أن السيوطي يعتبر من أكثر المؤلفين أمانة من حيث نسبة كل خبر الى مصدره وكل معلومة الى صاحبها، لقد عابه في ذلك كثير من الدارسين فقالوا إنه مجرد ناقل مصنّف، وأطراه للسبب نفسه فريق آخر من الباحثين — ونحن منهم — فقالوا إنه عالم أمين. وحتى لو صح ما ذهب إليه الفريق الأول لكان مذهبهم في جانب السيوطي وليس صده، لأن السيوطي بذكره مراجعه تلك قد وقف بنا على عدد كبير من الكتب، لولاه ما سمعنا بها ولا وصلت أسماؤها إلى آذاننا، تلك واحدة، وأما الثانية فانه قد نقل لنا مادة علمية ثمينة في هذا الكتاب وفي غيره من كتبه الأخرى الكثيرة، من كتب وصلت إلينا أسماؤها ولم تصل إلينا مادتها.

ومهما كان الأمر فليس الموقف هنا مخصصا لمحاسبة السيوطي ونقده سلبا أو ايجابا، وإنما الذي نهدف اليه هو التنبيه الى المصادر التي اغترف منها مادة كتابه — وهي كثيرة من حيث العدد — متنوعة من حيث الموضوع، نفيسة من حيث القيمة. إنها من حيث العدد تقل قليلا عن المائة مرجع ومصدر، ومن حيث الموضوع تتنوع بين التاريخ والخطط والاثار والطبقات والتراجم والسير والتفسير والفقه والسنن والأصول والرحلات والأقاليم والحيوان والأدب ودواوين الشعر ومجموعات النثر، هذا فضلا عن كتب ذات موضوعات متنوعة، ولأن موضوع الكتاب هو جزيرة الروضة، والجزيرة بدورها قطعة من أرض مصر، فان عدداً كبيرا من مراجع السيوطي ينتظم تحت قائمة الكتب التاريخية والأدبية التي اهتمت بتاريخ مصر وآدابها فضلا عن كتب اللغة والفقه وكتب السنن.

وربما كان من المفيد أن نذكر جانبا من الكتب التي رجع إليها السيوطي في كتابه واستعان بها في تأليف كوكب الروضة، أو أشار إلى بعضها في معرض سوقه لمادة كتابه، وهذه الكتب هي:

خطط مصر للقضاعي، عجايب مصر للمؤرخ نفسه، تاريخ مصر لابن ميسر، فتوح مصر لابن عبد الحكم، تاريخ مصر لابن يونس، أخبار مصر وعجائبها لابراهيم بن وصيف شاه، تاريخ الدواوين لابن مماتي، الخطط للمقريزي، السلوك له أيضا، اغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي سجع الهديل فيما جرى من النيل لشهاب الدين بن أبي حجلة، انباء الغمر بابناء العمر لابن حجر العسقلاني، تاريخ مصر للمسيحي، أخبار النوبة لعبدالله بن أحمد ابن سليم الأسواني، مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، أخبار الزمان للمؤلف نفسه. تاريخ بغداد للخطيب، الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة، تاريخ ابن الجوزي، كتاب العبر للذهبي، حسن السيرة في بناء الحصن بالجزيرة لأبي عمرو عثمان النابلسي، الكامل لابن الأثير،تاريخ القرطبي، كتاب الأمصار للجاحظ،سجع الهديل للتيفاشي، الطبقات لابن سعد،الدرر الكامنة لابن حجر، الحلي لابن سعيد، إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل لابن المتوج، كتاب الكمايم لابن أبي سعد، الخراج لقدامة بن جعفر، من دخل مصر من الصحابة لمحمد بن الربيع الجيزي، أعياد الفرس لحمزة بن علي الأصبهاني، جزيرة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي، صورة الأرض لابن حوقل، كتاب الفلاحة لابن وحشية، عجائب المخلوقات للقزويني، فض الختام عن التورية والاستخدام لصلاح الدين الصفدي،

التذكرة لنفس المؤلف، الروضة للنووي، الترتيب لأبي العباس أحمد بن مطرف، عمل من طب لمن حب للزركشي، التنبيهات للقاضي عياض، حلية الأولياء للأصبهاني، أدب القضاء للغزي، تفسير الطبري، تفسير ابن أبي حاتم، الموطأ للامام مالك، المسند للامام أحمد، الأدب المفرد للبخاري، الصحيح للبخاري، الصحيح لمسلم، المستدرك للحاكم، المدخل لابن الحجاج، السنن لأبي داوود، معجم الطبراني، معجم شرف الدين الدمياطي، رياض الصالحين للنووي، شعب الايمان للبيهقي، الفتاوى لابن الصلاح، ذم الملاهي لابن أبي الدنيا، الطب النبوي لابن السني، الطب النبوي لأبي نعيم، التهذيب للبغوي، شرح المنهاج للدميري، شرح المنهاج للزركشي، شرح المنهاج للسبكي، الروضة في فقه الشافعية لمحيي الدين النووي، جامع الأمثال لابي علي أحمد بن اسماعيل القمي، الأمثال لابي عبيد، الكامل للمبرد، الروضة للمبرد، الصحاح للجوهري، مفردات القرآن للراغب الأصبهاني، الأمالي للزجاجي، المجمل للزمخشري، المحكم لابن سيده، شرح المقامات لسلامة الأنباري، شرح المعلقات لأبي جعفر النحاس، ربيع الابرار للزمخشري، الروضة في النحو لأبي عبدالله محمد بن علي الحلي، روضة الحكام لشريح الروياني، روضة الناظر ورياض الخواطر لزكي الدين بن أبي الفتح النابلسي الشاعر، روضة الأزهار في شعراء مصر للرشيد بن الزبير الأسواني، روضة المحبين للشيخ شمس الدين بن القيم، الروض الأنف للسهيلي، الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف للفيروز ابادي، روض الآداب للشهاب الحجازي.

تلك غالبة المصادر التي اعتمد السيوطي عليها أو أشار اليها وهو يكتب «كوكب الروضة» وهي جميعا من النفاسة بمكان، ولكن عددا كبيرا منها لسوء الطالع الذي منيت به أمتنا قد طواه الزمان، وصوحت به الأيام، وفقدناه بين الكثير الذي ضاع من تراث الأباء وكنوز الأجداد.

مادة الكتاب وموضوعاته :

إن «كوكب الروضة» طبقا لما استهدفه السيوطي من تأليفه كتاب تاريخ وأدب، تناول جميع ما اتصل بجزيرة الروضة في هذين الحقلين من حقول المعرفة الموصولة الأسباب بتلك الجزيرة من قريب أو بعيد، فقد سكنها السيوطي أكثر من عشرين سنة وأحبها وارتبط بها بحيث لم يكن يفارقها أو يعبر الى الشاطىء الآخر إلا نادرا، ومن ثم كانت له سكناً بالمعنيين المادي والعاطفي لكلمة «السكن» فألف عنها ذلك الكتاب وفاء منه لتلك البقعة الجميلة من أرض مصر، ولم يدخر وسعا حتى في التأنق في اختيار عنوانه، وهو الكتاب الوحيد الذي ألفه باحث ــ فيما نرجح ــ عن تلك الجزيرة التي لا تزال حتى أيامنا هذه تحمل مسحة من السحر وسمة من الجمال على الرغم مما كابدته مصر المعاصرة من تحطيم وتمزيق وتشويه.

يسجل المؤلف في مقدمة الكتاب الغاية التي سعى إليها بتأليفه «كوكب الروضة» فيقول بعد عبارات من التسبيح والاستهلال بآيات من الكتاب العزيز وعدالله فيها الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات: «هذا مجموع حسن في تاريخ جزيرة مصر المسماة بالروضة، يشتمل على روائع الأخبار، وبدائع الأسجاع والأشعار، سميته «كوكب الروضة».

وإذا كان موضوع الكتاب هو التاريخ والأدب من نثر وشعر، فان المتصفح له يجد المادة الأدبية قد طغت على المادة التاريخية طغيانا واضح القسمات، ولكن لا بأس في ذلك ما دام المؤلف قد سجل اهتمامه بالمادتين، كما أن المتفق عليه في المنهج التاريخي السليم أن الأدب بشقيه من نثر وشعر يعتبر مصدرا أساسيا من مصادر المادة التاريخية، وهو أمر مسلم به. فكثيرا ما وقف المؤرخون عند واقعة بعينها استغلق التعرف على دقائقها واستبهمت بعض جوانبها، ثم لا يلبث نص من النثر أو قصيدة من الشعر أن يوضح ما استغلق فهمه ويبين ما استبهم من الأمر.

المادة التاريخية :

يبدأ السيوطي بالحديث عن تاريخ جزيرة الروضة مشيرا إلى موقعها فيقول نقلا عن المقريزي : «إعلم أن الروضة تطلق في زماننا على الجزيرة التي بين مدينة مصر ومدينة الجيزة وعرفت أول الاسلام بالجزيرة، وجزيرة مصر، ثم قيل لها جزيرة الخضر، وعرفت بالروضة من زمن الأفضل بن أمير الجيوش إلى اليوم».

ولقد لعبت هذه الجزيرة دورا متميزا أثناء الفتح الاسلامي، ذلك

أن الروم ظلوا متحصنين بها محاولين الصمود في مواجهة الجيش الاسلامي بقيادة عمرو بن العاص الذي ضرب حصارا حولها، ثم لم يلبث المقوقس وفلول جيشه أن لاذوا بالفرار، فخرب عمرو بعض أبراجها وأسوارها واستمرت على تلك الحال إلى أن قام أحمد بن طولون بتعمير حصونها سنة ٢٦٣ هـ. ويعمد السيوطي إلى الوقوف غير قليل عند ذلك الحوار التاريخي الهام الذي جرى بين المقوقس وبين عمرو، وقد حاول المقوقس من خلاله تخويف المسلمين وأن يفت في عضدهم حتى يعودوا أدراجهم من حيث جاءوا، ثم ذكر الردود الحاسمة التي تلقاها المقوقس من عمرو حتى كتب الله النصر للمسلمين.

ويذكر السيوطي أن الجزيرة كانت متصلة بالجيزة بجسر، وبالفسطاط بجسر آخر، وكان من سكن الجيزة من الصحابة يعبرون يوم الجمعة الجسر إلى الجزيرة ثم يعبرون الجسر الآخر من الجزيرة إلى الفسطاط ليحضروا الصلاة الجامعة مع عمرو بن العاص في مسجد الفسطاط، ويذكر السيوطي أن ألف صحابي قد دخلوا مصر مع عمرو وبعده، وكان منهم مائة ممن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، ويقرر أن عددا منهم قد اختط دورا بالجزيرة.

ولما كانت الجزيرة قد صارت مركزا لبناء السفن منذ عهد مبكر، وعلى وجه التحديد سنة ٥٤ هـ، فقد تابع السيوطي تاريخ هذه الصناعة التي استمرت الجزيرة مركزا لها حتى كان عصر الأخشيد فانتقلت سنة ٣٢٥ هـ إلى ساحل مصر — أي ساحل النيل على الفسطاط — وبنى الأخشيد آنذاك القصر والبستان اللذين عرفا بالمختار.

ثم عادت صناعة السفن مرة أخرى إلى الجزيرة في وقت لم يذكره السيوطي، إلى أن جاء عام ٥١٦ فانتقلت الصناعة بأمر من المأمون البطائحي الوزير إلى مراكز الصناعة القديمة بساحل مصر، وينقل السيوطي من ابن ميسر قوله: «كانت جميع مراكب الأساطيل ما تنشأ إلا بالصناعة التي بالجزيرة، فأنكر المأمون الوزير ذلك، وأمر أن يكون أنشاء الشواني وغيرها من المراكب النيلية الديوانية بالصناعة». هذا وقد تحدث السيوطي في عديد من صفحات كتابه عن الأسطول النيلي، واصفا سفنه معددا أنواعها، مهتما كل الاهتمام بتدريباتها بالذخيرة الحية طبقا للتعبير الحديث، هذا فضلا عن الرحلات السلطانية على متنها.

ويتناول السيوطي تاريخ ملكية الجزيرة في فصل لطيف كان محوره الأساسي منصرفا إلى المدرسة التقوية — نسبة إلى الملك تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب — فقد كانت الجزيرة ملكا لبيت المال، وكان الملك تقي الدين سالف الذكر قد اشترى ما يسمى منازل العز وجعلها مدرسة للفقهاء الشافعية، فرأى بعد ذلك أن يشتري الجزيرة جميعها، وقام بوقفها على المدرسة المذكورة سنة ٥٠٦ ولقد ظل السيوطي يتابع تاريخ المدرسة ومن ولى أمرها من القضاة والمدرسين، كما تابع ما صارت إليه ملكية الجزيرة بعد أن ضاعت وثيقة الوقفية فتملكها بعض الناس بوضع اليد ثم عاد بيت المال فاستولى عليها.

الطريف في هذا الموضوع أن السيوطي — كفقيه مؤرخ — يتابع تاريخ ملكية الجزيرة من وقف واستيلاء واعادة وقف ونزع ملكية وغير ذلك من التطورات التي مرت بالجزيرة والوقفية حتى زمانه، ولقد طلب إليه أن يكتب فتوى في هذا الشأن ولكنه اعتذر بسبب تركه الافتاء ثم عاد فقال: لو أفتيت لأوضحت القضية مفصلة ولأعدت الوقف وثبته على المدرسة التقوية.

كانت قلعة الجزيرة أو قلعة الروضة تمثل جانبا كبيرا في تكوين الجزيرة، كانت كذلك قبل الاسلام وابان الفتوح طبقا لما بيناه في مستهل هذا الفصل، ثم كانت ذات خطر واهتمام حين بناها الملك الصالح أيوب على النحو الذي أشرنا إلى جانب منه قبل قليل، ثم ما كان من أمرها هدما ثم اعادة بناء في عهد السلطان بيبرس وتوزيع أبراجها على كبار المماليك. لذلك فقد أولى السيوطي القلعة كثيرا من الاهتمام إلى المدى الذي جعله يخص الأوقات التي زينت فيها القلعة بفصل مستقل، فذكر مناسبات التزين وسنواتها، والملوك الذين زينوها وطبيعي أن تكون أكثر المناسبات التي زينت فيها القلعة هي أوقات الانتصارات العسكرية.

وكان سلاطين مصر يركبون إلى الروضة بين الحين والحين، وكان عبورهم إليها محلا لاهتمام السيوطي وهو يؤرخ للجزيرة، ذلك أن ركوبهم إليها كان مرتبطا على الأغلب ببعض الأحداث التاريخية، كما كان متصلا بالاصلاح العام أو بالحياة العامة، فممن اهتم المؤلف بركوبهم إلى الجزيرة الخليفة المستنصر العباسي، والظاهر بيبرس، والسلطان الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر، والسلطان المؤيد

شيخ، والملك الأشرف ابو النصر قايتباي الذي يطلق المؤلف عليه لقب سلطان العصر، فقد كان السيوطي يعيش في زمانه وكانت بينهما مودة، ومن الطريف أن كثيرا من هؤلاء السلاطين كانوا يعبرون إلى الجزيرة لتعمير المساجد أو الأمر بترميم ما تهدم منها، وبهذه المناسبة فان السيوطي قد خصص فصلا من كتابه للتحدث عن مساجد الجزيرة وهو ما قد أشرنا إليه في مناسبة سابقة.

ولما كانت شخصيات الجزيرة المقيمون فيها والوافدون عليها يمثلون جزءا من تاريخها، فقد احتفل السيوطي بالترجمة أو التعريف بعدد منهم كلما سنحت فرصة أو حلت مناسبة، لقد تحدث عن كثير من السلاطين والقواد والعلماء ممن ارتبطوا بالجزيرة بسبب أو أسباب، غير أن ترجمة السيوطي لهؤلاء وأولئك لم تكن من الأصالة بمكان لأنه كان ينقلها من كتب التراجم المتداولة.

وجزيرة الروضة محاطة بالنيل من كل جانب، بل إن النيل هو مبعث بهجتها وسبب وجودها، فليس غريبا والأمر كذلك أن يتحدث السيوطي عن النيل حديثا طويلا مليئا بالطرائف والعجائب. يذكر السيوطي أن نهراً ما لم يُسَمَّ في القرآن سوى النيل في قوله تعالى « وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم» وقد أجمع المفسرون على أن المراد باليم هنا هو نيل مصر. كما يسجل خبرا عن أبي رهم الصحابي يقول فيه: كانت مصر قناطر وجسورا بتقدير وتدبير، حتى أن الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها، فيحبسونه كيف شاءوا، فذلك قوله تعالى فيما حكى فرعون: «أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون».

ويذكر السيوطي أن الجنان كانت بحافتي النيل من أوله إلى آخره في الجانبين جميعا ما بين أسوان ورشيد، وسبعة خلج هي خليج الاسكندرية، وخليج سخا، وخليج دمياط، وخليج صف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، وخليج سردوس، جنات متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزرع بين الجبلين.

ولفرط حب السيوطي لمصر يورد آيات قرآنية شريفة ذهب المفسرون إلى أن المقصود بما جاء فيها أرض مصر ونيلها. إن السيوطي يذكر الآية الكريمة في قوله تعالى : «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة» ثم يقول إن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يذهب إلى أن مصر هي المقصودة بالآية لأن الربا لا توجد إلا بمصر، والماء حين يفيض تكون الربا وعليها القرى، ولولا الربا لغرقت القرى. ثم يستطرد قائلا : وهذا التفسير هو أيضا لابن عباس ويمضي السيوطي موردا أحاديث كثيرة في شأن النيل أغلب الظن أنها موضوعة، كما ساق أقوالا لعدد من كبار الصحابة وأعلام التاريخ مثل عبدالله بن عمر وكعب الأحبار والمسعودي والقضاعي ووهب بن منبه الذي ينسب إليه قوله: خراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها.

إن الحديث عن النيل والجزيرة يؤدي بالسيوطي المؤرخ إلى الحديث عن المقياس، فكما عرفت الجزيرة بالروضة، فانها عرفت كذلك بجزيرة المقياس، وكان أول مقياس بناه المسلمون للنيل حين دخلوا مصر، جعلوا مكانه أسوان، وظلت مصر الاسلامية منذ ذلك التاريخ البعيد إلى يومنا هذا حاضنة لمقياس النيل بغير انقطاع، وهذا القياس هو الذي يحدد وفاء النيل إذا فاض، ويبين خطره إذا زاد، وينذر ببلائه إذا غاض، ولم يحمل عطاءه السنوي المتمثل في الماء الوفير والطمى الكثير اللذين يزيدان تربة مصر خصوبة، ويضاعفان زرعها حصادا، وكانت مصر إلى عهد قريب وعلى وجه التحديد إلى سنة ١٩٦٦ م تحتفل بمقدم النيل ووفائه احتفالا شعبيا عظيما وتقيم مهرجانا ليليا فريدا شهدناه وشهده أبناؤنا، وظل الأمر كذلك منذ أن خلق الله الناس على ضفاف النيل إلى أن تم ذبح النيل باقامة ما يسمى بالسد العالي في اسوان، فانقطع الاحتفال، وحزنت أرض مصر ثم اعتلت لحرمانها من الخصوبة المجلوبة كل عام، فقل عطاؤها ونقص حصادها.

ويحتفل السيوطي بالمقياس احتفالا كبيرا، ويخصص له عشرات الصفحات المترعة بالأخبار الحافلة بالنصوص الشعرية والنثرية التي قيلت في وصفه. إن السيوطي يستعرض تاريخ المقاييس النيلية ويذكر أن أول من قاس النيل بمصر هو يوسف عليه السلام، وقد وضع المقياس في مدينة منف عاصمة مصر القديمة، ولم يفت السيوطي أن يشير إلى أن النيل كان يقاس قبل ذلك بأرض علوة. ويقفز صاحب كوكب الروضة قفزة زمنية طويلة لكي يؤرخ للمقياس منذ الفتح الاسلامي، فيذكر أن عمرو بن العاص بنى مقياسا ببلدة دندرة في اقليم أسوان بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثم وضع عبدالعزيز بن مروان والى مصر من قبل أخيه عبد الملك مقياسا في حلوان، وكانت عاصمة له، ثم وضع أسامة

ابن يزيد التنوخي مقياسا بالجزيرة ــ التي عرفت بجزيرة الروضة فيما بعد ــ وهو أكبر هذه المقاييس جميعا، ثم إن المأمون العباسي هدم مقياس الجزيرة ليعيد بناءه ولكنه لم يتمه، فاتمه سنة ٢٤٧ المتوكل ابن أخيه أي بعد نحو من ثلاثين سنة من وفاة المأمون، ومنذ ذلك التاريخ ــ والكلام هنا للسيوطي ــ يقال له المقياس الهاشمي. ثم يمضي السيوطي بعد ذلك في حديث طويل عن مقاييس النيل وأماكنها وبنائها.

ويصف السيوطي المقياس فيقول إنه عمود في الماء مقسوم بالأذرع، والأذرع مقسومة بالأصابع، في مسجد ينوب في الجزيرة عن الجامع، تصلى فيه الجماعات والجمع، ويتولاه من العهد القديم رجل من بني الرزاز ممن هو معروف بالنزاهة والعلم والسداد، وله راتب ورسم وقرار.

وكانت علامة وفاء النيل ستة عشر ذراعا، فاذا بلغها الماء أسبل متولي المقياس الستر الخليفي الأسود على شباك المقياس، فاذا شاهد الناس الستر قد انسبل، تباشروا بالوفاء واجتمعوا للفرجة من كل ناحية، ثم يكون يوم الاحتفال ويسمى تخليق المقياس، فيسارع الناس إلى ابداء سرورهم بأشكال مختلفة ربما كان التهتك والانفلات من ظواهرها، وقد وصف الشاعر شهاب الدين بن العطار تهتك الناس يوم تخليق المقياس في هذين البيتين الطريفين :

تهتك الخلق للتخليق قلت لهم
ما أحسن الستر قالوا الستر مأمول
ستر الاله علينا ما يزال فما
أحلى تهتكنا « والستر » مسبول

ومن الطبيعي والأمر كذلك أن يتحدث السيوطي عن الفيضان، ومن ثم فقد تحدث عن مقاييس النيل حديثا طويلا، سنة بعد سنة يبين فيها ما إذا كان الفيضان معتدلا أو زائدا او منخفضا، محددا ذلك بالأذرع والأصابع، ويورد في هذا السبيل نقولا كثيرة طريفة، فمن ذلك ما نقله عن أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي ــ وكان عاش بمصر مدة ــ أن المصريين يقولون : «إذا دخل أبيب كان للماء دبيب» وشهر أبيب هو أحد الشهور القبطية المعتمدة عند الفلاحين في مواقيت الزراعة إلى يومنا هذا، وقد اخترع الفلاحون المصريون لكل شهرمن هذه الشهور مثلا جاريا يعبر عن طبيعة الشهر وارتباطه بالأرض والزرع يعلق منها الآن بذاكرتي ما يقولون عن شهر برمهات وموعده مع الربيع :«إذا جاء برمهات روح الغيط وهات».

يعود السيوطي مرة أخرى ليذكر أن خراج مصر كان يجبى تبعا لمقاييس الفيضان، وكانت الغاية القصوى في الفيضان ثمانية عشر ذراعا في مقاييس الروضة، وهذه تساوي اثنين وعشرين ذراعا في الصعيد الأعلى، وإذا زاد النيل عن ثمانية عشر ذراعا نقص من الخراج مائة ألف دينار بسبب ما يستبحر من الأراضي المنخفضة.

إن وفاء النيل يرتبط به كسر الخليج، وكسر الخليج اصطلاح معروف معناه كسر السد الذي يقع على فم الخليج الذي كان يأخذ ماءه من النيل مقابل جزيرة الروضة ــ وهذا المكان باسمه لا يزال معروفا في القاهرة إلى اليوم ــ ويندفع في تلك الترعة الكبيرة التي كانت تخترق مدينة القاهرة إلى عهد غير بعيد، ثم ردم وصار مكانه شارع عرف باسم شارع الخليج المصري، ثم الغت الحكومة المعاصرة هذا الاسم التاريخي وأطلقت عليه شارع بورسعيد.

يخصص السيوطي فصلا لذكر يوم الوفاء وكسر الخليج يستهله بذكر أعياد الفاطميين ومواسمهم نقلا عن المقريزي وهي : أول ليلة من ليالي المحرم، أول يوم من أيام المحرم، يوم عاشوراء، يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم، مولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، مولد الحسن رضي الله عنه، مولد الحسين رضي الله عنه، مولد فاطمة الزهراء، مولد الخليفة الحاضر، ليلة أول رجب، ليلة نصفه، ليلة أول شعبان ، ليلة نصفه، ليلة أول رمضان، عشرة من رمضان، سماط رمضان، ليلة الختم، يوم عيد الفطر، موسم عيد النحر، عيد الغدير، كسوة الشتاء، كسوة الصيف (يعني كسوة الخليفة)، موسم فتح الخليج، يوم النيروز، يوم الغطاس، يوم ميلاد المسيح، خميس العدس، أيام الركوب.

وينقل السيوطي عن المقريزي نكتة لطيفة عن يوم وفاء النيل، تلك هي أن بعض المفسرين ذكر أن يوم وفاء النيل هو اليوم الذي تواعد موسى عليه السلام وفرعون بالاجتماع فيه في قوله تعالى : «قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى» وقد جرت العادة ــ والكلام للمقريزي ــ أن اجتماع الناس للتخليق يكون في هذا الوقت.

إنه من الوضوح بمكان أن يكون هؤلاء المفسرون ممن ساروا في ركاب الفاطميين، وفسروا الكتاب العزيز على هواهم، وعلى النهج الذي يرضي الفاطميين الغلاة ، ونحن لا نبرىء المقريزي من ايراده مثل هذه الخزعبلات الفاطمية لأنه كان متعاطفا معهم كل التعاطف.

إن السيوطي يسهب من وصف المراسم الفاطمية في كسر الخليج، لأن المراسم كانت جزءا هاما من بناء دولتهم، منها الركوب لتخليق المقياس، ومبيت القراء بجامع المقياس، وتشريف بني أبي الرذاذ بالخلع، والخلع على ارباب الدولة من العين والكسوة والمأكل والتحف.

كان الخلفاء الفاطميون يركبون لكسر الخليج ابتداء من سنة ٣٦٢ هـ وهي السنة التي جاء فيها المعز إلى مصر، وقد ركب الخليفة مركبا عظيما في الخليج حتى بلغ بني وائل ـــ الحي المعروف حاليا بالوايلي ـــ وخلفه وجوه أهل الدولة.

ويسهب السيوطي في وصف احتفالات وفاء النيل وكسر الخليج في العصر الفاطمي ويذكر الاحتفالات التي كانت تقام في السرادقات، وخروج الخليفة بكسوة ذهبية خاصة بهذه المناسبة وكذلك كان أبناؤه يلبسون الكساوى الذهبية ، ثم تقام المآدب الزاخرة في اسراف شديد. والواقع أن السيوطي أورد الكثير من الطقوس والمراسم الغريبة التي كانت متبعة في تلك الايام مما ابتدعه الفاطميون، ومثلما وصف السيوطي مراسم كسر الخليج في عصر الفاطميين فانه فعل الصنيع نفسه مع الايوبيين والمماليك مع الفارق الكبير بين طقوس هؤلاء وأولئك.

وواقع الأمر أن المادة التاريخية في كتاب «كوكب الروضة» المتعلقة بالجزيرة مادة خصبة وفيرة، ولقد كان السيوطي نفسه مصدرا لبعض مواد الكتاب، فلقد كان شاهد عيان للفترة الزمنية التي عاشها والتي تمثل فصولا متناثرة في الكتاب، ولكن ذلك كله لا يعفى السيوطي من بعض ما يمكن أن يؤخذ عليه من جانب التقصير حين لم يتحدث عن المماليك البحرية بشكل كاف وقد كانوا أصحاب دولة عتيدة، وكانت نشأتهم الأولى بجزيرة الروضة، ومنها جاءت تسميتهم بالمماليك البحرية. كذلك كان على السيوطي أن يتحدث بمزيد من الإيضاح عن الفتنة الكبيرة التي كان طرفاها العبيد والترك وجرى فيها اقتتال شديد انتهى باستيلاء العبيد على الجزيرة سنة ٤٥٢ هـ.

هذا وينبغي أن نذكر للسيوطي الفضل لأنه قام بتوثيق كثير من الأحداث بنصوص أدبية من شعرية ونثرية، وهو ما نحاول أن نتناوله من منطلق كونه الجانب الأدبي في الكتاب.

المادة الأدبية :

الحقيقة التي لا مراء فيها أن المادة الأدبية في الكتاب تمثل الجانب الأكبر منه، صحيح أن كثيرا من النصوص وردت في توثيق الأحداث أو لاضفاء مزيد من الأضواء عليها. ولكن الواقع أيضا أن هذه النصوص كانت مادة أدبية بحتة، بحيث أضفت على الكتاب صبغة أدبية ربما رجحت الصبغة التاريخية.

إن النصوص الأدبية تنقسم إلى شعر ونثر، وتلك بديهية معروفة ولكن المتصفح لكتاب «كوكب الروضة» يلاحظ أن السيوطي وازن بين جناحي المادة الأدبية وكأنه كان يمسك ميزانا وهو يقدم هذه المادة أو تلك ، وكل من المادتين سيقت في خدمة الجزيرة إلا في حالات نادرة كانت تأخذ شكل الاستطراد.

فاذا ما التفتنا إلى النصوص الشعرية وجدنا السيوطي يتبع في عرضها والاستشهاد بها منهجا سليما إلى حد كبير ذلك أن المقياس كان أبرز معالم الجزيرة ومن ثم فقد أورد نصوصا كثيرة وطريفة في وصف الجزيرة والمقياس جرت على ألسنة عشرات الشعراء فضلا عن تلك النصوص التي أوردها دون أن يذكر أسماء أصحابها،ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء ظافر الحداد، وعلي بن سعيد، وعلي بن أبي حجلة، وناصر الدين بن أبي بكر بن عمر، والمجير بن تميم، والشهاب المنصوري الذي كان السيوطي يطلق عليه لقب شاعر العصر، وعلي بن جمال الدين بن ظافر، والقاضي عبد الخالق بن العوف الأحيمي، والبدر البشتكي، والبرهان القيراطي وصلاح الدين الصفدي، وشمس الدين النواجي، وصدر الدين بن عبد الحق، وفخر الدين بن مكانس، وعمر بن الفارض على الرغم من تفرغه للشعر الصوفي، وغيرهم.

وطبيعي جدا أن يورد السيوطي نصوصا في وصف النيل، فالنيل سيد الجزيرة، ومالك أمرها، والمحيط بها احاطة السوار بالمعصم، ومن ثم فقد سطر السيوطي على صفحات كتابه في هذا

الموضوع ما يمكن أن نطلق عليه ديوان النيل، وها نحن نسجل أسماء أكثر الشعراء الذين أورد المؤلف نماذج من أشعارهم في النيل: ناصر الدين ابن الحسن بن شاور، محمد بن سهل البلخي، عبدالله ابن سرور، أبو بكر الصنوبري، محي الدين بن عبد الظاهر، الشهاب المنصوري، ايدمر التركي، أبو القاسم العطار، الرشيدي أبي الربيع، البدر البشتكي، الحافظ بن حجر، الاسعد بن مماتي، ابن الساعاتي، ابن نباتة المصري، أبو الحسن العلوي، القيراطي، ظافر الحداد، تميم ابن المعز، ابن أبي حجلة، الصفي الحلي، الزين ابن الورد، ابراهيم بن عبدون، المعمار، علاء الدين الوداعي، شمس الدين النواجي، ابن قزل، ابن مكانس ، بدر الدين بن الحاجب، ناصر الدين حسن بن النقيب، سراج الدين بن الوراق.

إن السيوطي لم يكن ليكتفي بايراد نص واحد لكل شاعر من هؤلاء، بل كان يأتي بالنصين والثلاثة، وفي بعض الحالات يورد للشاعر الواحد بضعة عشر نصا مثلما هو الحال مع بدر الدين بن الحاجب فقد نقل السيوطي من ديوانه ما قد اطلق عليه «مقطعات النيل».

تلك النصوص التي ذكرنا أصحابها كانت كلها في التغني بالنيل كنهر ذي سحر وفتنة وجمال، وأما المناسبات المتعلقة بالنيل من فيضان منتظم معتدل، أو فيضان مرتفع مغرق، أو آخر منخفض مهلك، فقد حفل الكتاب من ذلك بشعر كثير يتسم بالطرافة وخفة الروح وجمال الابداع، مما يضيق المقام هنا عن ايراد نماذج منه.

وهناك الاحتفالات التي كانت تقام على شواطىء النيل قبالة جزيرة الروضة مثل عيد النيروز والغطاس وكسر الخليج، وهذه جميعا مناسبات أكثر الشعراء فيها من القول الجميل، بحيث لم يفت السيوطي أن يتمثل لذلك بكثير من المقطوعات والقصائد التي طرز بها صفحات الكتاب.

ومن متعلقات الجزيرة أيضا بعض أطرافها وأحيائها كالخرطوم والمنيل، وحي دار النحاس المقابل لها، والسفن ترسو على شواطئها، والزوارق تنساح على صفحة النيل من حولها، والصيادون ينتشرون على الضفاف المحيطة بها. إن كل هذه العناصر كانت موحية للشعراء بمقاطع قصائد من رقيق الشعر وأعذبه، بل إن السيوطي لم يفته أن يورد مقطوعات قيلت في ناموس الجزيرة — أي بعوضها — وبراغيثها، بل لقد أورد لنفسه بيتين طريفين في ذم بعوض الجزيرة — فقد قاسى منه كثيرا — يقول فيهما:

ما لناموس يحاكي لسعه ... شوك الغضاة وصوته الناقوسا
يتحسس الفرجات عند هبوبه ... فاعجب لناموس غدا جاسوسا

لقد أورد السيوطي قدرا كبيرا من شعر الشعراء في النيل، ونحن نزعم أن كتابا آخر من كتب الأدب لم يزخر بمثل هذا القدر من الشعر النيلي، هذا فضلا عما أورد السيوطي من شعر في نفس الموضوع في كتبه الأخرى وبخاصة «حسن المحاضرة» الأمر الذي يجعل كل من كتبوا عن النيل في الأدب من قدامى ومحدثين عيالا على السيوطي، منه أخذوا ، وعنه نقلوا.

ولعل حماس السيوطي للجزيرة بخضرتها ورياضها، وحبه للنيل وسحره قد دفعا به بعيدا بعض الشيء عن موضوع كتابه، أذ لم يلبث أن صنف فصلا لشعر الطبيعة بكل فروعه، ما كان قيل منه في الجزيرة وما أنشىء في غيرها من رياض الأقطار العربية والاسلامية، وما كتب منه في النيل، وما صنع في غير النيل من أنهار وبرك وغدران. لقد وضع السيوطي لهذا الفصل عنوانا طويلا هو «ذكر محاسن مقاطيع قيلت في الروضات والروض والزهر والنهر والناعورة».

إن هذا الفصل من كتاب «كوكب الروضة» على الرغم من كون أقل الشعر الذي جاء فيه قيل في وصف رياض الجزيرة، وأن أكثره قيل في الطبيعة المصرية مثل متنزهات القاهرة وبركة الفيل وبركة الحبش وبركة الرطلي وأرض الطبال، نقول إنه على الرغم من ذلك فانه تناول أيضا بعض أشعار قيلت في وصف الطبيعة في العراق والعراق العجمي وبلاد الشام والأندلس.

فمن شعراء العراق تمثل السيوطي لأبي نواس وابن الرومي وصفي الدين الحلي، ومن شعراء العراق العجمي تمثل بأكثر من

نص لبديع الزمان الهمذاني مع كون بديع الزمان كاتبا أكثر منه شاعرا، ومن شعراء الشام تمثل للصنوبري وكشاجم وأبي فراس ولو أنه ذكر أبياتا لأبي فراس بدون أن يشير إلى اسمه، وهو أمر يؤخذ على السيوطي لأن أبا فراس أحد أمراء الشعر العربي ولأن الأبيات موضوع التمثيل من الشهرة بمكان وهي قوله:

والماء يفصل بين زهـــــــــر الــــــــروض في الشطين فصلا
كبساط وشي جردت أيـــدي القيـــون عليـــه نصلا

ومن شعراء الاندلس أورد السيوطي نماذج من شعر المعتمد بن عباد وابن عمار وأبي بكر البلنسي وأبي بحر صفوان بن ادريس وأبي بكر الأبيض الاشبيلي، وأبي الصلت أمية بن عبد العزيز وعلي بن سعيد المغربي، غير أن الشيء الجدير بالذكر أن النصوص التي جاء بها السيوطي لكل من أبي الصلت وعلي بن سعيد قيلت في وصف بركة الفيل التي كانت محتفظة بخضرتها وسحرها ومائها حتى القرن الماضي على مقربة من مسجد السيدة زينب في القاهرة، ولقد سكن كاتب هذه السطور فترة من شبابه غير بعيد عن موقع بركة الفيل تلك.

وأما بقية الشعراء فانهم مصريون وكل موضوعات شعرهم قيلت في رياض مصر، منهم شرف الدين أبو سالم المقري، وابن النبيه، والشهاب الحجازي، والشهاب المنصوري، والشهاب الهائم، والشهاب بن أحمد العطار، وابن المشد، ومحيي الدين بن قرناص، وأبو الفضل بن أبي الوفا، وابن الساعاتي، وابن نباتة المصري، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، وشمس الدين النواجي، وصلاح الصفدي، وأسعد بن مماتي، وتميم بن المعز، وعلي بن ظافر، وابن أبي حجلة، وشهاب الدين الخفاجي، والوزير ناصر الدين بن الحسن ابن شاور، وأبو الحسن بن حيدرة العقيلي، وابن قلاقس، وعلي بن محمد بن حبيب التميمي، ورضى الدين اسحاق عبد الباري، وأبو الحسن علي بن عبد الكريم المناوي، وعلم الدين أيدمر المحيوي، والأعز بن المؤيد، وعبد الحميد بن عبد المحسن الأسيوطي، والقاضي الفاضل، والبدر البشتكي، وفخر الدين بن مكانس، ومحمد بن أبي بكر بن عبدالرزاق الحنفي وغيرهم من الشعراء المصريين الذين عاشوا في العصر المملوكي.

وواقع الأمر أن هذا الفصل من كتاب كوكب الروضة يمثل بدوره ديوانا مختارا من شعر الطبيعة في الأدب العربي في مصر، باستثناء النماذج القليلة التي قيلت في رياض بعض البلاد الاسلامية. لقد أرانا السيوطي في مختاراته تلك لوحات بهيجة للرياض والبرك والأنهار، وأسمعنا خرير الماء في الغدران والجداول، وبكاء السواقي والنواعير، وترنيم البلبل والشحرور، وحفيف الأوراق والأغصان، وأمتعنا بسحر الدوح والروض وفتنة الورد والنرجس والنسرين والآس والأقحوان مع شميم الشذا ونشق الأريج ، ومن البداهة بمكان ذكر أن هذه النماذج جميعا مليئة بالاستعارات مترعة بالتشبيهات حافلة بالصنعة البديعية التي يسيغها الذوق حينا ويرفضها حينا آخر.

لا يكاد السيوطي ينتهي من تسجيل ديوان الطبيعة هذا الذي مر ذكره حتى ينتقل إلى جمع ديوان آخر في شعر الطبيعة بكل موضوعاتها من رياض وأشجار، وزهريات وأثمار، ونخيل وخضار.

لقد صنع السيوطي ذلك الصنيع وخص به جزيرة الروضة وحدها، وجعل عنوان هذا الفصل هكذا: «ذكر الأزهار والفواكه والخضروات الموجودة في الروضة وما فيها من اشعار»، إنه عنوان طويل لفصل طويل، ولكن ينبغي أن نسجل ملاحظتين في هذا الشأن، الملاحظة الأولى أنه فرغ هذا الفصل من شعر الماء والنهر والضفاف والبرك والغدران والدوح والرياض وهذا أمر طبيعي لأنه أورد من ذلك شيئا وفيرا في أكثر من فصل من الفصول التي سلفت الاشارة إليها وإما الملاحظة الثانية فهي ملحظ منهجي يحسب على السيوطي، لانه أقام سدا بين هذا الفصل الذي يتعلق بالأزهار والفواكه والخضروات الموجودة في الروضة وبين فصل الطبيعة سالف الذكر، ولم يكن هذا السد الذي باعد بين الفصلين إلا رسالته الفقهية الطويلة «الجهر في منع البروز على شاطىء النهر» ولقد خالجنا بعض الشك في أن يكون موقع الرسالة على النحو الذي احتلته في الكتاب سببه خطأ النساخ، ولكن هذا الشك تبدد حين وجدنا موضعها هذا في جميع النسخ المخطوطة التي وقعت تحت نظرنا.

فاذا ما عدنا ثانية إلى هذا الفصل وجدنا السيوطي يستفتحه بذكر أخبار تتحدث عن خيرات مصر وجمالها ورخائها مثل قول عبدالله بن عمرو بن العاص: من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتثور ثمارها. إن السيوطي يورد في هذا المقام قول بعض الناس الذي مفاده إنه «يجتمع في مصر في وقت واحد ما لا يجتمع بمدينة وذلك البنفسج والورد والنرجس والمنثور والسوسن وشقائق النعمان والبهار والياسمين والنسرين واللينوفر والنمام والمرزجوش والريحان والنارنج والليمون والكمثرى والأترج والباقلاء الأخضر والعنب والتين واللوز والموز والسفرجل والرمان والنبق والقثاء والخيار والبلح والبسر والرطب واللفت والقنبيط والسبانخ والقرع والجزر والباذنجان وكل ذلك يجتمع في وقت واحد من السنة» ثم يستدرك السيوطي قائلا:

« وقلت: وأكثر ما ذكر يزرع في الروضة ويوجد فيها في أوقاته من السنة سوى اللينوفر والسفرجل، وفيها زيادة على ما ذكر: شجر الزيتون والعناب والخروب والخوخ والبرقوق والتوت والكباد وقصب السكر والبطيخ والخشخاش».

بعد أن يقدم السيوطي لهذا الفصل على النحو الذي اسلفنا يمضي في عرض مختارات من الشعر الجميل بادئا بالشعر الذي قيل في الفاغية وهي ما يعرف في مصر بزهر «التمر حناء» ثم الورد فالنرجس فالآس والأقحوان والبان والريحان والياسمين والنسرين والبنفسج والمنثور والسوسن والشقيق وزهر النارنج والجلنار وزهرة الخشخاش ونور الكتان ونور الباقلاء وزهر اللوز وزهر القطن.

إن هذه الازهار جميعا كانت تزين بساتين الجزيرة وحدائقها، ولكن ليس بالضرورة أن يكون الشعر الذي قيل فيها لشعراء مصريين وحسب، وإنما كانت النماذج الشعرية لشعراء مصريين وغير مصريين فيما خلا الأزهار التي لم تكن تنمو إلا في مصر وحدها مثل زهرة القطن وتمر الحناء على سبيل المثال.

وفي الفاكهة قدم السيوطي مختارات رقيقة في وصف البطيخ والتين واللوز الأخضر والنبق والبرقوق والتفاح والكمثرى والجميز والتوت والخوخ والمشمش والعناب وقصب السكر والموز والنارنج. وهي جميعا طريفة، وكان وصف الجميز وقصب السكر مقصورا على الشعراء المصريين. وعن النخل قدم السيوطي مختارات جميلة في وصف النخلة والطلع والجمار والبسر والرطب مع مجموعة من الألغاز الشعرية في النخلة والبلح بأنواعه.

وعن الخضروات يورد السيوطي مجموعات شعرية لطيفة في وصف النعناع والباذنجان والفجل والجزر والفقوس وسنابل القمح والشعير، والباقلاء والهذبا.

وفي أشجار جزيرة الروضة أورد المؤلف مقطوعات رقيقة في وصف الأثل والصفصاف والسرو والبلاب والاترج والكرم.

إن هذا الفصل يمكن أن يشكل بدوره أيضا ديوان شعر مختار لما تنتجه أرض جزيرة الروضة من أزهار وأثمار، وخضروات وأشجار، والنصوص الواردة هنا لمجموعة من الشعراء المرموقين من مختلف الأقطار على ما سبق أن اسلفنا، ولكن أكثرهم كانوا من المصريين. ومن طرائف هذا الفصل أن السيوطي نظم نفسه في سلك شعراء الطبيعة وأسهم بأكثر من مقطوعة شعرية كتلك التي أنشأها في وصف تمر الحناء وفيها يقول:

كأنما دوحة الحناء إذ فتحت ... أنوارها وبدت في عين مرتقب
عروس حسن تبدت في غلائلها ... خضرا وقد حليت باللؤلؤ الرطب

لقد أسهم السيوطي اسهاما قليلا في مواكب الشعر المتزاحمة التي حفل بها الكتاب، وذلك موقف منطقي لأن السيوطي وإن قال الشعر فليس بذي مكانة في عالم الشعراء إذا ما أريد تقسيمه كشاعر، وأما في ميدان النثر فقد كان كاتبا مرموقا ذا آثار بارزة في نطاق الزمان الذي عاش فيه، فهو صاحب رسائل كثيرة، ومناظرات غزيرة، ومقامات وفيرة، ومن ثم كان اسهامه في «كوكب الروضة» بفنونه النثرية واضح المعالم بارز القسمات.

فاذا ما كان الحديث عن الفنون النثرية في «كوكب الروضة» وجدناها على تنوعها أقل حجما من النصوص الشعرية، ولكنها مع ذلك تعالج كثيرا من العناصر الموصولة الأسباب بجزيرة الروضة

والنيل، ووجدنا كذلك موضوعات كثيرة عالجها السيوطي بفنه وأبدعها بقلمه تتمثل في عدد من المقامات ومجموعة من الرسائل.

لقد اشتملت النصوص النثرية على خمسة موضوعات أساسية، وأما ما عدا ذلك فأمور جانبية، أما هذه الموضوعات فهي رسائل البشارات بوفاء النيل، ورسائل لبعض الأدباء في وصف طوفان النيل حين يتعدى معدل وفائه فيغرق البلاد، ومقطوعات نثرية فنية في وصف نهر النيل وبهاء منظره وسحر شطآنه ومجراه مع بعض الألغاز التي تجمع بعض صفاته مظهرا ومخبرا، ثم المقامات التي أنشئت في وصف الجزيرة والنيل وما يتصل بهما، وأخيرا المفاخرات أو المناظرات التي أنشأها الأدباء في موضوعات متنوعة وإن اتصلت جميعا بموضوع الكتاب وهو الروضة ونيلها.

فأما رسائل البشارات فكانت تصدر عن السلطان لكي توجه إلى العمال في مختلف مدن مصر وسورية، يكتبها كتاب الرسائل في أسلوب أنيق، تبشر الناس بأن النيل قد وفى بوعده، ومن ثم يستبشرون بعام مليء بالخير مرسوم بالرخاء مع شكر الله عز وجل ووصف رائق للنيل وهو يجري، وبيان لمدى ارتفاع الماء عند مقياس الروضة بالأذرع والأصابع، فمن هذه الرسائل ما كتبه القاضي محي الدين بن عبد الظاهر نيابة عن السلطان المنصور قلاوون إلى نائب السلطان بحلب، وما كتبه تقي الدين أبو بكر بن حجة عن السلطان المؤيد شيخ إلى العمال.

وكانت رسائل وفاء النيل تصدر أحيانا عن الكتاب لتهنئة السلطان وكبار رجال الدولة، مثلما فعل جمال الدين بن نباتة وصلاح الدين الصفدي حين كتب كل منهما رسالة بليغة يهنىء فيها السلطان بوفاء النيل، ومثلما رسم على منوالهما بدر الدين بن الصاحب في تهنئته ناظر الجيوش.

إن رسائل وفاء النيل تشكل ظاهرة أدبية فريدة اختص بها كتاب مصر وأدباؤها لفترة زمنية محدودة بالعصور الوسيطة، وكانت هذه الرسائل ميدانا للتنافس في الانشاء وتخليق المعاني والصنعة البديعية في مختلف مظاهرها من تجنيس وتصريع وترصيع وتورية ومقابلة واقتباس.

وكان موضوع العنصر الثاني في النثر هو وصف النيل حين يزيد عن معدل الفيضان العادي ويتحول إلى طوفان يغرق البلاد ويشتت العباد، لقد أورد السيوطي نصوصا شعرية كثيرة في هذا الموضوع وأكثرها إن لم يكن جميعها من الطرافة بمكان، ولذلك فإن الكُتّاب عمدوا إلى اقتفاء أثر الشعراء فكتبوا الرسائل الكثيرة الطويلة في وصف طوفان النيل وما أوقعه بالناس من ضرر وفزع وتدمير وغرق ، وأبرز الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع ابن أبي حجلة ومحيي الدين بن عبد الظاهر، وزين الدين عمر الصفدي، وجمال الدين بن نباتة، وفخر الدين بن مكانس، وهم جميعا من الكتّاب ذوى الاقلام المرهفة والأساليب العذبة والصيغ المتنوعة المتصرفة، بل إن كثيرا منهم كان يجمع بين براعة قول الشعر واجادة كتابة النثر، وقد قالوا نثرا وشعرا في هذا الموضوع الذي كان يشغل المصريين على مسرى التاريخ حين يزيد فيضان النيل عن معدله، وقد شهدنا شيئا من ذلك في الأربعينات والخمسينات من هذا القرن حين كان يتطوع أبناء قرى دلتا النيل للوقوف حراسا على شواطىء النيل خشية أن يفجرها الفيضان الكاسح.

وإذا كان الكتاب قد جودوا في كتابة رسائل تصف الطوفان ومضاره، فقد كان طبيعيا أن يبدعوا في وصف جمال النيل واستجلاء سحره واستشراف رياضه، تماما مثلما فعل الشعراء معه وكانت موضوعات النثر قد حاكت موضوعات القصيد منذ وقت مبكر في مسيرة الأدب العربي ترجع إلى عصر كتاب النثر الفني في القرن الرابع الهجري.

لقد أورد السيوطي عددا من المقطوعات النثرية الرشيقة في وصف النيل ورياضه للقاضي الفاضل وضياء الدين بن الأثير والأسعد بن مماتي وغيرهم من الكتاب المصريين أو الكتاب الوافدين، واغتنم السيوطي الفرصة فعمد إلى الاستطراد فأورد بعض المقطوعات النثرية في وصف الرياض.

ولما كان الشعراء قد أنشأوا الغازا في النيل صاغوها شعرا، وقد أورد السيوطي عددا كبيرا منها، فأنه أورد أيضا عددا غير قليل من الألغاز نفسها في الموضوع ذاته ولكنها صيغت في قوالب نثرية

أنيقة، بعضها منسوب إلى منشئها وبعض آخر غير منسوب.

ولقد احتل فن المقامات مكانا رحيبا في «كوكب الروضة» وأخذ من مساحة الفنون النثرية بنصيب، فقد أورد السيوطي ثماني مقامات أسهم هو نفسه بثلاثة منها هي المقامة البحرية، ومقامة بلبل الروضة، ومقامة الرياحين، كما أسهم برسالتين طريفتين من انشائه هما «الباحة في ذكر السباحة» و«الجهر في منع البروز على شاطىء النهر» وقد سلفت الاشارة اليهما.

وأما المقامات الأخرى فهي «المقامة الزعفرانية» لشهاب الدين ابن أبي حجلة في وصف طوفان النيل، ومقامة الشيخ البزاعي كتبها في وصف رحلته البحرية الطويلة من مصر إلى عدن سنة ٦٩٤ هـ وكانت سنة غلاء وأمراض لانخفاض النيل، ومقامة القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر يذكر فيها مصر ونيلها، ومقامة محيى الدين ابن قرناص يرد فيها على القاضي بن عبد الظاهر، ومقامة ضياء الدين بن الاثير التي أطلق عليها رسالة الأزهار وهي وإن كانت في ظاهرها تشكل مفاخرات بين ستة أزاهير هي النرجس والأقحوان والشقيق والزهرة والبنفسج والورد إلا أنها من حيث مضمونها وهدفها الأخير تنتهي بمدح السلطان الأشرف مظفر الدين موسى.

فاذا عدنا إلى مقامات السيوطي وجدناه أنشأ المقامة البحرية سنة ٨٩٧ حين انخفض منسوب النيل ثم عاد فزاد، فوصف الانخفاض على لسان كل من المقرىء والمحدث والفقيه والأصولي والجدلي والصوفي والنحوي واللغوي والمعنوي والبياني والبديعي والعروضي والكاتب والطبيب والموسيقي والمنطقي والميقاتي والمؤذن، وتقمص شخصية كل واحد من هؤلاء وقلد أسلوبه واستعار عباراته، ثم عاد بعد أن زاد النيل فوصف الزيادة على ألسنة هؤلاء مرة ثانية، ولقد كان السيوطي بارعا في هذا اللون من المقامات التي يجري فيها الحديث في موضوع بذاته على ألسنة هذا الفريق من العلماء وأصحاب التخصصات.

وأما مقامة بلبل الروضة فان السيوطي يذكر أنه أنشأها في وصف الروضة وأطلق عليها هذا الاسم، وهي قطعة من الأدب الرفيع يصف فيها جمال الجزيرة ومرابعها وقصورها ورياحها ومتنزهاتها، ويرصع المقامة بمختارات من أرق ما قاله الشعراء العرب في الرياض كما يجرى السيوطي كثيرا من الفخر على لسان الجزيرة.

وأما مقامة الرياض فقد عقد فيها السيوطي مجلسا للرياحين والأزهار لاختيار من هو أحق بينهم بالملك، وأخذت الأزهار كل واحدة على حدة تفخر بنفسها بأسلوب أنيق ثم تختم قولها بمقطوعة شعرية قالها فيها أحد شعراء الطبيعة، ثم احتكموا في النهاية إلى قاضي نزيه، فحكم بالملك للفاغية، امتثالا لحديث شريف يقول: « سيد الرياحين في الدنيا والآخرة الفاغية » .

كذلك احتل فن المفاخرات مكانا مرموقا بين الفنون النثرية، وهذا الطراز من المفاخرات أخذ مكانه في النثر العربي في وقت متأخر نسبيا،وكان أوج تألقه في العصر المملوكي،وهو فن تتفتق فيه المعاني وترق فيه الأساليب ويغلب عليه المرح والفكاهة وربما السخرية أيضا،ولكن السيوطي كان ملتزما غاية الالتزام حين اختار من المفاخرات أو المناظرات ما له علاقة بجزيرته الأثيرة، فأورد مفاخرة بين النيل والبحر المالح للشهاب الحجازي، ومفاخرة بين السماء والارض للأديب نفسه، ويستدرك السيوطي قائلا إنه أورد هذه المفاخرة لأن منشئها تعرض فيها للنيل، ومفاخرة بين جزيرة الروضة ومدينة مصر لصلاح الدين محمد بن أبي بكر الأسيوطي، ومفاخرة بين النخل والأعناب لم يذكر منشئها، ومفاخرة بين التين والعنب لشمس الدين محمد بن محمد بن المحب، وهي مفاخرة فريدة طريفة جمعت بين فنون النثر والقصيد والمواليا، ومفاخرة بين المشمش والتوت للامام الحافظ شمس الدين الذهبي، ومفاخرة الورد مع النسرين ولم يذكر السيوطي منشئها.

تلك أهم موضوعات النصوص النثرية التي أوردها السيوطي في مخطوطه النفيس «كوكب الروضة» وجميعها حسبما رأينا — إلا في القليل — مرتبطة بالجزيرة من قريب على الأغلب ومن بعيد على الأقل، ولقد ضم الكتاب بعض الرسائل الطريفة التي لم نستطع تصنيفها تحت عناصر الفنون النثرية التي تناولناها فيما سلف من سطور.

لقد صاد البدر البشتكي حوتا عظيما في جزيرة الروضة، فكتب إليه فخر الدين بن مكانس رسالة يداعبه فيها في تلك المناسبة، تفيض بالظرف والفكاهة، وكان بين ابن مكانس والبدر البشتكي مراسلات كثيرة في عدد من المناسبات، ولقد مر بنا أنه — أي ابن مكانس — كتب إلى البدر رسالة في وصف طوفان النيل

ومن أهم الرسائل التي ضمها كوكب الروضة أيضا رسالة السيوطي في السباحة، ومن الضروروي لمن سكن على شاطىء النيل أن يتعلم السباحة، وقد سبق لنا الاشارة إلى طرافة هذه الرسالة لما استهدفته من اتجاهات دينية أدبية تربوية اجتماعية، ثم إننا لا نجد كبير بأس من أن نعاود الاشارة إلى رسالة «الجهر في منع البروز على شاطىء النهر» وهي رسالة فقهية كتبها السيوطي للمحافظة على شاطىء الجزيرة من سطو المباني عليه.

إننا نستطيع في نهاية هذه الرحلة في قلب «كوكب الروضة» أن نقرر أنه من الأعمال الجادة الفريدة التي اضطلع السيوطي بعبء القيام بها بين الكثير الجاد من اعماله، فالحق أن الكتاب يمثل جزءا من تاريخ مصر وتاريخ نهر النيل من خلال الكتابة عن الجزيرة، وهو إلى جانب ذلك يمثل عدة دواوين من الشعر وليس ديوانا واحدا، أنها — أي الدواوين الشعرية — ديوان للنيل، وآخر لجزيرة الروضة، وثالث لشعر الطبيعة والرياض، والكتاب إلى جانب ذلك مصدر أصيل للنثر العربي في مصر في العصور الوسيطة، كما أنه كشف لنا كثيرا من الأسماء التي كانت مجهولة في ميدان الابداع الأدبي، وأسماء أخرى كانت معروفة في المسيرة التاريخية ولكنها لم تكن كذلك في المسيرة الأدبية، و«كوكب الروضة» بالاضافة إلى ذلك كله ملىء بالطرائف مترع باللطائف، وهو في نفس الوقت لم يخل من خرافات ولم يبرأ من أوهام نقلها السيوطي عن عمد حينا وعن غفلة حينا آخر.

إن «كوكب الروضة» في جملته عمل علمي كبير، فرغ السيوطي من تأليفه في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثمانمائة، وكان العالم الجليل يشعر بقيمة عمله هذا حين جعل منه شيئا يفتدى، ولا يفتدى من الأشياء إلا كل نفيس، ومن حقه علينا أن نردد بيتيه اللذين ختم بهما «الكوكب» وفيما يقول:

كتابي « الكوكب » المفدى ... دقت معان به غزيرة

ألفاظه المشتهاة تحكى ... من حسنها « روضة » « وجيزة»

سيد قطب الناقد الأدبي

لعبد العزيز الغدير

الغدير، عبد العزيز / سيد قطب الناقد الأدبي. — الرياض: كلية اللغة العربية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ١٤٠٣، ٥١٩ ص (رسالة ماجستير).

زخرت الساحة الأدبية أوائل هذا القرن بحركة أدبية واسعة برز خلالها عدد كبير من الأدباء والنقاد كانت — ولا تزال — لهم مكانتهم في عالم الأدب.

وقد تعددت في أوائل هذا القرن موارد الثقافة بشتى ألوانها ما بين قديم يُبعث ويُدرس، وجديد يحظى بعناية ومتابعة الداعين إليه ونضالهم من أجل تثبيت قواعده ويعرف عامة المتأدبين وخاصتهم أسماء أعلام الأدب والنقد في هذه الفترة من أمثال العقاد والرافعي وطه حسين والمازني ومحمد حسنين هيكل وزكي مبارك وغيرهم كثير.

ومن ينعم النظر في هذه الفترة يلاحظ أن هناك تناسيا قد يكون متعمدا لعلم من أعلام الأدب والنقد كان له دور كبير في تلك الحركة وذلك التفاعل الشديد الذي شهدته الساحة الأدبية وإثراؤها بالأفكار والنظريات في هذا الميدان.

بل إنه في الأربعينيات كان الناقد الوحيد في مصر بعد أن استطاع أن يطفيء ضوء مجموعة من النقاد ذلكم هو سيد قطب.

ولقد أثار الباحث هذا النسيان أو التناسي وبخاصة بعد وفاته،إذ كان من المتوقع أن يحظى بعناية الدارسين والمؤرخين لأعلام الأدب والنقد والنظريات التي طرحها في ميدان الأدب والنقد لم تظفر بما تستحقه من عناية وتقدير وما تستحقه آثاره الأدبية والنقدية من عناية وإشادة تفتح الطريق لهواة الأدب ورجال النقد في زماننا.

تخيَّر الباحث شخصية سيد قطب موضوعا لدراسته الجامعية للحصول على درجة الماجستير في النقد الأدبي فتابع آراءه ودراساته وأبحاثه في الصحف والمجلات التي كان يكتب فيها، وفي الوقت نفسه تابع ما يقال عنه في هاتيك الفترة.

وقد كلفه ذلك عناية واهتماما يستحقهما هذا الأديب، والناقد لكثرة كتاباته وتنوعها، وصعوبة الحصول عليها من مظانها الكثيرة التي باعد بيننا وبينها الزمان والمكان.

وقد بذل الباحث جهداً كبيراً لتجميع آثار سيد قطب فكانت الحصيلة مجموعة كبيرة من الكتب والمقالات والدراسات والبحوث التي خلفها في مجال النقد الأدبي سواء منها ما كان نظريا أو ما كان تطبيقيا، لأجناس الأدب وفنونه المتنوعة، مما أكد اقتناعه بأن سيد قطب جدير بمكانة رفيعة بين النقاد المعاصرين، وأن هذه الآراء التي بسطها، والكتابات التي دونها تحتاج إلى فحص وتمحيص ودراسة واعية متأنية تكشف عن حقيقة شخصيته الفكرية أو النقدية حتى تضعه في مكانه اللائق به، وهو مكان القمة بين قمم النقاد المعاصرين.

وقد عكف على هذه الآثار بعد أن تيسر له سبيل الحصول عليها، وأقبل عليها فدرسها وتأملها وبحث عن مصادرها ومواردها وعن معالم الشخصية الفنية والنقدية كما تتبين من هذه الآثار.

وقد تتبع الباحث مسيرة حياة سيد قطب منذ نشأته في قرية من قرى صعيد مصر،ومنذ التحق بكلية دار العلوم في القاهرة إلى أن ودَّع عالم الأدب والنقد وانصرف إلى ما هو خير وأبقى من العناية بأصول العقيدة وتفسير كتاب الله تعالى، وغير ذلك من الأعمال التي أفاد منها كل مفكر إسلامي، وكل متأدب بآداب القرآن.

وقد مرت هذه الحياة بمرحلتين متميزتين لكل واحدة أسبابها وعواملها وخصائصها التي صبغت تفكير سيد قطب، الأولى هي المرحلة الفنية والثانية هي المرحلة الإسلامية. كان في المرحلة الأولى يعتور فكره بعض الشك والحيْرة والتشاؤم ودعا في وقت من الأوقات إلى فصل الدين عن الأدب.

وبرزت هذه المظاهر في عطائه الأدبي وخاصة الشعر الذي هو فيض النفس ومرد ذلك إلى اتصاله بالفكر الغربي عن طريق اتصاله بالعقاد وقراءاته لما يترجم من هذا الفكر، ثم إن لمشاعره النفسية المرهفة أثرا آخر في تلوين نتاجه بلونها.

واستمرت هذه الظواهر فترة كبيرة حتى اتصل بالإخوان المسلمين وما رآه من حالة الغرب في أمريكا حيث انتقل نقلة كبيرة في تفكيره فصار كاتبا وأديبا وناقدا إسلاميا ينافح عن الاسلام ويدعو إلى انطلاق الفنون والنقد من منطلق إسلامي

ومن هنا يتضح أن سر هذه العناية بهذه الشخصية كان تدارك ما فات والعمل على أن تبعث شخصيته النقدية من جديد بعد أن صمت عنها أكثر الباحثين وبخاصة في بلده وموطنه متأثرين بعامل الرهبة أو الرغبة أو الزلفى، وقد رأوا ما انتهى إليه أمر ناقدنا الشهيد.

ويقرر الباحث أن بعض الأقلام في عالمنا العربي والإسلامي قد تناولت سيد قطب ، ولكن ليس من هذه الزاوية التي يطل منها في هذه الدراسة المتخصصة وهي كتابات لا تنكر قيمتها ولا دافع الإخلاص في كتابتها، ولكن أكثرها يتصل بالجانب الإسلامي . ورأى أن من واجبه وهو متخصص في مجال الدراسات النقدية أن ينهض بهذا العبء الذي أشفق منه أكثر الكاتبين.

وكان المنهج الذي اقتضته طبيعة هذا البحث منهجا تاريخيا يتتبع حياة سيد قطب وتطور تفكيره النقدي منذ بدأ حتى توقف عن المسير، وكان في الوقت نفسه منهجا فنيا ونقديا، إذ عمد في هذه الدراسة إلى التقويم والفحص عن كل فكرة، وإدامة النظر فيها وتقويمها تقويما موضوعيا.

وكذلك فان منهج هذه الدراسة منهج يعتمد على أسلوب المقارنة والفحص بين منابع النظرية النقدية عند سيد قطب، ومدى ما أفاده من كبار النقاد المعروفين في القديم والحديث، وما برزتْ فيه شخصيته النقدية المستقلة.

وقد أدت طبيعة هذا البحث ومنهجه التاريخي والفني والنقدي والمقارن إلى أن ينظمه الباحث في بابين قدم لهما بتمهيد.

أما الباب الأول فقد تحدث فيه عن المرحلة الأولى التي سماها المرحلة الفنية في حياة سيد قطب الأدبية والنقدية.

والثاني خصصه للمرحلة الإسلامية، حياته الفكرية والنقدية.

وفي التمهيد تناول حياته ونشأته بالدراسة والتمحيص منذ ترعرع في قريته إلى أن غادرها إلى القاهرة ليتم دراسته الثانوية في تجهيزية دار العلوم، ثم يلتحق بكلية دار العلوم.

وتحدث عن العوامل الجديدة التي أثرت في تكوين عقليته واتجاهه الفكري ومزاجه الشخصي، وأوضح أثر صلته بالعقاد ومدرسته ومذهبه الجديد الذي كان يدعو إليه في الأدب والنقد.

وانتهى من ذلك إلى الحديث عن مظاهر نبوغه المبكر، وعن فنه الشعري الذي نبغ فيه.

كما أحصى الآثار التي خلّفها وهي كتب كاملة، وكتابات متنوعة في الأدب والنقد.

فعرف بكل أثر من هذه الآثار، وعرض مضموناته ومنهجه، وما أضاف من ثمرات جهده إلى المكتبة العربية.

ثم جاء بعد ذلك الباب الأول من الرسالة وهو بعنوان: « سيد قطب الناقد الفني» ويشتمل على خمسة فصول :

خصص الفصل الأول منها لدراسة مصادر التفكير النقدي التي نهل منها وهي مصادر ثلاثة :

أولها : ما خلّفه كبار نقاد العرب من آثار نقدية أكبَّ عليها، ووعى ما فيها من أصول التفكير الأدبي عند العرب، والاتجاهات عندهم، والقضايا التي أثارها هذا التراث القديم.

وثاني هذه المصادر : ما كتبه أدباء العرب ونقادهم المحدثون في البيئة التي عاش فيها وتفاعل معها.

والثالث : ما نُقل من آثار الغرب إلى بيئات الأدب العربية وما تُرجم إلى اللسان العربي من الآثار النقدية التي كتبها نقاد الغرب.

وفي الفصل الثاني : درس الاتجاهات النقدية التي تميزت في بيئاته الأدبية في أوليات هذا القرن، وهذه المناهج الأدبية والنقدية كانت في أكثر الأحوال وافدة على بيئتنا العربية من نقاد الغرب.

وقد وعى سيد قطب ــ كما يشير الباحث ــ هذه الاتجاهات كما وعاها عن أصحابها، ولكنه لم يكتف بذلك، وإنما بحث بحثا عميقا جادا عن جذورها في المأثور من تراثنا النقدي.

ولم يتعسف في وصل أصول هذه الاتجاهات الأجنبية بالمأثور من نقدنا العربي، ولكنه استطاع أن يبحث عن هذه الجذور، وأن يستخرجها من مكامنها فهي حقائق موجودة في النقد العربي. ولم يكن ينقصها إلا التوضيح الذي يكشف عنها،وإلا الأسماء والمصطلحات التي وضعت لها.

وهذه المناهج والاتجاهات هي :

١ ــ الاتجاه الفني
٢ ــ الاتجاه النفسي
٣ ــ الاتجاه التاريخي
٤ ــ الاتجاه الاجتماعي

وفي الفصل الثالث درس أصول الأدب في نقد سيد فشرح مفهوم العمل الأدبي عنده، والإبداع كما يراه، والقيم الشعورية، والقيم التعبيرية، ثم غاية الأدب كما يراها.

واتضح للباحث أن سيد قطب قد تبنى لفترة طويلة من حياته مفهوم المدرسة الإنجليزية في الأدب العربي الحديث حيث ترى أن جوهر العمل الأدبي هو:

التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية.

وفي الفصل الرابع تحدث عن فنون الأدب في نقد سيد قطب فدرس مفهومه للشعر، وأصوله، وغايته، وهو يتبع مفهوم المدرسة الانجليزية في الأدب العربي الحديث.

وللشعر طريقة أدائه الخاصة عند سيد، فكلما كان الشعر أقرب إلى طبيعة القصة في التعبير عن الانفعالات والأحاسيس المتتابعة وتصوير جزئيات الشعور والتصورات المصاحبة لها كان أسرع إلى إثارة الوجدانات المماثلة في نفوس الشعراء، وأنجح في أداء مهمته.

ويرى أن هذا المنهج هو المنهج الأصيل في الشعر.

وتتبعه الباحث فيما تحدث به عن بقية الأجناس الأدبية كالرواية والقصة والأقصوصة ومفهوماتها كما استبانت له. وطرق أدائها الخاصة والفروق بين هذه الألوان، وهو يرى أن مجال التناول في الرواية أكبر وحريتها أرحب، وتقل عنها القصة، أما الأقصوصة فإنها أقرب إلى الشعر.

ولغة القصص والمسرحية عنده والعربية الفصحى، التي ينبغي تطويعها لتناسب الوقت.

أما الفصل الخامس من هذا الباب فقد خصصه لدراسة الجانب التطبيقي في نقد سيد قطب، فعرض لصور من هذا النقد، وهو نقد متنوع تناول فيه عددا من الأعمال الشعرية، والأعمال القصصية، والمسرحيات والسير، والتراجم لعدد من الأدباء المعروفين في المنظوم المنثور .

وقد أبان الباحث في تناول هذا النقد التطبيقي عن مدى حرص سيد قطب على تطبيق النظريات والمبادىء التي قرَّرها في تناول كل جنس من الأجناس الأدبية، على النحو الذي سبق في تقرير آرائه النظرية ومدى مخالفته لهذه المبادىء.

أما الباب الثاني فقد خصصه لدراسة التيار الإسلامي في نقد سيد قطب، وقد اشتمل هذا الباب على أربعة فصول:

جاء الأول منها للحديث عن التطور الفكري عند سيد قطب فعرض الأسباب والعوامل التي كوّنت منه كاتبا وناقدا إسلاميا، واستعرض عطاءه الإسلامي ليتضح مدى شمولية عطائه لألوان الفكر الإسلامي.

وقد تخلى في هذه المرحلة عن مجموعة من آثاره الأدبية والنقدية التي رأى ما يخالف اتجاهه الجديد، وارتضى مجموعة أخرى تُصور اتجاهه الجديد وتتفق مع النزعة الإسلامية التي تشبَّع بها قلبه وامتلأت بها عواطفه.

وفي الفصل الثاني تحدث عن فكر سيد بين الفنية والإسلامية ذلك أن الدارس يلمح في هذه الفترة، وهي فترة ما بعد الأربعينيات تردد سيد في تناوله للأدب والنقد بين الفنية التي تبناها لفترة طويلة من حياته، وبين العودة إلى النبع الإسلامي يستقي منه ويُبيِّن خصائصه، إذ كان من الطبيعي أن الأفكار التي دعا إليها ونقد على أساسها فترة طويلة من حياته لا يمكن أن تنمحي آثارها بين يوم وليلة، فإن ذلك أمر بعيد المنال في القضايا الفكرية والأدبية والفنية، ومن هنا كان لهذا القديم أثره، وستمضي الأيام حتى تنساه ذاكرته التي شُغلتْ به زمنا طويلا.

ولكن مظهر الإسلامية في هذه المرحلة التمهيدية برز بروزا واضحا في دراسته للقرآن الكريم وأسلوبه الرفيع.

وفي الفصل الثالث درس فكرته النقدية التي انبعثت من روح إسلامية خالصة ونقده في هذه المرحلة الأخيرة يقوم على رسم منهج للأدب الإسلامي تنطلق جميع الفنون على ضوئه وفق التصور الإسلامي.

وقد أصبح لهذا المنهج الذي رسمه سيد قيمة كبرى لدى الدارسين فيما بعد، بحيث يُعد الركيزة الأساسية في كل دراسة أدبية أو نقدية في مجال الإسلامية في الأدب والنقد.

وفي الفصل الرابع درس موقف النقاد والمعاصرين وآراءهم في نقد سيد قطب سواء ما كان منه نظريا، وما كان تطبيقيا وقد قسم هؤلاء النقاد الذين تناولوا أعماله إلى ثلاث طوائف: الطائفة الأولى وهي طائفة الذين قرأوا هذا النقد وأمعنوا في تأمله، وأبدوا إعجابهم به في تلك الكلمات التي أشادوا به فيها والطائفة الثانية نستطيع أن نصفها بالخصومة لسيد قطب وتتبع أعماله النقدية بما يَغُضُّ من قيمتها، وما يُهوِّنُ من أمرها، وهي طائفة مدفوعة في اتجاهها بعامل التعصب والخصومة.

والطائفة الثالثة نظر أصحابها نظرة موضوعية محايدة. فأشادوا بما رأوا أنه يستحق الإشادة من أعماله، ووقفوا عندما رأوه تقصيرا.

ثم ختم هذه الدراسة بخاتمة لخص فيها خلاصة هذا الجهد، وما كشفت عنه الدراسة من الحقائق التي تضع سيد قطب في موضعه الجدير به بين النقاد المعاصرين.

أعجب العجب من أحوال العرب للأعظمي

محمود رداوي
الريـــاض

الأعظمي، عبد الحق حقي / أعجب العجائب من أحوال العرب. ـــ دير الزور : المكتبة العروبية، ١٩٨٣م.

إنه من المؤسف والمحزن حقاً .. أن نقرأ شعراً عربياً أصيلاً، يجسد واقع الأمة العربية في محنها المعاصرة .. ويهز وجدان القارىء العربي، ولا نعرف شيئاً عن سيرة قائل ذلك الشعر.

وإني أسأل الباحثين والمهتمين بدراسة تاريخ الأدب العربي المعاصر: عراقيين وعرب .. لماذا لم ينل الشاعر العراقي عبد الحق حقي الأعظمي اهتماماتهم؟! أثمة دراسات عنه ولم أطلع عليها؟! لماذا ظل هذا الشاعر الكبير مغموراً؟؟!.

واعترف أني لم أسمع بالأعظمي ، قبل أن أحصل على مطولته ـــ بلغت مائتين وستة وعشرين بيتاً ـــ من المفكر العربي السوري (اسماعيل عرفي)، والمسماة بـ [أعجب العجب من أحوال العرب]. وقام الأستاذ (العرفي) بتحقيقها وإعدادها ونشرها هذا العام ، مع كتاب آخر للشاعر، وهو كتاب نثري، اسمه : [العرب والعربية بهما صلاح الأمة الإسلامية وجميع الأمم البشرية).

ويبدو أن أديبنا (العرفي) بدأ في أيامه الأخيرة، يولي اهتماماً بالتراث الفكري الأدبي الأصيل القديم والمعاصر، والذي له ارتباط وثيق بهموم الأمة العربية اليوم .. وبخاصة بعد أن شاهد له القارىء العربي انعطافاً جديداً في الفكر القومي والإسلامي ، من بعد كتبه : (كتاب العرب القومي، في الشعوبية، مقالة في العروبة والإسلام، التثقيف العربي الأمثل، والمدخل إلى التاريخ العربي).

وربما ستكون لنا وقفة عند تلك المؤلفات في فرصة أخرى. ولكن نقول إن الأستاذ (العرفي) هو الآخر لا يعرف شيئاً ذا قيمة عن الشاعر الأعظمي، فلم يذكر في كلمته عن الشاعر والكتاب ـــ الذي بلغ خمسين صفحة ـــ سوى صفحة واحدة تضمنت المعلومات التالية:

المؤلف عبد الحق حقي الأعظمي البغدادي الأزهري .. شاعر وأديب عراقي من أهل الأعظمية، وهي ضاحية من ضواحي مدينة بغداد، ولد عام ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣م، وتوفي عام ١٣٥٤/١٩٣٥م. تكاد تكون حياته مجهولة تماماً «وهو أمر لا يشين هذا الشاعر العربي الكبير، بل يشين هذه العهود العربية الرديئة التي قضت عليه وعلى الكثيرين من أمثاله بأن يكونوا في مطاوي المجهول». ألف الأعظمي الكتابين اللذين ذكرتاهما في (عليكرة) بالهند عندما كان أستاذاً هناك. طبع كتابه [العرب والعربية ..] في عام ١٣٣١ هـ /١٩١٢م، وبعده طبع مطولته [أعجب العجب من أحوال العرب] التي سنقف عندها. وهي فيما يبدو طباعة رديئة، ولكنها تتضمن مقدمة رائعة، لمصطفى صادق الرافعي. وقد ختم الأستاذ العرفي كلمته بقوله: «والكتاب قصيدة شعرية طويلة، تذكرنا بالمعلقات الجاهلية السبع أو العشر المشهورة، وهي قصيدة عروبية جامعة، تصور الأمة العربية ملحمة ومأساة ومرحمة؛ وقد أبدع فيها الشاعر إبداعاً فكرياً

ووجدانياً وفنياً رائعاً، دل بحق على ما يتمتع به من نبوغ شعري رفيع يبوئه مكانة فذة بين الشعراء المخلدين. بينما مقدمة الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي فقد بلغت ثماني صفحات.. كانت قطعة أدبية وفكرية خالدة، ونفحات مضمخة بصياغات فنية وبلاغية، تشف عن روح الرافعي وأسلوبه المؤثر .. وقد دارت المقدمة — وبإيحاء المطولة — حول مضمون ومحتوى وهدف الأعظمي. وكان مما قاله حول انطباع تلك الملحمة على وجدانه هو : «فهذا قريض من الشعر في هذه الرسالة، نفثته الغيرة الاسلامية، والأريحية العربية على لسان قائله الفاضل، فثار به ثوران البركان، واندفع اندفاع الزلازل، يهز الشرق الاسلامي من الأركان. وقد تناول فيه مجد العرب، فبكى ما وسعته الدموع، وزفر ما استطاعت له الضلوع؛ وأرسل كلاماً، لو أبصرت الدهر لرأيته متحفزاً يصغي إليه، ولو نطق المجد نفسه لما زاد في وصف نفسه عليه».

ويستمر على هذا المنوال في حماسه وإعجابه وتقديره .. ويصل إلى أن يعتبر تلك الرسالة — أو الملحمة — من الصيحات الانسانية في تاريخ الأرض، والتي نراها تقذف في أسماع الأمم «للعبرة أو الموعظة أو الزجر أو التأديب أو العناية أو الهداية».

وإن كل ما يقال عن تلك القصيدة الطويلة هو صحيح، وإننا نرى في شعر الأعظمي ما يؤكد على أن الشعر ما زال قادراً على أن يكون مرآة للواقع والحياة والعصر .. وما زال ملهماً أو معجزاً وباعثاً لقيم روحية ووجدانية في النفس الانسانية. ما زال فيه من الجاذبية التي تمتص المرارة والألم .. ما زال الشعر قادراً على ترجمة المآسي والنكبات والمحن.

إن مطولة الأعظمي [أعجب العجب من أحوال العرب] ترينا حالنا وواقعنا. فإذا كنا نريد أن نرى وجوهنا، ونستشف أعماق نفوسنا — بعدما اعتراها الخنوع والانكسار والهزيمة والذل والقهر — فلننظر في مرآة الأعظمي الشعرية، فهي التي تعكس واقع العرب المتردي، وترينا الحقيقة كاملة. ومن هنا يقاس خلود الشعر بمقدار شفافية تلك المرآة الصقيلة التي ترينا الحقيقة باستمرار وعلى مر الزمان.

في شعر الأعظمي طاقة عجيبة على شحن النفوس، من خلال تشقيق الفكرة الواحدة، والدفقة الشعورية المتوالدة. يستمر في شحن الطاقة الفكرية والوجدانية.. على نفس واحد من الإثارة والإشراق والسمو والطهارة. فيستمر الأعظمي في عملية جلي وشحن للوجدان حتى آخر لحظة في شعره؛ وحين يحافظ على نسبة الطاقة الفكرية والوجدانية في الأعماق، فإنه يحافظ على وقدة المشاعر والأفكار حيال الواقع المعاصر.

ومع أن صيحة الأعظمي العربية مرّ عليها أكثر من ستين عاماً، فما زالت وقدتها تلامس النفوس في أيامنا، فتستنهضها وتثيرها وتلهبها.. وكأن ما كان يعانيه ويحسه الشاعر الأعظمي آنذاك حيال أمته العربية، هو ذات المعاناة والتجربة التي تمر بها وتعانيها اليوم. فما زال الواقع متردياً، والأمة مستكينة، والأحوال العربية مريبة ..

فكان الشاعر الأعظمي متألماً، وثائراً، وعنيفاً .. يتجرع كل مرارة ذلك الواقع المشين، ويحمل كل هموم أمته، فكانت صرخته حادة ومدوية، تنطلق من نياط قلبه .. ليهز كل جماهير أمته. وإن تلك الصيحة ظلت مدوية عبر عشرات السنين الماضية. وها هي ذي أصداؤها تتعالى من جديد، وتقرع الأسماع .. وبإيقاع مثير، وبدوي مرعد.

وكأن الأعظمي قد بُعث من قبره، على واقع الأمة العربية الجديد، أو كأن هذا الواقع الكئيب هو ما أيقظه، وأصعقه .. فانتفض ليعاود صيحاته، ولكن بصوت أعلى أو أحد، لأن الواقع أمرُّ وأثقل.

ولنتعرف — بعد ذلك كله — على عالم الأعظمي الشعري عن كثب، ونقرأ مطولته التي بلغت مائتين وستة وعشرين بيتاً، كما ذكرنا. وقد قسمها إلى أفكار بارزة هي على التوالي :

تحية ودعاء (أربعة عشر بيتاً)، وسيرة العرب العالية في الأيام الخالية أو مظاهر رضى الجبار عنهم (ثلاثة وسبعون بيتاً)، وأحوال العرب الخاسرة في الأيام الحاضرة أو مظاهر غضب القهار عليهم (أربعة وتسعون بيتاً)، وخطاب (ثلاثة وعشرون بيتاً)، ودعاء وابتهال إلى رب العزة والجلال (اثنا عشر بيتاً)

كما تضمن الكتاب أو المطولة، إهداءً من بضعة أسطر نثرية لا تخلو من المحسنات البديعية، التي هي — فيما يبدو — من خصائصه النثرية .. كما في الأفكار البارزة السابقة، وفي مجمل كتابه النثري [العرب والعربية]. ولكنه نثر مشحون بالعواطف

القومية والدينية، ويجسد فيه حبه وإخلاصه لأمته العربية. يقول: «أقدم هذه الغُرَرَ الواضحة ــ من ماضي العرب العظيم، والعرَرَ الفاضحة من حاضرهم الأليم، إلى أمراء الجزيرة الأخيار، ومشايخ قبائلها الكبار والصغار، وإلى أعيان الأمة في سائر البلاد، وأبنائها في كل صقع وناد، وإلى جميع علمائها وأدبائها وشعرائها وأهل الفضل وأرباب الفهم والعقل وذوي الألباب والأفكار فيها، وإلى كل من ينتسب إليها، ويعد نفسه فرداً من مجموعتها، على اختلاف مللهم، وتباين نحلهم، وتجافي بلدانهم، وتباعد أبدانهم، وتخالف معتقداتهم ومذاهبهم وأزيائهم ومشاربهم. راجياً منهم القبول، وتحقيق السول، وإنالة المأمول ، والله ولي الهداية، والتوفيق وهو الهادي إلى أقوم طريق».

وإن تلك المشاعر في الالتزام القومي والمسؤولية الوطنية لتتجلى في دعوته الصادقة إلى كل أبناء الأمة العربية، قادة ونخبة وأفرادا ــ كي يتبصروا واقع أمتهم الأليم من خلال بعث أمجادها ومكارمها الماضية.

ويلاحظ على الشاعر إعجابه بقادة الجزيرة العربية في مطلع القرن العشرين، إذ بدأ إهداءه بهم، وكذلك بيته ودعائه لهم قبل غيرهم في قسمه الأول. وكأن هذا التعاطف والتقدير رمز لنقاء وخلو تلك الديار من آثار الاستعمار ومظالمه ومفاسده وأنواعه الفرنسي والبريطاني والطلياني؛ وهيمنته على جميع أقطار الأمة العربية.

فبعد أن يقدم الأعظمي «هداية القرآن العظيم» بـ [واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا..] إلى آخر الآية، نراه يبدأ تحيته ودعاءه للجزيرة العربية، التي تمثل تباشير الأمل والتفاؤل .. لا سيما بعد أن عمت أرض العروبة والإسلام عوامل التجزئة والفساد والضعف والإلحاد .. فحين يدعو لها بالخير:

حيّا الجزيرة هطالٌ من السحب جزيرة العربِ العرباءِ في النَّسَبِ

لأنها ما زالت أمل الأمة العربية، لما تتمتع به من ندى، وهدى، وخيرات، وأفق، ومنعة ، وبصيرة ورشد في القيادة، واعتصام بحبل الله، والدعوة إلى الوحدة والتآلف، ونبذ الفرقة والتنازع، وتجنب ما يصيب الأوطان والشعوب الأخرى من سوء ومكاره ..

وتختلط تلك الدعوات والتحيات ببعض ، وتخرج من دائرة الجزيرة لتشمل الأمة العربية بأسرها لأنه :

ما أمةُ المجدِ في التاريخ أجمعِهِ .إن يُذكرِ إلا أمةُ العربِ

ويدخل بنا الشاعر الأعظمي أروقة التاريخ العربي، ويشير بأصبعه وبلهفة جوارحه إلى الأمجاد والمكارم .. وإننا لنعجب ونفخر معه بما احتواه معرضه من ألوان وأشكال رفيعة لشخصية الأمة العربي، والتي تحدد معالم خصائها وسماتها .. ونحن وإن كنا نعلم تلك الصفات العربية، ونعرفها جيداً، ولكنها تجيء من الأعظمي بشعر حماسي يحتوي تاريخ العرب بمختلف عصوره الحضارية: في الجاهلية والإسلام، وعصر التمدن والازدهار الحضاري. ومن تلك الخصال والمثل، التي بزت بها الشعوب الأخرى: الأصل، والنبل، والأخلاق، والأدب، والحفاظ على الشرف، والمروءة، والنجدة، والوفاء، والإباء، والعزم، وحفظ الجوار، والبسالة، والرأي السديد. إلى آخر ما هنالك من المثل التي لا تحصى .. فقد :

حازتْ خصائِصَ جُلًى أشرقتْ فبدتْ
منها نُجومُ السَّنا العالي منَ الحَسَبِ

وحتى في جاهليتها وبداءتها فقد :

كانتْ لديها خِصالٌ جَمَّــةٌ كَرُمَتْ
في نفسِها دُفِنَتْ كالتِّبرِ في التُّرَبِ
وفي البــداوةِ إذ كانتْ مُحافِظَــةً
على مِراسِ الرِّماحِ السُّمرِ والقُضُبِ
كانت كسدٍّ حديــدٍ ليس يَحْطِمُــهُ
حَطْمٌ وكانت شعوبُ الأرضِ كالخَشَبِ

وفي مدينتها، وفي عصرها الذهبي الحضاري فقد :

بَنَتْ على الأرضِ أطواداً رواسِخَ من
ممالِكِ العلــمِ والعِرفَــانِ والأدبِ
فَإنْ تُرِدْ عِلْمَ ما فاقتْ وما سَبَقَتْ
به الأنــاسِيَّ من جِدٍّ ومــن دَأبِ
فاستنطِقِ الكُتْبَ عنها إنها حُفِــظَتْ
في الخالِدَيْــنِ من الآثارِ والكُــتُبِ

وإن الأمة العربية حين تتميز عن أمم الأرض، فلأن الله حباها بجليل المحامد والمآثر، ولتكون لها رسالة خالدة إلى العالم، تطهره وتصلحه، وتسود الدنيا والناس بعدلها وعلمها :

يا أُمةً ربُّها للناسِ أرسَلها
من بعضِ رحمتِهِ تُنجي من الكُرَبِ
وَبثَّها في جميعِ الأرضِ طاهرةً
تُطَهِّرُ الخَلْقَ بالطَّاعاتِ والقُرَبِ
أعدَّها لِصَلاحِ الكونِ فاندفعتْ
كالسَّيلِ مُنْحدراً يجري إلى حَبَبِ
سادَتْ فَسادَ بها عَدْلٌ ومعرفةٌ
على الأنامِ بلا ظُلمٍ ولا رَهَبِ
لا قبلَهُمْ رأتِ الدنيا ولا عرفَتْ
من بعدِهِمْ مِثْلَ عدْلِ الفاتحِ العربي

ويسترسل الأعظمي يفيض بشتى القيم والانتصارات التي حققها العرب في تاريخهم المشرق وأحرزوا تفوقاً في الحكم والقيادة والفكر والعلم .. وفي مختلف أوجه الحضارة. ثم يُبرِزُ أخيراً عامل ذلك التفوق الحضاري، ويقف عنده، ليعيه العرب كحقيقة لا ريب فيها .. ويتلمسوه في عقيدتهم، وهي أنهم :

دعوا إلى الدينِ فالمُسْتَمسِكونَ به
مِسْتَمسِكونَ بحبلٍ غيرِ مُنْقَضِبِ
دعوا إلى وحيِ رَبِّ النَّاسِ يُرْشِدُهُمْ
إلى النَّجاةِ ويحميهمْ من التَّبَبِ
دعوا إلى سُنَنِ الخلَّاقِ يَعْصِمُهُمْ
في كُلِّ أمرٍ مع الإذْعانِ والرَّغَبِ
إلى تعاليمِ رَبِّ العالَمينَ دعوا
في هَدْيِ خاتَمِ كُلِّ الأنبيا العربي

وكأن الأعظمي يريد التأكيد على دعوة الجدود الدينية بأنها دعوة ضرورية، تتطلبها كل أيامنا .. وبخاصة عندما تتردى الأمور، وتدلهم الدروب.

وإذا كان الأعظمي في قسمه السابق، قد اعتبر الاشعاع الحضاري للعرب مظهراً «من مظاهر رضى الجبار عنهم»، فإنه في قسمه التالي يعتبر ضعفهم وتخلفهم في العصر الراهن مظهراً «من مظاهر غضب القهار عليهم». فيقدم لنا في لمحة نثرية سريعة — وبأسلوبه المعتاد — تعريفاً شاملاً لما آلت إليه [أحوال العرب الخاسرة في الأيام الحاضرة]، وما افتقدوه من عز وسلطان، وما لحقهم من تدمير واستعمار وتفكك وتجزئة وتمزق، وضياع للقيم والأخلاق، وتبدل «اليسر بالعسر، والحلو بالمر، والرفعة بالسقوط، والرجاء بالقنوط، والرقي بالصبب، والراحة بالتعب، والخصب بالعَشَب، والنشاط بالكسل، والعلم بالجهل، والحرية بالعبودية، والاستقلال بالتبعية».

فأمة ذاك ماضيها، كيف يتبدل حاضرها؟ وماذا دهاها؟ وكيف تضيع أمجادها وحضارتها، فتجيش عواطف الأعظمي، وتستعر نار غضبه، ويحمل هذه الأمة مسؤولية المصير المظلم، والواقع المشين، فتتناوشه شتى انفعالات الغضب والنقمة والتوبيخ والتقريع والذم :

يا أمة ذاك ماضيها الذي عُرِفَتْ
منه بمجدٍ صريحٍ غيرِ مُؤْتَشِبِ
ماذا دهاكِ فقد أصبحتِ هاويةً
مهاوي الذُّلِّ من حَيْنٍ إلى عَطَبِ
بم ابتُليتِ وماذا قد مُنِيتِ به
فصرتِ من بعدِ خفضِ العيشِ في نصَبِ
قذفتِ بالمجدِ في مهوىً لو انحدرتْ
فيه النجومُ غدتْ فحماً بلا لَهَبِ
مهوىً من الذلِ نائي الفور مُمتلِىءٍ
من المصائبِ بالأرزاءِ والنُّوبِ
واللهُ ليس بظلامٍ لأعبُدِهِ
فلا يُغَيِّرُ من حالٍ بلا سببِ
ماذا أصابكِ هل داءُ الفناءِ جرى
في جسمِ شِعبِكِ مجرى السمِّ في العَصَبِ
ورثتِ من غُررِ الأحسابِ شادخةً
تضيءُ ضوْءَ فِرِنْدِ السيفِ ذي الشُّطَبِ
وخلَّفوا لكِ أمجاداً مُؤَثَّلةً
وخلفوا سيرة كالأفقِ ذي الشُّهُبِ

وخلفوا لكِ مُلكاً غيرَ مُنصَدِع
وخلّفوا لك أمراً غير مُنشَعِبِ
وخلفوا الدينَ والنورَ المُبينَ وفي
كليهما كلُّ عزٍّ حاضِرِ الأُهَبِ
فرَّطتِ في إرثِهِم تفريطَ ذي سَفَهٍ
لا يستقرُّ له جِدٌّ على اللَّعِبِ
وهل تُحسِّينَ بالحال التي انعكستْ
أم أنتِ قد صرتِ حقاً أعجبَ العَجَبِ

ورغم أنه مضى على مطولة الأعظمي أكثر من ستين عاماً، فإننا نحس أنه يخاطب هذا الجيل، وواقع هذه الأيام السياسية والقومية .. يخاطب الحالة السيئة التي تتردى فيها الأمة العربية .. نحس وكأن العرب قد استكانوا واستسلموا لحياة الذل والقهر والضعف والجهل والأنانية .. وقد نأوا عن حياة الأجداد وقيمهم ومثلهم وأصالتهم نأياً لا عودة إليها.

إننا نحس قهره وألمه، فالمعاناة صادقة، والخطب عام، والعرب كلهم شركاء بالمصاب، متهمون بما أصبحت عليه الأمة العربية من نهب وسلب وانهيار وذل وضعة وفرقة :

يا أُمةَ العزةِ القعساءَ مالكِ قد
أصبحتِ نهباً بأيدي كلِّ مُنتَهِبِ
أصبحتِ في ضَعَةٍ ما مثلها ضَعَةٌ
وما كمِثْلِ الذي قاسيتِ من تعبِ
أصبحتِ فائضةً بالذلِ خائضةً
في مَنْقعِ السوءِ للأذقانِ والرُّكَبِ
وَبِتِّ في نُوَبٍ للظَّهْرِ قاصمةً
لم يذكروا مثلها في سائِرِ النُّوَبِ
وَبِتِّ لا أنتِ في عيرٍ إذا ذُكِروا
عِيراً ولا نفيرِ السَّادةِ النُّجُبِ
بل في تَفَرُّقِ شَمْلٍ واختلافِ هَوَىً
وفي تَخاذُلِ سادات وفي عَطَبِ

ويسترسل الأعظمي فيما ضيعه العرب في حاضرهم من مُلك وديار وأوطان مجد وأطناب عز .. ويركز كثيراً على المصير العربي المأساوي..

وكأن الشاعر منذ عشرات السنين كان يقرأ المستقبل، ويستشرف أبعاده ومرارته :

فأصبحَ العِزُّ في ذُلٍّ وفي ضَرَعٍ
وأصبحَ الأمنُ في ويلٍ وفي حَرَبِ
وآلتِ النعمةُ العُظمى إلى نِقَمٍ
وحالتِ الحالُ في فقرٍ وفي سَغَبِ
وأصبحَ العربُ الأمجادُ قاطبةً
عن مجدهم وعن الأوطانِ كالغُرَبِ

ثم يجري مقارنة بين الأمس واليوم بأبيات كثيرة، ولا ينضب له معين، ولا تهدأ ثورته، ولا يسكت غضبه، وإن في تلك المقارنة لمفارقات صحيحة ومخجلة يند لها الجبين العربي .. ويظل كلام الأعظمي ينسحب على الواقع العربي الراهن .. فيما كانت عليه الأمة العربية وما أصبحت عليه. ويختم تلك الموازنة ببيت يلخص انهيار كل الأمجاد العربية :

يا عُرْبُ كلُّ الذي قد كان من مِدَحٍ
في مجدِكُمْ عادَ للرائينَ من نُدَبِ

ولكن ما هو العلاج؟! وأين طريق الخلاص؟ وكيف السبيل مما تردى فيه العرب؟! فيراه شاعرنا في الدين، كما رأيناه في مواقف كثيرة، فإعراض المسلمين والعرب عن أمر الله، وممارستهم نواهيه .. كانت سبب كوارثهم ومآسيهم الوطنية والقومية والاجتماعية ..

يا أمةَ الرُّشدِ والإرشادِ إنكِ عن
تلك المراشدِ قد أصبحتِ في نَكَبِ
نسيتِ ربكِ نسياناً دعاهُ لأن
أنساكِ نفسكِ في الطاعاتِ والقُرَبِ
أعرضتِ عن أمره من غيرِ ما وَجَلٍ
وسرتِ في نهيه من غيرِ ما رَهَبِ
فسلَّطَ اللهُ فينا من عُقوبتهِ
ما لم تزالي به في الهمِّ والتَّعَبِ
لئن رجعتِ إلى الطاعاتِ من كَثَبٍ
لتظفرِنَّ بحَولِ اللهِ من كَثَبِ
وإن بقيتِ علَى ما أنتِ فيه فلا
مَفَرَّ من نقمةِ الجبارِ والتَّبَبِ

شرٌ بشرٍّ ومن يَعْمَلْهُ يلقَ ومَــنْ
يزرعْ من الشوكِ لا يَحْصُدْ من العِنبِ

وحين يصل بنا الأعظمي إلى قسمه المعنون بـ [خطاب]، يمهد له بمقدمة نثرية يحض فيه «البقية الباقية من أمة العرب» ونخبتها .. عسى أن يأخذ بخطابه القادة الأخيار، والرجال الأفذاذ .. عسى أن يرى كل مسؤول — ومن موقع مسؤوليته — أنه هو المعني في هذا الخطاب؛ ليبادر إلى استرجاع كل مسلوب منتزع من الأرض العربية .. وقبل أن يستفحل الخطر، وتستحيل العودة إلى ما خلفه الأجداد لنا من أمجاد. يخاطب تلك الصفوة من أبناء يعرب الذين طال نومهم وغفلتهم وتقاعسهم وتخليهم عن دينهم ومآثرهم .. فيستثير عزائمهم ويقظتهم كي يهبوا إلى بناء المجد، ونصرة الدين، والسعي لانقاذ الأوطان، والذود عن الأعراض، ثم يختم خطابه بالقول عما تمادوا فيه من نوم وفرقة وجهل:

كفى مناماً وتفريطاً كفى وكفــى
عيباً سواكم به في النّاسِ لم يُعَبِ
كفى افتراقاً كفى جهلاً كفى عَنَتاً
كفى شتاتاً كفى يا أُمّةَ العَرَبِ

ونرى الشاعر الأعظمي في قسمه الأخير، وكأنه قد يئس من دعواته وخطبه وصرخاته .. فلجأ إلى نداء آخر .. إلى الدعاء والابتهال لرب العزة والجلال، عسى أن يسمع صوته، ويستجيب لدعواته .. لأن الله قريب من المؤمنين . وإن في تلك الدعوات والابتهالات فيضاً من الحب والصدق والخير لأمة العرب فما يرجوه من ربه أن ينقذها مما تردت فيه وإنه :

لو لم يكُ العُرْبُ أقوامَ النبي لما
بقوا على ما لقوا في الدهر من نُوَبِ
عاشوا كما عاش (إبراهيم) معجــزةً
في حينِ ترميهم الأقدارُ في اللّهَبِ

وكان الأعظمي في كل شعره، لا يخرج عن ثنائية العروبة والاسلام .. فقد استطاع عبر مطولته أن يؤكد على حقيقة تعانق العروبة بالاسلام، واندغامهما في وحدة شعورية راسخة في العقل والقلب .. من خلال تجسيم آفاتنا وعيوبنا . فقد وضع جيله — وسائر الأجيال العربية المعاصرة — في حيرة وضياع وجهل .. بسبل الخلاص، وأسباب الاخفاق في مواكبة العصر والتقدم. كما انتشلت — في الآن ذاته — من واقعه المتردي .. لينظر إلى أجيال سابقة صنعت قدراً مشرفاً، تمسكها بأصالتها العربية، ونقاء ووحي الدعوة السماوية ..

فكان ذلك العناق — العروبي والاسلامي — هو منطلق أجيالنا الماضية في تألقهم الأمثل .. — لتحقيق مواقف عظيمة من تاريخهم — وبالتالي كان مفجراً لطاقات الأعظمي الشعرية والوجدانية والفكرية. لتكون العروبة والاسلام في شعره وحدة عضوية، كوحدة الروح والجسد.. والسيف بالغمد. وإن أي انفصال في وحدتهما — نظرية وممارسة — لينعكس على تاريخ الأمة العربية ومستقبلها في الحكم والسياسة والمصير. ومن هنا فشلت الخلافة العثمانية في حكم بلاد المسلمين العرب، لأن الإسلام لم تحتضنه قلوب عربية حانية وأصيلة .. فالاسلام قرآن أنزله الله بلسان عربي.

كما أكد شعر الأعظمي — مرة أخرى — في ملحمته العروبية الإسلامية، على أن الشعر العمودي قادر على استيعاب المضمون الحماسي .. بل هو الوحيد الذي يقوى على صياغة الموضوعات البطولية والملحمية، لأن الأحاسيس الوطنية والقومية والدينية، لا تستجيب إلا للشعر العربي الأصيل الكلاسيكي. فإلى اليوم، ونحن نتجاوب مع الأصوات التقليدية لشعراء الملاحم الفروسية والبطولية، العربية والإسلامية: من عنترة، فعمرو بن كلثوم، فحسان، فأبي تمام، فأبي فراس فالمتنبي .. فإلى شعرائنا المعاصرين من : أحمد شوقي، فعمر أبي ريشة، وعبد الله بلخير وغيرهم. فقد استطاع هؤلاء الشعراء — وغيرهم — عبر الصوت الشعري العمودي، أن يجسدوا أبعاد وشكل الصوت العربي .. لما في هذا الشعر من أصالة، وأسرار بلاغية وموسيقية، تتملك إثارة الحمية والنخوة العربية والانفعال والحماس العربي .. على مر الأزمنة.

ومن هنا .. فإن قصيدة الأعظمي [أعجب العجب من أحوال العرب] لتلتقي مع ملاحم الشاعر العربي المعاصر (عبدالله بلخير) في طول نفسها، وروحها، ومعاناتها .. حيث كلاهما يحملان هموم أمتهم وواقعها المر .. من خلال بعث التاريخ العربي والاسلامي، وبكل معالمه المجيدة. وكلاهما يصافحان التاريخ مثلما يفعل رواده الأفذاذ.

أكذوبـــــة الصمت والدمـــــار

لعبد الله العتيـق

طـه حـــواس
عمادة شئون المكتبات
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

العتيق، عبد الله عبد الرحمن/ أكذوبة الصمت والدمار — الرياض : دار الرياض للنشر، ١٤٠٣ هـ.

لا شك في أن الأديب عندما يتناول قلمه للكتابة، فإنه يكون مدفوعا بقضايا هامة تشغل فكره وتحرمه الراحة وتصيبه بحمى التوتر .. ويفتش حوله عن الدواء، فلا يجد دواءً شافياً لنفسه غير قلمه، يتناوله ويبثه لواعج نفسه وهموم ذاته .. وهموم القاص عبد الله العتيق كما يبدو من خلال مجموعته القصصية — أكذوبة الصمت والدمار — كثيرة ومتنوعة. ويأتي في أولها:

— **اهتماماته بقضية التطور الحضاري** وما يصاحبه من تغييرات اجتماعية نراها واضحة المعالم من خلال ما يصوره من سلوكيات المجتمع الذي نعايشه .. ففي قصته — تصهل الخيول فلا تنطوي المدينة — يرسم لنا القاص. صورة إنسان القرية الذي يضطر إلى الرحيل إلى المدينة. فتغريه بما فيها من حركة ونشاط وأشياء أخرى لم يرها من قبل بهرته وأثارت نفسه.

« وينهض محلقا. ويسقط في بحار المدينة الرهيبة بأمواجها المضطربة. كل صباح ومساء. دوامة قاسية. ولكنه ينظر إلى الأشياء بسكون وبلادة. والجوع يعتصره من الداخل. خطوات رتيبة على الشارع الممتد، ومطعم على القارعة. يحدق من خلاله بكل الأشياء الصاخبة. والمتحركة . يتجرع الشاي بالتهاب.. فغدا المغامرة الكبرى في غمارها القاسي».

ولكنه عندما عاد إلى القرية كان ما بداخله قد تخلخل..

« وأخذت يداه تعتمل بهمجية في البيوت الترابية الساخرة. حتى انهار ساقطا. يحاول البكاء بحرقة. وخرجت القرية أفواجا منتظمة بصمت وتؤدة. نبذته في الوادي. ثم عادت إلى مكانها».

ويخلع نفسه من القرية ، ويذهب إلى المدينة فيجد ... «في أقصى الشارع يقف رجل تحت المبنى. وجهه إزاء الجدار.. والرصيف خلفه. يطرق بابتسامة رهيبة. وهو يلمح القادم بخفاء .. الرجل يخب تجاهه شارد الذهن. والواقف يوارى يده القابضة على شيء في جيبه .. فتلمحها الأعين فتجحظ .. يزعق الرجل .. وينطلق بذعر .. يركض .. يركض».

أما في قصة «ما جرى بعد تشردها إلى الداخل» فيقودنا في رحلة عبر ذهن فتاة تمضي أيامها تنتظر فارس الأحلام .. وأثناء هذه الرحلة الداخلية كنا في نفس الوقت نطل من نوافذ عقل الفتاة بين الحين والحين إلى ما يحيطها من علاقات اجتماعية في البيت والمدرسة بين صديقاتها من الطالبات. ونتركها وهي تسخر من نفسها .. إذ كيف سمحت لخيالها أن يحلم بشيء كانت متأكدة أنه لن يحدث. حيث أدركت في النهاية أنه ليس من حقها أن تختار.

« رسبتُ في الامتحان. هذا أول الاجازة. حيث الموسم المعتاد. كل زميلاتي يتوجَّسْن خطوات القادم. يتمردن أو يستسلمن وبعضهن يفركن أيديهن في توثب .. وهو أمامي الآن يتسربل بالسكون. فاليوم .. أول يوم أحيا فيه .. اكتشفتُ أنني فتاة بلهاء تسكنها حماقة».

أما القضية الثانية التي تعايش الكاتب باستمرار وكان لها الأثر الكبير على معظم انتاجه فهي وجهة نظره عن العالم الذي نحيا فيه .. عالم الإنسانية في كل مكان .. والذي أصبح مسرحا لأعمال كثيرة من العنف والظلم والقهر .. أعمال يبدو أن لا نهاية لها.. وكاتبنا يعشق الحياة. ويفتش عنها فلا يجدها في أي مكان من العالم .. ويجد في البحث عنها فيلبس طاقية الاخفاء.. في قصته «التحليق في الزمن الأحمر» ويسأل نفسه:ـــ

« ـــ ماذا أفعل ... أقلب الكون؟

أخذ يخطو وفي داخله غمغمة..

ـــ يحكى أن فتاة أُغتصبت ليلة زفافها. رازحة تنوء بالأصفاد. فتعطنت ضفائرها المضطجعة. وتمزقت أسمالها. تطؤها الجحافل كل يوم ولم تمت تنتظر فارسها القادم غدا غدا .. وجدها تمد يدا ضارعة منهكة .. فيجتث الرؤوس الشيطانية الكبيرة .. ثم مسح خديها المحرقتين بالدمع».

وتتضح وجهة نظر الكاتب نحو رفض هذا العالم القابع في مستنقعات الظلم والقهر واللاهدف بصورة أكثر تأزما في قصة «أكذوبة الصمت والدمار» فهو يسأل. ما فائدة استمرار نشاط الحياة في عالم حكم على نفسه بالفناء والدمار. وما دام كل عمل مآله الدمار والفناء .. لأن القهر والظلم ومعاول القسوة ترفع أسواط العذاب في كل مكان حتى ضاعت كلمة الصدق والعدل وسط هذه الضوضاء المجنونة. بل حكموا عليها هي بالجنون.

«اسودت الدنيا .. فغمغموا.

ـــ لا جديد .. فغدا هو الأمس.

صرخ أحدهم :ـــ

ـــ كلا .. فالأمس عبث ودمار. واليوم عمار .. ضحك بيأس.

ـــ ثم ماذا؟

ـــ فلا ندري ما هو .. الـ ...

ـــ إخرس يا غبي

صمتت الدنيا .. ثم انبعثت أصواتهم في الظلام تئن وتنتحب .. وانفجر الصباح .. فوقف أحدهم على ربوة .. يجمع الجمع بإيقاعات الطبلة .. فزعقوا.

ـــ وأنت ماذا تريد أيضا؟

قال بوقار :

ـــ أريد يا سادة أن أحدثكم اليوم عن الأدب والفن .

صرخ آخر بلامبالاة..

ـــ إخرس يا شيخ .. بلا أدب وبلا فن .. وبلا زفت.».

والقضية الثالثة التي تدخل في اهتمامات الكاتب تأتي أيضا نتيجة لما أصاب العالم من فوضى .. إنها قضية الكلمة .. قضية حرية التعبير.ـــ إنه يشك في أن يكون للكلمة دور سلام في هذا العالم .. ويتساءل هل تستطيع الكلمة أن تجد لها سبيلا إلى تخفيف ما يعانيه إنسان هذا العالم من تمزق وضياع..؟ إننا نلمح هذه القضية تطل علينا من مواقف مختلفة متناثرة في المجموعة .. ولكننا نجدها بصورة أكثر تركيزا في قصص.

ـــ أكذوبة الصمت والدمار..

ـــ سقوط الزمن الحاضر.

ـــ فنان يحرق معداته..

ـــ حدث في الليل ..

ففي قصته .. سقوط الزمن الحاضر. يتساءل ..

« ـــ والحياة جهاد وانتصار.

ـــ على أي شيء؟

ـــ على الصخور المبعثرة .. والأدغال والظلام..

ـــ والدنيا ..

ـــ علبة صفيح صدئة»..

وفي موضع آخر من نفس القصة يستمر التساؤل.

«ـــ الفن والأدب كالتدخين تماماً..

ابتسموا لمعادلته فاستأنسوا بالمزيد.

ـــ والعلم ؟

ـــ كسرة خبز جافة.

— الحب ؟.
— أسطورة كاذبة .
— وأنت؟
— زورق في يباب..»

وفي قصة — فنان يحرق مُعداته — يصور لنا الكاتب تجربة فنان تشكيلي يسهر الليالي ويعيش في قلق وتوتر الابداع . وبعد أن ينتهي من لوحته تُرفض ولا تجد من يقدرها ..

وفي قصته — حدث في الليل — نعيش مع فنان تشده ضغوط الحياة بعيدا عن الانتاج. فيعيش في رعب هستيري .. وتنتابه الهواجس..

وبعد هذا الاستعراض السريع لبعض اهتمامات الكاتب .. وهي كما رأينا اهتمامات متعددة النواحي مختلفة الأغراض .. مما يؤكد وعي الكاتب بما يدور حوله من تطورات اجتماعية وقضايا وطنية وعالمية. ولكننا نجد أنفسنا أمام سؤال هام يطرح نفسه دائما في مثل هذا الموقف. وهو ..

— كيف جاءت معالجات الأديب لهذه القضايا؟ ما هو الشكل الأدبي الذي وضعت فيه هذه الاهتمامات؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول :

— حيث أن الكاتب كما يبدو صاحب اهتمامات متعددة ومختلفة. إذن فلا بد وبطبيعة الحال أن يتطلب الموقف منه أن يضعها داخل أشكال أدبية مختلفة حسب ما تقتضيه طبيعة الموقف .. لذلك..

فقد رأيناه رمزيا في قصة — رقصة المسحوق — حيث رسم لنا القاص صورة للتطور الحضاري من حولنا في صورة رمزية موحية .. للتطور الحضاري وأثره في حياتنا ..

« عندما كانت الابتسامة في ذلك اليوم الغابر عصفورة بيضاء .. تضخمت وصارت حمامة حمراء .. وفي إحدى الليالي الحزينة استيقظت لترى نفسها برعب غرابا مبللا بالقار. تحمل في المنقار عقربا أسود . ولما سقط وهي تحلق به .. أخذ الناس ينقبون عنه بوجوه مكفهرة».

ورمزه في هذه القصة بالإضافة إلى أنه يختار بدقة الألفاظ ذات الدلالات الموحية . نراه ينظمها في إيقاع متتابع. يكون به صورة مركبة فيها مقابلات بين الماضي والحاضر والمستقبل. وذلك من خلال وجهة نظر الكاتب تجاه الحضارة وارتباطنا بها .. فهو يعطينا في اللمحات الأولى من القصة كيف جذبتنا الحضارة وشدتنا حتى أوقعتنا في خيوط شباكها .. وفي اللمحات التي بعدها يعطينا صورة عن الحضارة التي جرينا خلفها ووقعنا في حبائلها ..

« وفي ظلام أحس الرجل بطعم الدم .. واللحم النيء بضراوة. ثم شعر ببلادة .. وصفعها . وأخذت أسنانه تمزق لحما طريا. يتبعثر شعر منفوش. يتوسده بالتصاق .. وعنق متقوس .. متشنج. تتأوه الخوف والأمان والألم لذة .. وتشحذ المزيد .. قضم إحدى الحبتين. صعقت .. وخمدت كل الأشياء النارية» ويستمر في وضع الرتوش على اللوحة فيقول :—

« بدأ اللهاث يتصاعد .. بدأ النعاس يأخذ ذراعيها المجهدتين. تخثر اللسان.. اعوجت الخطوات وتقهقرت .. تماسكت .. العرق يذيب الوجه المعصفر المخضب كذوبان الشمع».

يريد أن يقول إننا سندرك في النهاية أننا إنما كنا نجري خلف سراب .. وأن العطار لن يستطيع أن يصلح ما أفسده الدهر .. أو ما أفسدناه نحن بأيدينا. وكما رأيناه رمزيا في القصة السابقة رأيناه واقعيا نقديا — في قصته — القادمة .. حيث أعطانا صورة عن سلوك اجتماعي له خطره على كيان الأسرة والمجتمع. سببه تسابق بعض الأسر نحو اقتناء المربيات الأجنبيات .. ونراه هنا يصل إلى هدفه ببساطة معجزة في التعبير وتصوير الحدث .. فعن طريق الأسلوب المباشر والإيقاع السريع ولغة تخلو من الفضلات والزوائد .. يبدأ في تصوير الحدث بداية غاية في التوفيق..

«اكتأب طفل فبكى .. انفلق الباب عن امرأة سافرة مكتنزة تنوء بحقيبة. عضت ربة البيت شفتيها بتوجس للقادمة المجهولة».

ويتطور الحديث سريعا في نهاية القصة في الصفحة الثانية.

«خرج الزوجان للعمل .. دوار وغثيان أصاب الزوجة. ذكَّرها ذكرى بعيدة .. دلفت عائدة من العمل في هدوء .. جحظت عيناها . أرسلت يدها. أهالت رجماً من الشتائم المتقززة. ثم انهارت على المقعد في بكاء ضعيف. تشحذ فكرها بذهول .. كيف ستنقل لزوجها النبأ».

ونراه واقعيا فكريا في قصة ـــ المسافة لعبة ـــ حيث أن القصة هنا لم تعتمد على الحادثة فقط كما في قصة ـــ القادمة ـــ ولكنها تعتمد على البعد الفكري للحادثة .. فالبرغم من أنها جاءت في أسلوب مباشر وسريع أيضا إلا أنها تضمنت دلالات موحية للمسافة والزمن وارتباطنا بهما .. فالقاص هنا يأخذنا في رحلة داخل سيارة تحمل مجموعة من الركاب. مختلفي الأعمار.. منهم الشيخ المتقدم في السن ومنهم الشاب الذي في بداية طريق الحياة.. وفي المسافة بين بداية السيارة في رحلتها من القرية وبين وصولها الى المدينة تحدث لهم بعض الحوادث المثيرة.

« السيارة لا زالت تمخر الشريط المعلق في الأفق الغابر.
صرخ شاب بنزق :ـــ
ـــ حاسب .. حاسب.

تشبثت الكفرات وانسحلت .. أفاق النائمون بهلع. واطلقوا اللعنات. واسترد السائق أنفاسه
ـــ كاد أن يودي بنا هذا الجمل الآبق».

وتستمر الرحلة .. وعندما يمرون بسيارة معطلة على الطريق يسألون الله العافية والستر .. وبعد مسافة ينزل الشيخ.

« ـــ الحمد لله وصلتُ ربعي.

تأبط صرة أغراضه. بصق. أرسل بصره للأفق بنشوة .. واحتضنته الصحراء جذلانا.» وبعد مسافة أخرى. «حوقل الركاب لمرأى حطام شاحنة تلتهم حمولتها المتناثرة أعين الركاب بحزن ومرارة. تكاثف السواد الهابط.. وبدا الطريق موحشا وأبصرنا أضواء المدينة عن كثب. فانشرحت غير مصدق. الحيوية تكهرب الأبدان المحيطة. صخبنا بأحاديث متباينة. وتقشعت السحابة السوداء .. فلم نشعر بالمدينة الصاخبة عندما كانت تلتهمنا».

هذه باختصار هي قصة ـــ المسافة لعبة ـــ وهي بالإضافة إلى مستوى الحادثة.. فإن لها دلالة أعمق. حيث تريد أن تقول إننا في قبضة الزمن. وأن حياتنا مرتبطة به في حدود معينة.. فلكل منا مسافة معينة وعندها لا بد له من الخروج من اللعبة ـــ لعبة الحياة، والتي نستعجل الخروج منها ولكننا لا ندري..

ونحن إذا أمعنا النظر في قصص المجموعة فسنجد أن الاتجاه العام لها أو الغالب عليها هو الاتجاه إلى الواقعية النفسية.. ويأتي هذا نتيجة للقراءات الفكرية وإنتاج علم النفس خصوصا في مجال التحليل النفسي .. بالإضافة إلى ما يحدث في العالم من خراب ودمار وقهر. وعلى مسمع ومرأى من الجميع وكأن سكان هذا العالم قد صمموا باختيارهم على دفعه إلى هاوية الدمار..

ومن هنا يأتي احساس الكاتب بالغربة لأنه يدرك أنه يعيش في عالم لا يفهمه. عالم لم يعد عالمه الذي كان يحلم به. لذلك كان انسحابه إلى داخل نفسه. يتأملها. لعله يجد عندها العزاء. ومن هنا أيضا رأينا الكاتب يتساءل في قصته **«ينهش الأمس ويلفظ الحاضر»**

«فمن أكون؟ سقوط.. موت. عبث في بنية العالم ليتخلخل أو ينهار. أهذا هو الوجود؟ أصم أذنيَّ عن كل شيء؟ لأني لا أفقه أي شيء؟؟ هذه يا سادة قصتي مع الليل. كل لحظة أشعر برغبة في النحيب. لكن هياجي الصامت تأجج عندما قلبت الطاولة. وصرخت وأنا أحطم الزجاج .. وكل شيء في الحفل الرتيب».

وفي قصة ـــ أكذوبة الصمت والدمار ـــ تبلغ الأزمة قمتها حيث يصور لنا الكاتب قسوة العبثية والضياع في العالم..

« ولا عالم ولا كلام فارغ.
فتجلت عيناه عن خيبة أمل وهو يستجدي الانصات رفع يده.
ـــ يا متخلف.

صرخ باحباط .

ــ ولا بحتى اختراعات؟

جحظت أعينهم. وبنزق مذعور.

ــ أتقول اختراعات يا لعين .. يا معدوم الضمير.

وتفرقوا يتضاحكون. وهو يئن تحت الركام».

كما يرفع الكاتب صوته أيضا في قصته ــ التحليق في الزمن الأحمر ــ

«حدث أن هبط الظلام. انتشر على نفوس آمنة سعيدة .. فضاقت قلقا وهما. إن العالم الساكن يدق أجراسه كساعة بلا توقيت. وأن الخيول انطلقت داخل إنسان مصفد الأغلال. فيقبل لابسها ولا يدري ماذا يفعل وسط الصخب الملعون؟ أراني في خلوتي أسيطر عليه كتفاحة في راحتي. وأراني تحت أقدام الزحام طاقية بلا مصباح علاء الدين. كإنسان بلا هذه الطاقية .. صراع الجمجمة الملغومة بأفكار وعقد وهموم الدنيا العبثية».

والقصة النفسية .. ترفض ما قد نجده أحيانا من القصة التقليدية .. فهي تخلو من الوصف الخارجي إلا بالقدر الذي يخدم التطور الداخلي للشخصية ولا تميل إلى السرد المباشر أو الأسلوب الفضفاض كما أنها ترفض أيضا أن يطل الكاتب برأسه بين السطور من وقت لآخر ليعلق على موقف أو يبدي رأيا ما..

ولكنها تحتاج إلى أسلوب أقرب ما يكون إلى الصياغة الشعرية ولا تخضع لغتها بالتالي للإدراك المباشر ولكنها تنطق بالرموز والإشارات والايماءات التي لا تخبرنا عن مجرى الواقع بقدر ما توحي إلينا بصدى هذا الواقع. وهي تروى عادة بضمير المتكلم وذلك لإضفاء طابع التجربة الذاتية على العمل الأدبي..

وقد تروى عن طريق استبطان الكاتب للشخصية القصصية بحيث يضعنا وإياه داخل ذهن الشخصية. نرى ما تراه ونفكر بما تفكر فيه .. ويكون ذلك الاستبطان عادة عن طريق ــ المونولوج الداخلي ــ أو عن طريق ــ تيار الوعي ــ

والمونولوج الداخلي .. هو ككل مونولوج .. هو حديث شخصية معينة الغرض منه أن ينقلنا مباشرة إلى الحياة الداخلية لتلك الشخصية دون تدخل من المؤلف، إما بالشرح أو التعليق .. وهو حديث لا مستمع له لأنه غير منطوق .. ونجد مثالا لهذا الأسلوب في قصة ، «ما جرى بعد تشردها في الداخل».

وتيار الوعي .. هو الكلام غير المسموع وغير الملفوظ الذي تعبر به الشخصية عن أفكارها الباطنية والتي تكون أقرب ما تكون إلى اللاوعي .. وهي أفكار ترد إلى ذهن الشخصية ولا تخضع للتنظيم المنطقي، لأنها سابقة لهذه المرحلة .. ويتم التعبير عنها بعبارات قصيرة. ذات إيقاع سريع تأخذ القارىء في شطحات ذهنية عفوية. الغرض منها الايحاء للقارىء بأن هذه هي الأفكار عند ورودها إلى ذهن الشخصية». ونجد مثالا لهذا الأسلوب في قصة ــ هل ضاعت؟ ــ

ويلاحظ هنا أن الكاتب لا يتعمد صياغة شكل معين. ولكننا نرى أن الفكرة هي التي تنادي شكلها الذي ترتاح إليه، وبطريقة عفوية غير مقصودة..

والملاحظ أن الصفة العامة للأفكار التي تضمها المجموعة تدور حول أزمة الفرد تجاه الواقع المعاش..

ولغة الكاتب لا تنقصها الشاعرية، حيث أننا نجده يختار الألفاظ ذات الدلالات المكثفة. ذات الإيقاع السريع، مما يشد القارىء إلى داخل العمل الأدبي ويتعايش معه في سهولة ويسر .. ونلمس هذا في الحوار الآتي من قصة التجلي في بحيرة الأحزان.

« ــ عيناك بحر واسع وعميق .. وكل ثنية من عودك تشف القيعان.

طق العلك بين ثناياها. بدلال مفتعل.

ــ أوه .. أنت تبالغ.

ــ أنا عبدك ولتسمل أعين من يبخسك.

ــ كلامك جد غريب.

ــ لم أشرب في مدى العمر وجها.

تحاول نظراتها الصعود، فتمتمت.

ـــ فلم العجلة يا لئيم؟

لوحت له بأناملها مودعة وهو يستقبل القادمين طفلة رأسها على صدر أمها.

ـــ أنا خائفة.

ـــ من زوجك؟

ـــ بل من الموت.

ـــ سوف يذهب بك إلى أراجيح الأطفال.

ـــ وأولادي؟

ـــ عند المربية.

ـــ لكن لا زلت طفلة.

ـــ ستزدريك الأعين.

ـــ أنا ضائعة.

ـــ لن تموتي .. صدقيني لن تموتي.

ـــ متى سأخرج؟

ـــ عندما ينكفيء الميزان.»

وفي قصة ـــ الرحلة ـــ

نجد هذا الأسلوب أيضا في تصويره أزمة إنسان يحس بالشيخوخة تدب إليه مسرعة. فينتابه القلق والرعب وتساوره الوساوس .. فيحدث نفسه..

« ـــ هل يستطيع ايقاف الزمن؟

التفت إلى زوجته بصخب:

ـــ أترين سبيلا لإيقافها؟

ـــ أرى ضربا من العبث.

حدق بها مليا فشعر برغبة إلى الانزلاق في النحيب. دفن رأسه بين راحتيه. زوجته تتأمل جسمه يهتز. فيهتز كيانها. لكن عينيها نابضتان. انتهى زمن البكاء والنشيج. وأسبل عينيه في الأرض وهو قابع تحت الشجرة. أنامله طفقت في هدوء تعبث بالحصى. وعلى أديم الأرض تخط وترسم. رفع رأسه إليها ، شعر بالصغار وهتف:

ـــ ماذا تريدين؟

ـــ جسدي يترهل. وبدني في انهيار.

ـــ من أنا؟ من يقدر على إيقاف الزمن؟ تأمليني جيدا .. لم أعد كما كنت».

هذا ..

غير أننا نرى أن التوفيق يجانبه أحيانا في بدايات بعض القصص، حيث لا يستطيع أن يشدنا إليه من البداية .. كما تتطلب القصة القصيرة .. وكما رأيناه في قصة ـــ القادمة ـــ حيث بدأها بداية استحوذت على لب القارىء من أول كلمة.. «أكتأب طفل فبكى. فانفلق الباب عن امرأة سافرة». أين هذه البداية من بداية قصة ـــ من يلبس أحداقي مرة ـــ حيث نراه يبدأ القصة بأسلوب فصفاض متهيب. رأيناه أيضا يتخلل نسيج بعض القصص الأخرى في المجموعة.

كما نراه في بعض المواقف يطل معلقاً ليؤكد الفكرة للقارىء غير أنه لو ترك سياق القصة في انسيابه الطبيعي لأدرك القارىء ما يرمي إليه الكاتب. غير أنه يبدو أن الكاتب لا يثق بذكاء القارىء في بعض الأحيان..

وبعد هذا العرض السريع للمجموعة القصصية ـــ أكذوبة الصمت والدمار ـــ للقاص ـــ عبدالله العتيق استطيع أن أقول إن الكاتب قد أضاف إلى الأدب السعودي في مجال القصة القصيرة عملا يُعتز به ـــ خصوصا إذا عرفنا أن هذا هو العمل الأول للأديب.. وأديب هذه بدايته وهي كما رأينا بداية شقت طريقها إلى عالم القصة القصيرة بنجاح وخطوات واثقة، لا نملك إلا أن نشد على يديه مهنئين بكل صدق واعتزاز.

تصنيــــف ديــــوي العشـــــري

السيد حسين صادق

عمادة شؤون المكتبات

جامعة الملك سعود

مقدمة:

خطة تصنيف ديوي العشرية هى أقدم وأشهر خطط التصنيف المعروفة لتصنيف المعرفة، حيث وضع قواعدها الأمريكي ملفيل ديوي عام ١٨٧٦ وتصدر باللغة الأنجليزية، ومن مميزات هذه الخطة أنها تصدر في طبعات متلاحقة، تحاول كل طبعة أن تتجنب عيوب الطبعة السابقة لها وتحاول اللحاق بالتطور الطبيعي في مجال المعرفة البشرية، وأحدث هذه الطبعات هى الطبعة التاسعة عشرة التى صدرت عام ١٩٧٩.

ولأسباب عديدة لاقت هذه الخطة نجاحا عالميا لم تلاقه خطط التصنيف الأخرى اللاحقة لها، حتى أنها قد ترجمت كليا أو جزئيا إلى معظم لغات العالم مثل الفرنسية والألمانية والأسبانية والبرتغالية والنرويجية والروسية والمجرية والتشيكية والتركية واليونانية والصينية واليابانية بالاضافة إلى اللغة العربية.

وبدءاً من العقد السادس من هذا القرن بدأت هذه الخطة في الانحسار نظرا للانفجار الهائل في المعلومات الذى شهده العقد الأخير من هذا القرن، حتى أن موضوعات جديدة قد استحدثت أو انشطرت أو أندمجت مع غيرها، وحدث تداخل بين موضوعات المعرفة البشرية أدى الى وقوف خطط التصنيف الحصرية ـــ ومنها خطة تصنيف ديوي ـــ عاجزة عن التعامل مع هذه المعلومات، وهنا نشأت ما يعرف بخطط التصنيف «التحليلية والتركيبية» التى يأتي تصنيف الكولون للعالم الهندي رانجاناثان في الصدارة منها وتميزت بقدرتها على تصنيف المعرفة في أشكالها الدقيقة أو المعقدة أو المتداخلة وأثبتت صلاحيتها لتصنيف المعرفة في المكتبات الكبيرة أو مراكز المعلومات المتخصصة، وأصبح نظام تصنيف ديوي العشري ملائما لمستوى المكتبات المدرسية أو المكتبات الصغيرة.

المعالجة العربية لنظام تصنيف ديوي العشري:

حظى هذا التصنيف باهتمام المكتبات والمكتبيين في الوطن العربي ولا يزال هو النظام المستخدم في معظم المكتبات كبيرها وصغيرها، جامعية كانت أو عامة أو مدرسية، ولذلك فقد بذلت العديد من المحاولات الفردية لتعريب هذا النظام، وكانت هذه المحاولات تهدف الى تحقيق أمرين:

الأول: إيجاد صيغة عربية لاستخدامها في تصنيف الكتب العربية.

الثاني: معالجة القصور في الخطة ـــ الأمريكية المنشأ ـــ جهلا أو تجاهلا بالموضوعات الاسلامية والعربية خصوصا في مواضيع علوم الدين الاسلامي والأدب العربي والتاريخ العربي الاسلامي.

ومن الأمثلة الشهيرة على تعريب هذا النظام نذكر ما يلي:

ـــ يوسف أسعد داغر. دليل الأعارب الى علم الكتب وفن المكاتب .ـــ بيروت: مطابع دار صادر، ١٩٤٧ ـــ ١٣٤ص.

ـــ خالد الحديدي. التقسيم العشري وتطبيقه في المكتبة العربية .ـــ القاهرة: مطبعة دار الشروق، ١٩٤٩ ـــ ٤٠ ص.

ـــ محمود الشنيطي. موجز التصنيف العشري (الجداول): وضع أسسه ملفيل ديوي، ترجمه معدلا للمكتبات العربية محمود الشنيطي، أحمد كابش .ـــ القاهرة: الجمعية المصرية للوثائق والمكتبات، ١٩٦٠ ـــ ٣٨٩ص. ط ٢ ـــ القاهرة: دار المعرفة، ١٩٧٠ ـــ ٣٢١ص.

ـــ عبد الدائم أبو العطا البقري الأنصاري: التصنيف العشري العربي وفهارسه الهجائية .ـــ القاهرة: النهضة العربية، ١٩٦٨.

ـــ مدحت كاظم. نظام ديوي العشري .ــ القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨ ــ ١٤٦ص.

ـــ على إمام عطية. كشاف تصنيف المكتبات على نظام ديوي المعدل ــ القاهرة: دار الشعب، ١٩٦٨ ــ ١٢٧ص.

ـــ فؤاد إسماعيل فهمي. التصنيف العشري الموجز (الجداول): وضع أسسه ملفيل ديوي، وترجمه فؤاد اسماعيل فهمي معدلا وموجزا عن الطبعة الثامنة عشرة .ــ الرياض: دار المريخ، ١٩٧٩ ــ ٢٣٩ص.

التعريب الجديد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:

أعدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة التوثيق والمعلومات مسودة الطبعة العربية الأولى من تصنيف ديوي العشري (الطبعة الحادية عشرة المختصرة) وهى طبعة معدلة ومزيدة أشرف على تحريرها الأستاذ محمود الأخرس خبير التوثيق والمعلومات بالمنظمة، وتقع هذه المسودة في مجلدين (٦٤٢ صفحة) بالاضافة إلى مجلد منفصل للمقدمة يقع في ٧٥ صفحة.

وبناء على توصية لجنة تطوير الركائز الفنية التقليدية والآلية في مجال التوثيق والمعلومات المنبثقة عن المنظمة في اجتماعها بالأردن في الفترة من ٥ ــ ١٠ أبريل ١٩٨٠م، قامت المنظمة بتوزيع هذه المسودة على الجهات المعنية بالوطن العربي عن طريق اللجان الوطنية للتربية والثقافة والعلوم بأقطار العالم العربي لدراسة هذه المسودة وتجربتها وابداء الرأى والملاحظات عليها.

ونظراً لمرور هذه المسودة من خلال القنوات الرسمية فقط، فلم تصل إلى أيدي الكثير من المهتمين بالتصنيف من المكتبيين العرب، وأنا واحد منهم، ثم أخيرا عثرت على هذه المسودة في وقت علمت فيه أنها تحت الطباعة، لذلك أردت هنا أن أعرض بعض الآراء والملاحظات المتعلقة بالمسودة المشار إليها، وقد كنت أرجو أن تصل هذه الآراء قبل دفع الطبعة العربية من الخطة إلى المطبعة، ولكني على ثقة أن العديد من الآراء والملاحظات والمقترحات، قد يكون من بينها ملاحظاتي هذه، قد وصلت إلى المنظمة من زملائي المصنفين في وقت مناسب وتم دراستها وإجراء اللازم بشأنها، وفيما يلي عرضا لملاحظاتي الشخصية على مسودة الدراسة للطباعة العربية الأولى من تصنيف ديوي العشري.

لماذا تصنيف ديوي العشري؟

استخدام مكتبات العالم العربي لتصنيف ديوي العشري مثل إرتدائنا زيا لا يناسب أجسامنا أو طبيعة مجتمعنا، وتعريبنا لهذا التصنيف هو محاولة لاصلاح هذا الزى لجعله مناسبا لنا على الرغم من علامات الاصلاح الواضحة عليه، وكان من الأجدر بالمنظمة العربية أن تتبنى فكرة إعداد نظام تصنيف عربي ينبع من الفكر والتقاليد والثقافة العربية ويعبر عنها، فالتصنيف هو أحد مزايا الأمة والمعبر عنها والمجسد لواقعها، هذا علاوة على الانتقادات العديدة الموجهة إلى نظام تصنيف ديوي العشري باعتباره لا يفي باحتياجات تصنيف المعرفة الحديثة، كما أنه تجاهل عمدا أو جهلا أهم قضايانا الدينية والثقافية والاجتماعية والتاريخية، هذا وقد سبق تعريبه بمجهودات فردية سبقت الاشارة إليها.

وتبنى المنظمة فكرة إعداد نظام تصنيف عربي يخضع في إعداده لأحدث النظريات في مجال التصنيف بتدعيم من الدول العربية، ليس ضربا من المستحيل أو الخيال، فالعالم العربي يزخر بالمتخصصين في هذا المجال مثل غيره من المجالات ولا ينقصه الدعم المادي، وهناك نواة لهذا العمل يمكن النظر إليها وهى الخطة العربية لتصنيف علوم الدين الاسلامي التى أعدها منذ سنوات الدكتور عبدالوهاب أبو النور.

لماذا الطبعة الموجزة:

على الرغم من الأسباب الموضحة بمقدمة مسودة الدراسة للطبعة العربية الأولى من هذا التصنيف تحت العنوان «لماذا هذه الطبعة»؟، إلا أنني أرى أنه ما دامت النية قد عقدت على تعريب تصنيف ديوى العشري فكان من الأجدى أن يكون تعريب المنظمة للطبعة الكاملة «الطبعة التاسعة عشرة» وليس الطبعة الموجزة «الحادية عشرة» ، فليس من المنطق أن ينظر العالم إلى الطبعة الكاملة من تصنيف ديوى العشري على أنها خطة تصلح فقط للمكتبات الصغيرة، ثم نقوم نحن بتعريب موجزها لاستخدام مكتباتنا كبيرها وصغيرها حتى ولو كان واقع مكتباتنا الكبرى (الوطنية والجامعية) لا يحتاج إلا للقائمة الموجزة، فعلى المنظمة أن لا

تقنع بهذا الواقع وتعمل جاهدة على تغييره وتقدم الوسائل والأدوات المساعدة على هذا التغيير.

هذا بالاضافة إلى أن المنظمة بحكم حجمها كمنظمة عربية عندما تتعرض لمسئولية وطنية كهذه — إعداد أو تعريب خطة تصنيف — لا يجب أن تتناول أعمالا سبق إعدادها بمجهودات فردية، حتى ولو كان الاعداد لطبعة جديدة أو مزيدة.

أين الكشاف؟

من المعروف أن كشاف نظام التصنيف هو أهم العناصر الايجابية التى تميز النظام، فهو الوسيلة التى يستعملها مستخدم النظام في تحديد موقع مواد البحث وأرقام تصنيفها بين شتات الجداول، وقد كان كشاف نظام تصنيف ديوى واحدا من أهم عناصر نجاح هذا النظام ما يقرب من قرن من الزمان. ومن المعروف أيضا أن جميع التعريبات لهذا النظام لم تشتمل على الكشافات التحليلية على الرغم من أن بعض المعربين قد ألمح أنه بصدد إعداد هذه الكشافات ولكنها لم تصدر، كما أشار بذلك مثلا الدكتور الشنيطي والدكتور كابش في ترجمتهما عام ١٩٦٠ والتى أعيد طباعتها عام ١٩٧٠، وقد ذكر بمقدمتها «وقد رأينا زيادة في الحيطة ورغبة في اشتراك المكتبيين العرب وغيرهم بالرأى والنقد في المرحلة الأولى من العمل أن نبدأ بهذه النسخة التجريبية للجداول حتى إذا بلغنا بها أقصى ما يمكن من الاتقان أضفنا إليها الكشاف ودفعنا بها إلى المطبعة».

كما أن الاستاذ فؤاد إسماعيل فهمي الذى أشرف على إعداد الطبعة الموسعة من التصنيف العشري التى أصدرتها عمادة شئون المكتبات بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة عام ١٩٧٧، وأعد أيضا الطبعة الموجزة من نفس التصنيف قد ذكر بالمقدمة: «سيصدر قريبا بعون الله كشافان نسبيان لخدمة الخطتين الموجزة والموسعة وبذلك يكتمل هذا العمل».

وعودة إلى الطبعة العربية الأولى من تعريب المنظمة نجد أن عنوان هذا العمل على صفحة العنوان هو: «مختصر نظام التصنيف العشري والكشاف التحليلي». وقد ذكر أيضا بالمقدمة صفحة ٣: «وإذا كان الكشاف التحليلي لتصنيف ديوى العشري من الخصائص البارزة التى تميز هذا التصنيف، فإن الطبعات العربية تخلو من هذا الكشاف..» كما ذكر في المقدمة: أيضا صفحة ٤ تحت عنوان: لماذا هذه الطبعة؟: «وحتى يتم التكامل لهذه الطبعة العربية لابد من تزويدها بالكشاف التحليلي الذى أصبح جزءا لا يتجزأ من تصنيف ديوى العشري. وهذا ما وفرته هذه الطبعة»

نستنتج مما سبق أن هناك اصراراً من المنظمة على وجود الكشاف مرافقا للجداول، وهذا ما نأمل تحقيقه على وجه السرعة، ونخشى أن يؤجل هذا العمل فيطول انتظاره كما سبق حدوثه في التعريبات السابقة، بينما صدور الكشاف متزامنا مع الجداول أو لاحقا لها بعد فترة وجيزة يجعل هذا العمل متميزا عما سبقه يملأ فراغا بين الأدوات العربية المستخدمة في الأعمال المكتبية، ولا يزال الأمل يراودنا في أن تتبنى المنظمة فكرة إعداد خطة عربية للتصنيف ولا يكتفى بهذا التعريب.

إختلافات في أرقام التصنيف والحواشي:

ورد في هذا العمل بعض الأخطاء في الترجمة وأخرى في أرقام التصنيف سواء كانت أخطاء فنية أو مطبعية (غير واردة بقائمة التصويبات)، والأخطاء المطبعية في خطط التصنيف لا تقل أهمية عن الأخطاء الفنية، ويجب إجراء المراجعات المتأنية والدقيقة لتلافي مثل هذه الأخطاء، كما يوجد أيضا بعض الاختلافات في وجهات النظر بالنسبة لاختيار أرقام التصنيف، وسوف نورد فيما يلي بعض هذه الأخطاء والاختلافات وذلك على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر:

١ — أخطاء في الترجمة:

* ففي رقم ٣٢١، العلاقات المكتبية (ص ١١١)

جاءت الملاحظة التالية: (تشمل المكتبات كمراكز خزن لقوى إجتماعية)، كترجمة للعبارة Including Libraries as storage centers, as social forces ولكن الترجمة الصحيحة التي يمكن أن تعبر عن هذا المفهوم هي :

(تشمل المكتبات كمراكز للتخزين، وكقوى اجتماعية)

* ١٤٩ مذاهب ومباحث فلسفية أخرى. (ص ١٣٩)

جاء بعد رقم التصنيف المشار إليه هذه العبارة الشارحة: (صنف علم الانسان (الانثروبولوجيا) في ٢٩٩) في حين أن علم الانسان يوجد تحت موضوع علم الاجتماع في رقم ٣٠١، وعلى هذا الأساس فقد خلط بين ترجمة Anthroposphy في الديانات وبين كلمة Anthropology.

٢ ــ أخطاء مطبعية:

* ٣٢ ــ ٢١٠/٣٩ دوائر المعارف (والموسوعات) والمعاجم الاسلامية والصادرة باللغات الأخرى (ص ١٦٠).

ــ كتب تحت الرقم المشار إليه عبارة أضف رمز اللغة ٤ ــ ٩ من الجدول الثاني لرمز الأساس ٢١٠،٣، ونشير هنا أن الجدول الثاني خاص بالمناطق والأماكن وليس باللغة.

ــ كما ضرب أمثلة منها دائرة معارف اسلامية صادرة بالألمانية ولم يكتب رقم التصنيف الخاص بها حتى يمكن أن يحتذى به المصنف.

*٧١٢ــ٢١التعليم الاسلامي الثانوي (ص ١٦٢)

ذكر مثالا للمعاهد الدينية في السعودية وأعطاها الرقم ٢١٠،٧٢١٥٦٦ وصحة هذا الرقم هو ٢١٠،٧١٢٥٦٦

* ٢١٠،٧١٤٣ التعليم الاغدادي والابتدائي الاسلامي للفتيات (ص ١٦٢)

ذكر مثال للتعليم الاعدادي والابتدائي الاسلامي للفتيات في ليبيا تحت رقم ٢١٠،٦١٤٣٦١٢ وصحة هذا الرقم هو ٢١٠،٧١٤٣٦١٢

* ٨١١/٩ الشعر العربي في العصر الحديث. (ص ٥٨٢).

ذكر تحت هذا الرقم العبارة الشارحة (صنف رمز المكان ٤ ــ ٩ من الجدول الثامن لرمز الأساس) ولا يوجد في الجداول المساعدة الجدول الثامن، ولكن المقصود هو الجدول الثاني.

٣ ــ لم يلتزم المترجم الدقة في الأرقام التي يحيل إليها المصنف لكي يستخدمها لموضوعات معينة مثل:

* ٢١٩ السيرة النبوية. (١٩٦)

عبارة شارحة: (صنف عصر الرسول في التاريخ الاسلامي ٩٥٦،٢) وهذا الرقم معطى لتاريخ لبنان وصحة هذا الرقم طبقا للتقسيمات هو ٩٥٦،٠٢.

* ٣٧٨ التعليم العالي (ص ٣٤٣).

عبارة شارحة في السطر الخامس: (صنف التعليم الاسلامي ومؤسساته التعليمية في ٢١٠،٠٧١١) وصحة هذا الرقم هو ٢١٠،٧١١.

* ٩٥٣،٠١ آل عثمان حتى نهاية القرن الخامس عشر. (ص ٦١٤).

ذكر تحت هذا الرقم العبارة الشارحة «العثمانيون في الوطن العربي أنظر ٩٥٦،٠٨٢» وهذا الرقم غير وارد في الخطة وتصحيحه ٩٥٦،٠٨١

ــ كما وجدت بعض الأخطاء في أرقام الاحالات إلى موضوعات تتصل بالموضوع قد أعطيت لموضوعات أخرى:

* ٩٥٦،٠٤٥ الوليد بن عبدالملك. (ص ٦١٧).

ذكر تحت هذا الرقم العبارة الشارحة: «فتح الأندلس والعرب في الأندلس أنظر ٩٥٦،٠٦» وهذا الرقم معطى للمغول والتركمان، أما الرقم الصحيح فهو ٩٥٦،٠٧١١.

* ٩٥٦،٠٧ شمال أفريقيا والأندلس. (ص ٦٢١).

ذكر تحت هذا الرقم العبارة الشارحة: «تصنيف الأندلس في ٩٥٦،٠٥٧١» وهذا الرقم غير وارد بالخطة وصحته ٩٥٦،٠٧١.

٤ ــ أخطاء في تسلسل الترقيم:

* ص ٢٧، ٢٨، ٢٩ الجدول الثاني من الجداول المساعدة والخاص بالمناطق والأماكن:

روعى تسلسل أرقام المناطق والأماكن حتى نهاية الصفحة (٢٧) والتى انتهت برقم ٥٦٣٣٥، ثم أخطأ في الترقيم ابتداء من الصفحة (٢٨) وبدأ بفلسطين وبرقم ٦٥٤ وصحتها ٥٦٤ وأنهى هذه الصفحة برقم ٦٥٤٤، حتى بداية صفحة ٢٩ من رقم ٦٥٤٤١ ــ ٦٥٤٤٣، ثم عاد إلى الترقيم الصحيح ابتداء من الأردن برقم ٥٦٥.

* ص ٣٧ : وهذا الخطأ هو ما حدث أيضا في تسلسل ترقيم الكويت من نفس الجدول الثاني المساعد للمناطق والأماكن ص ٣٧، فقد انتهى برقم ٥٦٩١٨٤ بنهاية ترقيم ولايات سلطنة عمان،

وبدلا من أن يبدأ الكويت ومحافظاتها برقم ٥٦٩٢ بدأها برقم ٥٩١٢ وتسلسل بقية المحافظات على هذا الأساس.

٥ ــ أخطاء في أسماء البلاد والمناطق الجغرافية:

• ص ٣١ ورد بالجدول الثاني المساعد أخطاء تتعلق بأسماء بعض مدن المملكة العربية السعودية.

ــ (خميس ، مشيط) وهي بلدة واحدة وصحتها (خميس مشيط).

ــ بلدة (ضياء) وصحتها (ضباء).

ــ بلدة (البارحة) وصحتها (الباحة).

• ص ٥١، ٥٢ وهذا ما حدث أيضا في كتابة بعض أسماء المدن والقرى بجمهورية مصر العربية :

ــ تبروه	وصحتها	نبروه
ــ تل الكبير	وصحتها	التل الكبير
ــ بيسون	وصحتها	بسيون
ــ السلين	وصحتها	عين السلين
ــ فقوس	وصحتها	فاقوس
ــ ضيروط	وصحتها	ديروت

وأعتقد أنه لا خلاف على أهمية مراعاة الدقة في كتابة الشكل الصحيح لأسماء المناطق والبلاد والقرى، والاستعانة في هذا بالأطالس والمعاجم الجغرافية.

٦ ــ أخطاء في أسماء الشخصيات

وردت بعض الأخطاء في أسماء بعض الشخصيات المرتبطة بالأحداث الهامة في بعض البلاد، فعلى سبيل المثال:

* المماليك البرجية ٩٥٦٫٦٢٢ (السلطان برسباى) وليس (السلطان باريسي).

• اليمن الجنوبي ٩٥٦٫٨٠٢١ (الرئيس قحطان الشعبي) وليس (قطحان الشعبي).

• السودان ٩٦٣٫٠٤٣ (سر الختم خليفة) وليس (الختم خليفة).

وكان على اللجنة القائمة بالمراجعة الاستعانة بكتب التراجم للتأكد من دقة الأسماء.

٧ ــ أخطاء أخرى

هناك بعض الأقواس التى وضعت للتوضيح ولم يكتب بها شيء أمثلة:

* ٠٨٠ المجموعات العامة (ص ١٢٩).

صنف هنا المقالات، الكلمات والخطب (   )، المحاضرات.

* ١١٤ الفضاء (   ) المكان ... (ص ١٣٣)

لقد أفاضت التعديلات المذكورة بهذا التصنيف فيما يتعلق بموضوعات الدين الاسلامي وهذا ما تفتقر إليه طبعة الدكتور الشنيطي، وهذه الافاضة وإن كانت لا تخدم كلها مجالات تصنيف الكتب، إلا أنها ولا شك سوف تخدم أغراض التوثيق ومراكز المعلومات في الهيئات الدينية والجامعات الاسلامية.

إلا أنه توجد ازدواجية في الأرقام تحتاج إلى تفسير من معد التصنيف حتى لا يختلط الأمر على المصنف في مجالات الدين الاسلامي والتاريخ الاسلامي، فقد جزأ السيرة النبوية تحت ثلاثة أرقام متباعدة على النحو التالي:

* ٢١٠٫٩٠١٤ الفترة من مولده حتى مبعثه.

* ٢١٠٫٩٠١٦ الفترة من مبعثه وحتى الهجرة الى المدينة.

* ٢١٠٫٩٠٢١ من الهجرة وحتى وفاة الرسول.

* ٢١٩ السيرة النبوية.

* ٩٥٦/٠٢ عصر صدر الاسلام، عصر الرسول.

وهناك أيضا أرقام:

٢١٩٫٣ العصر المكي ويقابله في التاريخ الاسلامي رقم ٩٥٦٫٠٢١

* ٢١٩٫٤ العصر المدني ويقابله في التاريخ الاسلامي رقم ٩٥٦٫٠٢٢

وقد ذكر الغزوات وحجة الوداع وفتح مكة والهجرة في أرقام:

٢١٩٫٥ وأيضا في رقم ٩٥٦٫٠٢١

٢١٩٫٦ أيضا في رقم ٩٥٦٫٠٢٢

ويوجد أيضاً إزدواجية في الأرقام التي أعطيت للخلفاء الراشدين على النحو التالي :

٢١٠٫٩٠٢٢ ، ٩٥٦٫٠٣١ خلافة أبي بكر الصديق.
٢١٠٫٩٠٢٣ ، ٩٥٦٫٠٣٢ خلافة عمر بن الخطاب.
٢١٠٫٩٠٢٤ ، ٩٥٦٫٠٣٣ خلافة عثمان بن عفان.
٢١٠٫٩٠٢٥ ، ٩٥٦٫٠٣٤ خلافة على بن أبي طالب.
٢١٠٫٩٠٢٦ ، ٩٥٦٫٠٤ الخلافة الأموية.

كما توجد هناك إزدواجية في الأرقام المعطاة للاقتصاد الاسلامي، فقد ورد في الارقام التالية:
٢١٦٫٩٣ النظام الاقتصادي (يشمل الاقتصاد الاسلامي اللاربوي). ثم أوردها ثانية تحت الأنظمة الاقتصادية في رقم: ٣٣٠٫١٢١ الاقتصاد الاسلامي.

لا يوجد توحيد في التصانيف المعدلة لتصنيف ديوى العشري، فقد أوردت هذه الطبعة الموضوعات المتعلقة بالتعليم الاسلامي والجامعات والكليات الاسلامية في أرقام ٢١٠٫٧ — ٢١٠٫٧١٥٤، واعتقد أنه كان من الأفضل معالجتها مع موضوعات التربية والتعليم في رقم ٣٧٠ وهذا أقرب إلى منطق التصنيف، وهو ما سار عليه الأستاذان الدكتور الشنيطي وفؤاد اسماعيل في تعريبهما.

ومثال آخر على عدم التوحيد في التصانيف المعدلة أنها تصنع طبقات الصحابة والتابعين تحت موضوع طبقات الرواة والحفاظ في رقم ٢١٣٫٣٣، في حين وضعها الدكتور الشنيطي مفرعة عن السيرة النبوية في رقم ٢١٩٫٩، وهذا في اعتقادي هو التسلسل المنطقي للربط بين الصحابة والتابعين ودورهم في السيرة النبوية وعدم دمجهم ضمن رقم يحمل موضوعات كثيرة مثل طبقات الرواة والحفاظ وطبقات المحدثين ومعرفة الموالي والمنسوبين إلى القبائل، ورجال الكتب الخاصة مثل البخاري ومسلم.

خصص الرقم ٢١٦٫٦ للمخاصمات والجنايات والعقوبات (يشمل القضاء والدعاوى والبينات)، وهى في اعتقادي موضوعات كثيرة على رقم واحد، ويلاحظ أن الدكتور الشنيطي في تصنيفه قد أوردها في رقمين هما:
٢١٦٫٦ المخاصمات (ومسائل القضاء والدعاوى والبينات).
٢١٦٫٨ العقوبات والجنايات والحدود.

عالجت هذه الخطة موضوعات الأدب العربي وأشكاله الأدبية معالجة جيدة، وخصوصا في تقسيماتها للشعر العربي من حيث أغراضه وموضوعاته وبنائه، ومن حيث عصور الشعر، ولا يوجد شيء موضوعي يمكن أن يقال في هذا الصدد سوى بعض الاضافات التالية:

* في تقسيماتها للشعر العربي وضعت تواريخ العصور التاريخية حتى العصر العباسي، واغفلت تواريخ باقي العصور وإن كانت قد ذكرت في عصور الأدب العربي، إلا أنه من الأفضل استخدام حاشية بأنه يمكن التقسيم كعصور الأدب العربي.

* استخدمت لفظين في تقسيم الأشكال الأدبية، وإن كانا بمعنى واحد في كلا الحالتين، إلا أنه يجب التوحيد في استخدام الألفاظ مثال: العصور التاريخية للخطابة — والفترات التاريخية للرسائل الأدبية العربية.

* فصلت البلاغة العربية عن الأدب ونقلتها إلى اللغة العربية برقم تصنيف ٤١٤، في حين أنها أبقت على البلاغة كمجموعات في الأدب برقم ٨٠٩، وهذ يؤيد عدم اتخاذ موقف موحد في التعديلات العربية لخطة التصنيف العشري لديوى، حيث وردت في تعريب الدكتور الشنيطي في الأدب العربي برقم ٨١٩.

خالفت في تقسيمها التاريخ الاسلامي ما فعله كل من الدكتور الشنيطي والأستاذ فؤاد اسماعيل في تقسيماتهما لهذا الموضوع، حيث خصصا له الرقم ٩٥٣ (كما ورد في خطة ديوى الأصلية)، وفرعا منه التفريعات التى تتناسب مع التعديل العربي، بينما في الطبعة العربية التى بين أيدينا خصص رقم ٩٥٦ للتاريخ الاسلامي فتعارضت بعض الأرقام عن الأصل وتغيرت كثير من الدول، وهذا ما فعله أيضا تغيير أرقام بعض دول المغرب العربي والسودان والحبشة، واعتقد أنه كان من الأصلح الاحتفاظ بالرقم الاصلي كما ورد في خطة التصنيف وذلك للأسباب التالية:
١ — حتى لا نربك المصنف ونسبب اختلاط الأرقام عليه لأن أرقام هذه الدول أصبحت محفوظة لديه بحكم دوام الممارسة.
٢ — لاستخدام نفس الرقم في المجموعتين العربية والأفرنجية في المكتبة.
٣ — حتى لا نربك المكتبات في عملية إعادة التصنيف.

لم يلتزم التسلسل لامارات الخليج العربي في جداول التصنيف الأساسية بنفس الترتيب الذى نجده في الجدول الثاني من الجداول المساعدة، ففي هذا الجدول أورد إمارة الفجيرة ثم أتبعها بإمارة رأس الخيمة، أما في الجداول الأساسية للتصنيف فأورد أولا رأس الخيمة ثم الفجيرة.

أما فيما يختص بالتنسيق في تسلسل أرقام التصنيف وخصوصا في البلاد العربية والتي استخدم في كل بلد التفريع بأرقام ٠١ ــ ٠٢ كان من الواجب تجنبها بعيدا عن عمود الترقيم الأساسي ووضع رقم البلد قبل الصفر فقد أوردها على النحو التالي:

٩٥٦٫٦ السعودية.

٠١ , الدولة السعودية الأولى.

٠٢ , الدولة السعودية الثانية.

٠٣ , فترة الاضطراب وتوحيد المملكة.

فهذا العمل يخلط الأمر على المصنف فيجعله يعطي رقم تصنيف لفترة توحيد المملكة هكذا ٩٥٦٫٠٣ بدلا من أن يعطيه رقم ٩٥٦٫٦٠٣ فالأفضل وضعها على النحو التالي:

٩٥٦٫

٦٠١ ,

٦٠٢ ,

شكر وتقدير:

لا يسعني إلا أن أقرر أن ما بذل في سبيل اعداد هذا التعريب يعتبر جهدا جيدا يستحق الثناء والتقدير، وهو مساهمة في تطوير النظم المستخدمة في المكتبات العربية، وهذا ليس غريبا على إدارة التوثيق والمعلومات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فجهودها البناءة في خدمة هذا المجال لا تخفى على أحد من خلال عقد الاجتماعات والمؤتمرات والندوات والدورات التدريبية وإعداد المستخلصات والبيلوجرافيات والترجمات والأدوات الفنية، كذلك توفير المعلومات للعاملين في مجال المكتبات والتوثيق والمعلومات.

وأرجو أن تعمل الادارة على توثيق التعاون بينها وبين العاملين في هذا المجال في الوطن العربي عن طريق الاتصالات الشخصية المباشرة، وعدم الاكتفاء بالقنوات الرسمية للاتصال التى تصادف الكثير من المعوقات. والله الموفق.

قائمة المراجع:

ــ **البنهاوي، محمد أمين**. التصنيف العملي للمكتبات وفق أحدث طبعة من تصنيف ديوى العشري. ط ٢، مزيدة ومنقحة ــ جدة: دار الشروق، ١٩٨٢م.

ــ **ديوى ، ملفيل**. التصنيف العشري الموجز (الجداول) / ترجمه معدلا للمكتبات العربية فؤاد اسماعيل فهمي ــ ط ١ ــ الرياض: دار المريخ، ١٩٧٩م.

ــ **ديوى ، ملفيل**. موجز التصنيف العشري (الجداول) / ترجمه معدلا للمكتبات العربية محمود الشنيطي ، أحمد كابش ــ النسخة المبدئية ــ القاهرة: الجمعية المصرية للوثائق والمكتبات، ١٩٦٠م.

ــ **كاظم ، مدحت**. التصنيف: نظام ديوى العشري ــ القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م.

— Dewey, Melvil. Dewey decimal classification and relative index / devised by Melvil Dewey,- ed. by Benyamin A. Custer - 19 the ed. New York: Forest press, 1979 - 3 Vols...

الحوافز في المملكة العربية السعودية

محمد إبراهيم سليمان

عضو هيئة التدريس — معهد الادارة العامة بالرياض

عبد الوهاب، علي محمد/ الحوافز في المملكة العربية السعودية. — الرياض : معهد الادارة العامة، ١٤٠٣هـ. ١٢٢ ص.

ما المقصود بالحافز، وما هي الدافعية، وما العوامل التي تشكل دوافع الأفراد وتؤثر عليها؟ وما هي أهم نظريات الدافعية والأسلوب الذي تقترحه كل منها للحوافز؟ وكيف تعالج نظريات الإدارة قضية الحوافز؟ وما هي أنواع الحوافز التي تقدمها هذه النظريات والفلسفة التي تكمن وراءها؟ وما هي الحوافز التي يمكن للإدارة أن تختار منها لتحفيز أفرادها، وما أسس الاختيار؟ وكيف يسير تطبيق الحوافز في الحياة العملية؟ وما هي أهم أنواعها؟ وكيف ينظر الموظفون إلى الحوافز التي يتقاضونها؟ كيف يقيمون الوظائف التي يشغلونها من حيث درجة أهميتها، واستغلالها لطاقاتهم؟ وما هو مقدار تفضيلهم لهذه الوظائف؟ وما هي نظرة الموظفين لكل من الحوافز المادية والمعنوية التي يحصلون عليها ؟ هل يعتقدون أنها كافية، وملائمة للمجهودات التي يبذلونها، وتساعدهم على الأداء الأفضل؟ وما هي أهم المزايا التي يرونها في الحوافز التي تقدمها لهم الإدارة؟ وما هي أهم العيوب والمشكلات؟ وما هي الأسس التي يجب أن تقرر الحوافز بناء عليها؟ هل توجد عندهم اقتراحات لتطوير الحوافز؟ وهل يتطلعون للحصول على حوافز أخرى بالاضافة إلى ما يأخذونه حاليا؟ وما هي أسبابهم في ذلك؟.

تلك هي الأسئلة التي يحاول الدكتور علي محمد عبد الوهاب — الأستاذ بمعهد الإدارة العامة بالرياض — الإجابة عليها في البحث الميداني الذي أجراه على عينة من ٥٢٠ من الموظفين السعوديين الذين يعملون في الأجهزة والدوائر الحكومية. وقد تم اختيارهم عشوائيا من بين المتقدمين للبرامج التدريبية المختلفة بمعهد الإدارة العامة بالرياض. وحيث أن هذا المعهد هو الجهة التدريبية الوحيدة التي تتولى تدريب جميع موظفي الحكومة بالمملكة، فإن هؤلاء المتدربين يعملون في أجهزة ومناطق مختلفة، وفي وظائف متنوعة، ذات مراتب مختلفة — من مستوى المديرين إلى رؤساء الأقسام إلى الوظائف غير الاشرافية.

وقد عالج الباحث الموضوع من ناحيتين : ناحية نظرية وناحية تطبيقية ميدانية. والبحث عبارة عن أربعة فصول رئيسية هي:

الفصل الأول : عرض لإطار البحث، والذي يشمل أهمية الحوافز، والهدف من البحث، والفروض التي يريد الباحث اختبار صحتها، والمنهج الذي يتبعه في معالجة الموضوع. **أما الفصل الثاني** فتناول فيه الحوافز في الفكر الإداري. فتعرّض أولا لطبيعة الحوافز وربطها بمفهوم الدافعية، ثم شرح أربع من نظريات الدافعية، وهي : المدرج الهرمي لحاجات الإنسان، ونظرية العوامل الدافعة والصحية، ونظرية الهدف والوسيلة، ونظرية التوقعات. ثم تعرّض للمناهج المختلفة للحوافز في نظريات الإدارة التقليدية والإنسانية والحديثة. وختم الفصل الثاني بعرض تصنيف شامل للحوافز يتناول نوعها وهدفها ووسيلة تطبيقها وطبيعة الجزاء الذي تتضمنه والمستفيدين منها والامكانات المتاحة لتقديمها.

أما في **الفصل الثالث** فركز الباحث حول الجانب التطبيقي للحوافز، حيث عرض نتائج الاستقصاء الذي أجراه على عينة من الموظفين السعوديين، والذي يشمل عدة جوانب للحوافز هي: الوظيفة التي يشغلها الفرد ونظرته إليها وتفضيله لها، والراتب والحوافز المادية، والحوافز المعنوية وتشمل الترقية وجماعة العمل وفرص التعبير عن النفس، وتأثير الحوافز على الأداء من وجهة نظر الموظفين والرغبة في الحصول على مزيد من الحوافز، وأخيرا

تقييم الأفراد للحوافز التي يتقاضونها ــ من حيث مزاياها ومشكلاتها والأسس التي تقوم عليها ومقترحاتهم للتطوير.

أما **الفصل الرابع** فيعرض فيه الباحث للإطار العام للحوافز كما يشتقه من نتائج البحث، ويناقش أهم المؤشرات التي تتضمنها هذه النتائج. ويقدم في نهاية الفصل نقاطا مركزة تمثل ملخصا للنتائج، وأهم التوصيات التي يمكن أن تستفيد منها الإدارة في وضع الإطار السليم للحوافز، ومواجهة المشكلات التي تستجد أثناء التطبيق.

نتائج البحث

فيما يلي أهم النتائج التي توصل إليها الباحث:

- أن الموظفين في هذه العينة محفزون جيدا، وذلك كما تبين إجاباتهم تجاه الأنواع المختلفة من الحوافز.
- فهم في الأغلب الأعم راضون عن الوظائف التي يؤدونها، ويعتقدون بأهميتها، إلا أن الاستغلال الأمثل لطاقات الموظفين في العمل لا يتوفر في بعض الحالات.
- يفضل بعض الموظفين البقاء في وظائفهم، ويفضل البعض الآخر ــ بنسبة قليلة ــ الانتقال إلى وظائف أخرى، ولا يرى فريق ثالث فرقا بين الحالين.
- رواتب الموظفين بشكل عام مناسبة، بعد الزيادة الأخيرة. وإلى جانب ذلك يحصل الموظفون على بضعة حوافز مادية، كالبدلات والعلاوات والمكافآت وغيرها.
- يعتقد بعض الموظفين أن الحوافز التي يتقاضونها تتناسب مع المجهودات التي يبذلونها في العمل، بينما يرى البعض الآخر أنها أقل مما يجب.
- فرص الترقية متوفرة، وهناك عوامل وراء ملاءمة هذه الفرص ــ مثل المساواة وصحة التقييم. وهناك كذلك مشكلات تجعل هذه الفرص غير ملائمة في نظر البعض ــ مثل طول المدة وقلة الشواغر ــ وصعوبة بعض الشروط.
- الانسجام بين العاملين في جماعات متوفر في أغلب الحالات، وهذه ميزة كبيرة يمكن أن تحدث آثاراً إيجابية في العمل.
- توجد فرص التعبير عن النفس وإبلاغ المقترحات، بنسبة عالية ــ وخاصة في حالة الرؤساء.
- يعتقد الغالبية من الموظفين أن الحوافز تساعدهم على أداء أعمالهم بصورة أفضل. ويذكرون لذلك أسبابا عديدة مثل كفاية الحوافز وشمولها وما تحمله من شعور بالاهتمام والتقدير.
- يريد الموظفون في هذه العينة مزيدا من الحوافز، ويعطون الأمثلة على ذلك حوافز مادية مثل المكافآت والعلاوات وبدلات السكن والعلاج المجاني، وحوافز معنوية مثل الترقية وتقدير الجهود وتشجيعها والتدريب وتنمية القدرات.
- يرى الموظفون أن هناك مزايا يحققها نظام الحوافز، وتتلخص في التعاون والتقدير والإنجاز والتطوير وملاءمة طبيعة العمل والمعاملة الطيبة.
- ومن جهة أخرى يشير الموظفون إلى بعض المشكلات التي يتضمنها تطبيق نظام الحوافز. وهي نقص الموضوعية، وقلة المستفيدين، وعدم دقة تقييم الأداء، وغياب أنواع معينة من الحوافز.
- يتفق الموظفون على أن الحوافز يجب أن تقرر بناء على أسس سليمة. وقد جاءت الكفاءة والعمل الممتاز ثم الخبرة والأفكار الجديدة، في مقدمة هذه الأسس.
- يبدي الموظفون اقتراحات لتطوير الحوافز مثل: تنمية قدرات الأفراد، وزيادة أعدادهم، وتحسين نظم العمل وإجراءاته، ووضع معايير دقيقة للحوافز، وتقدير الجهود.

التخطيط للحوافز بالمملكة

النتائج التي توصل إليها الباحث تشير إلى بضعة أمور هامة، يجب على الإدارة مراعاتها، حتى تخطط للحوافز تخطيطا سليما، وتحقق من تطبيقها الأهداف المطلوبة. ومن هنا فإن الباحث يوصي بما يلي :

○ مداومة دراسة دوافع الأفراد والعوامل المؤثرة فيها، لتقرير الحوافز الملائمة. ومتابعة التغيرات التي تحدث في الجوانب النفسية والاجتماعية والفنية والتنظيمية ، التي تستلزم تجديد الحوافز أو إعادة النظر فيها.

○ يجب أن تتركب الحوافز من مزيج متكامل من الجانبين المادي والمعنوي، فلكل منهما أهميته الخاصة وأهداف يخدمها وحاجات يشبعها.

○ إعطاء الوظيفة التي يؤديها الفرد الأهمية الواجبة، حيث أنها يمكن أن تكون محفزاً رئيسيا له. والعناية بتصميمها، وأن تكون ذات معنى محدد للموظف وعلى درجة من الأهمية بالنسبة إليه. وأن يراعى تحديد أهدافها بدقة وكذلك معايير أدائها، وتوضيح المواصفات اللازمة لها، والشروط المطلوبة في شاغلها.

○ من الأهمية بمكان أن توجه الحوافز نحو تنمية السلوك المرغوب فيه من الموظفين، وتؤكد جانب الالتزام والعمل الجاد والولاء للجهاز الذي يعملون فيه والتعاون لبلوغ أهدافه. وبالتالي يجب أن تعمق الحوافز مفهوم الأخذ والعطاء والمنفعة المتبادلة بين الفرد والجهاز، حتى تتقارب أهداف الطرفين وتتوحد مصالحهما.

○ مراعاة الموضوعية وتجنب التحيزات الشخصية عند إعطاء الحوافز، يساعد على ذلك وجود معايير محددة واضحة، ومعرّفة جيداً، ومشتقة من الأهداف المقررة، ومتفق عليها، وموجهة نحو قياس شيء معين — كما ونوعا وزمنا.

○ يجب أن تطبق الإدارة الحوافز الجماعية عندما تكون جماعات العمل منسجمة متعاونة. على أن تؤكد الإدارة في نفس الوقت جانب المنافسة البناءة التي تخدم كلا من العمل والأفراد.

○ ولكي تبنى الإدارة فرقا متكاملة للعمل، يجب أن تراعى اتساق الأعضاء وتقاربهم في الميول والخبرات والمهارات ومستويات الطموح.

○ إعطاء الفرصة للموظف للمشاركة في تقرير الأمور التي تتعلق بوظيفته — مثل حجم العمل وسرعته والطرق المستخدمة فيه .. إن هذه المشاركة تساعد على حجم العمل وسرعته والطرق المستخدمة فيه .. إن هذه المشاركة تساعد على التحام الموظف بوظيفته وزيادة رغبته في إتقانها.

○ يجب أن تركز الحوافز على النمو والتطوير لكل من الفرد والجهاز سويا. فأما الأول فعن طريق التدريب الفني بتنمية معلوماته وزيادة خبراته وإمداده بالفرص الملائمة لإثبات ذاته، والتدريب الإنساني الذي يعمل على صقل المهارات الإنسانية مثل مهارة الاتصال والتعبير عن النفس والعمل الجماعي وفهم الآخرين. أما نمو الجهاز وتطويره فيتم عن طريق الأداء الجيد للأفراد والمثابرة على إنجاز العمل المطلوب وتحقيق الأهداف المقررة.

○ يجب أن تتابع الإدارة الحوافز التي تقدمها للأفراد، وتقيمها من حين لآخر لتحدد درجة فعاليتها أو الحد منها. وذلك حتى تبنى الإدارة تخطيطها وتطبيقها للحوافز على أسس عملية قويمة.

وأخيرا .. إن هذا البحث من الدراسات الرائدة في موضوع هام، تتجدد أهميته باستمرار. وقد قام به أستاذ في علم الإدارة مشهود له بالكفاءة، وله مساهماته الكثيرة بالبحث والدراسة في مختلف المجالات الإدارية. ولا شك أن القيادات الإدارية في المملكة العربية السعودية وفي العالم العربي ستحقق الكثير من المزايا بالنسبة للموظفين وبالنسبة للأجهزة الإدارية، إذا استطاعت أن تستفيد من نتائج هذا البحث، وتضع نصب أعينها التوصيات التي يتضمنها.

الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي

لعاطف فخري

إبراهيم أبو الغار
أستاذ مشارك/كلية الآداب
جامعة الملك عبد العزيز

فخري، عاطف/ الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي. ــ جدة : تهامة، ١٤٠٢ ــ ١٩٨٢م.

الكتاب الذي نعرض له هو كتاب (الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي) للدكتور عاطف فخري من رجال القانون، والكتاب من اصدارات تهامة، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢م.

ويقع الكتاب في ٢٨١ صفحة من القطع المتوسط، وهو يختلف عن كثير من الكتب التي تتناول مثل هذه الموضوعات، حيث يسلك الكاتب منهج تصنيف الكتاب وفقا للحروف الأبجدية فيبدأ من حرف الألف وينتهي بحرف الياء، حيث تناول كل موضوعات قانون العمل السعودي ومواده مصنفة وفقاً للحروف الهجائية، وفي نهاية كل حرف توجد هوامش وتعليقات.

ولقد اهتم الكتاب بالتركيز بقدر الامكان على المسائل التي تثير خلافاً في التطبيق وعلى الأحكام التي تحتاج إلى تعديل سواء نزولاً على الاعتبارات الفنية أو على اعتبار الحاجة والتطوير، مستعيناً في هذا كله، وبقدر ما تدعو الحاجة، بالدراسة المقارنة مع النظم العربية الأخرى خاصة تلك التي تماثل النظام السعودي كنظام العمل المصري.

وقد بدأ المؤلف الكتاب بحرف (أ) حيث تناول عدة موضوعات تتعلق بالأجازات السنوية للعمال، والأجازات المرضية، وأجازات الأعياد، والأجازات الطارئة، والأجازة بدون أجر، إضافة إلى أجازات الحمل والولادة بالنسبة للمرأة العاملة.

وقد تناول، كذلك، موضوع الأجر وطريقة حسابه، والحد الأدنى للأجور وحسابات التسوية. وقد أشار إلى موضوع الوفاء بالأجر وحمايته مدعماً هذا كله بأرقام المواد القانونية المتعلقة بهذه الأمور.

وقد اهتم بالأحداث الذين يعملون وكيفية حماية القانون لهم، فحدد أنواع الصناعات التي تتفق معهم ومع أعمارهم، والأعمال الخطرة والصناعات الضارة كالآلات في حالة دورانها بالطاقة والمناجم ومقاطع الأحجار، التي يُحَرم تشغيل الأحداث فيها.

وأشار كذلك إلى حق العامل في اختراعه، فللمخترع حق ملكية اختراعه كالحق الذي يملكه المؤلف على مؤلفه أو الملحن على لحنه.

وهناك موضوع على غاية من الأهمية وهو إصابة العمل حيث حدد معناها وحكمها والتعويضات التي تقدم في مثل تلك الحالة وواجبات صاحب العمل وحقوق العمال فيها.

وعن افشاء الأسرار المهنية وردت الإشارة إلى الزام العامل بالمحافظة على جميع الأسرار المهنية والتي من شأن افشائها الاضرار بمصلحة صاحب العمل، وتصل العقوبة بالنسبة للعامل الذي يخالف ذلك إلى فسخ العقد وحرمان العامل من المكافأة والتعويض.

أما عن التزامات صاحب العمل قبل العامل فهي كثيرة ومتعددة بعضها يفرضه مبدأ عام، هو مبدأ حسن النية في تنفيذ العقود، والبعض الآخر وردت به نصوص متناثرة في النظام. وعلى الجانب الآخر هناك التزامات على العامل عليه الوفاء بها،

منها ضرورة الائتمار بأوامر صاحب العمل وهو من أبرز مظاهر التبعية في عقد العمل.

إضافة إلى ذلك هناك موضوع آخر يرتبط بالأمن الصناعي ويتمثل في وجوب اتخاذ الاحتياطات اللازمة لحماية صاحب العمل لعماله أثناء العمل من الأضرار الصحية وأخطار الآلات والاهتمام بوسائل الانتقال المناسبة لتوصيل العمال من محال إقامتهم أو من مركز تجميع معين إلى أماكن العمل واعادتهم يومياً إذا كانت هذه الأماكن لا تصل إليها وسائل المواصلات العادية المنتظمة.

وقد تناول الكتاب بعض الموضوعات الأخرى كالبدلات ويندرج تحتها بدل الأجازة، والبدل هنا كعنصر في الأجر الذي يعطيه صاحب العمل للعامل لمواجهة نفقة أو خسارة يتكبدها العامل في سبيل تنفيذ العمل. وعالج كذلك سلطة التأديب وشروط الخطأ التأديبي والضوابط التي يُمارس في ظلها سلطة التأديب وبعض صور الجزاء التأديبي وتتدرج بين التنبيه والانذار الكتابي والإيقاف عن العمل، والحرمان من الترقية أو تأخيرها، وتصل إلى الفصل من الخدمة. والأمر ليس سهلاً هيناً في هذا المجال لأن هناك قيوداً على سلطة التأديب من بينها كفالة حق الدفاع وسقوط الحق في الاتهام وسقوط الحق في العقاب، إلى جانب الطعن في الجزاء أمام اللجنة المختصة.

أما عن التأهيل المهني فقد كان له نصيب في المواد القانونية في نظام العمل السعودي، والتأهيل المهني يقصد به تمكين العاجز من استعادة قدرته على أداء عمله الأصلي أو أي عمل آخر مناسب لحالته، وتشرف على هذه المهمة معاهد خاصة تنشئها وزارة العمل بالاتفاق مع الوزارات المختصة. وتقوم هذه المعاهد بتسليم العاجز الذي تم تأهيله شهادة بذلك يطلب بموجبها قيد اسمه لدى مكتب التشغيل المختص.

ولم يتردد النظام حرصاً على نجاح سياسة العمل والاستخدام في تنظيم جهاز للتفتيش على أماكن العمل للسهر بصفة عامة على حسن تنفيذ الأحكام المتصلة بالنظام وتطويره. ويعين مفتشوا العمل من وزير العمل وتنحصر مهمتهم في مراقبة أحكام نظام العمل والقرارات المنفذة له، وترشيد العمال وأصحاب الأعمال بالمعلومات وما يجب اتباعه، واقتراح ما يلزم لتدارك أوجه القصور التي يكشف عنها التفتيش، وضبط الجرائم التي تقع بالمخالفة لأحكام نظام العمل أو القرارات المنفذة له.

وتمكينا لمفتشي العمل من القيام بهذه الاختصاصات، منحهم النظام صفة الضبطية القضائية، وأوجب على رجال السلطات الادارية المختصة ورجال الشرطة مساعدتهم مساعدة فعالة عند قيامهم بمهام وظيفتهم، وأعطاهم حق دخول أية مؤسسة أثناء العمل ليلاً أو نهاراً دون إخطار سابق، والاطلاع على الدفاتر والسجلات والمستندات، وسماع أقوال صاحب العمل أو العمال، وتحرير محاضر بالمخالفات التي يسفر عنها التفتيش.

كما اهتم القانون بموضوع زواج المرأة العاملة وما يلحقه من انجاب، وهذا لا يشكل حالة من حالات استحالة تنفيذ العقد استحالة نهائية، ومن ثم فما كان الزواج ليؤدى في الأصل إلى انفساخ العقد لولا أن جرى نص المادة (٨/٨٧) من النظام على خلاف هذا الأصل. وعلى هذا فإن النظام قد اهتم — استثناء — بظروف الزواج كعذر مبرر لانهاء العقد من جانب العاملة، فإذا كان العقد محدد المدة انتهى قبل انقضاء مدته، وإذا كان غير محدد المدة انتهى دون ما حاجة إلى مراعاة مهلة معينة للتنبيه، كل ما يشترطه النظام لهذا الانهاء هو أن تعرب المرأة العاملة عن رغبتها في الاستقالة وأن تكون هذه الاستقالة بسبب الزواج أو الانجاب.

وفي جانب آخر يوضح الكتاب ساعات العمل وسبب العقد وسلطة التنظيم وسوء السلوك، فيوضح الحد الأقصى لساعات العمل الفعلية اليومية وعددها ثمان ساعات، وساعات العمل الأسبوعي وهو ثمان وأربعون ساعة. كما يوضح فترات الراحة وكذلك الساعات الاضافية.

وبخصوص سلطة التنظيم فإن صاحب العمل يعتبر وحده المسئول عن سلطة التنظيم في المنشأة فهو الذي يملك تحديد

مواعيد وزمان ومكان العمل، ولكنه لا يملك تعديل أي شيء من هذا بإرادته المنفردة وإلا اعتبر هذا إنهاء للعقد من جانبه. أما عن السلوك من قبل العامل فيعتبر من الأسباب التي تبرر فسخ العقد دون سابق تنبيه أو مكافأة العامل أو تعويضه. وسوء السلوك يعني انحراف العامل عن المسلك المألوف للشخص العادي سواء في معاملته لرؤسائه أو زملائه أو حتى الغير، ولا يشترط أن يكون سوء السلوك متصلاً بالعمل فقد يكفي سوء السلوك غير المتصل بالعمل للقضاء على ثقة صاحب العمل في العامل وهي ثقة جوهرية.

أما عن فسخ العقد فقد اهتم الكتاب بمعالجته حيث أوضح أن الفسخ سبب إرادي لانتهاء عقد العمل بإرادة أحد طرفيه المنفردة وهو سبب عام للانتهاء، مشترك بين العقد المحدد المدة والعقد غير المحدد المدة، كما حدد حالات فسخ عقد العمل التي يحرم فيها القاضي من سلطة التقدير.

بالاضافة إلى ما سبق الاشارة إليه من موضوعات اهتم الكتاب بمعالجتها هناك بعض الأمور الأخرى التي تهتم بلائحة الجزاءات الداخلية في منشآت العمل، ولجان تسوية الخلافات، والمشاركة في الربح، والمرض، وكذلك مكافأة نهاية الخدمة. وقد أفرد لموضوع أمراض المهنة ومخاطر المهنة الكثير من الاهتمام وفقا لتناول قانون العمل السعودي لها، وكيفية الوقاية من مخاطر المهنة.

○ ○ ○

والكتاب بصورته هذه يمثل عملاً علمياً هاماً حيث بذل مؤلفه الكثير من الجهد في تفسير القانون وتوضيحه بصورة سهلة مبسطة تتيح الفرصة لغير العاملين في مجال القانون، لفهمه واستيعابه بيسر وسهولة. وقد وُفق المؤلف حيث صنف جميع موضوعات نظام العمل السعودي وفقا لورودها في القانون تحت تصنيف وضعه من عنده وهو الحروف الهجائية، فقد جمع كل الموضوعات المتصلة بحرف واحد تحت تصنيف واحد، وهذا جهد كبير اختلف فيه المؤلف مع كل الكتب التقليدية — تقريبا — التي تعالج مثل هذا الموضوع. وغني عن البيان أن الكتاب لا يحوي نصوصاً قانونية جامدة إلّا في النادر، حيث لجأ المؤلف إلى الشرح والتحليل والتفسير للمواد القانونية ويكتفي بالاشارة إلى رقم المادة فقط، وهذا دليل على التعمق والالمام الكامل بجوانب قانون العمل.

والكتاب يهم كل المشتغلين في مجال دراسة القوانين العمالية من جهة، ويهم العمال وأصحاب الأعمال في المؤسسات العمالية المختلفة في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية من جهة أخرى.

كتابان عن الخليج والجزيرة العربية

عبد الله الأشعل

الصيرفي، نوال حمزة يوسف / النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن السادس عشر الميلادي. ــ الرياض : دارة الملك عبد العزيز، ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣م.

السعدون ، خالد/ العلاقات بين نجد والكويت من ١٩٠٢ ــ ١٩٢٢. ــ الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣ ــ ١٩٨٣م.

من الأمور التي تبعث على التفاؤل في مستقبل شبابنا الجامعي إقباله على دراسة تاريخ المنطقة وتوثيقه، والاهتمام بدقائقه ، بعد أن ظلت رواية هذا التاريخ محصورة في أيدي الأجانب من الانجليز وغيرهم يروونه بالشكل الذي يتناسب مع مصالحهم، على أساس أن السلطات البريطانية في الخليج كانت تعلم من أمره كل شاردة وواردة. ولعل الاعتقاد في هذه المقولة قد جنى على الكثير من شباب أمتنا الدارسين لهذه المنطقة، فركنوا إلى المصادر البريطانية، وراحوا ينهلون منها، نقلا وترجمة، واقتباسا واستشهادا، واضعينها في مرتبة عالية من الإجلال، دون أن يحاولوا قهر انبهارهم بها، والنظر إليها النظر الصحيح، بوصفها أحد المصادر، وأن هناك الكثير من المحاذير التي تمنع الباحث المدقق من أخذها على علاتها.

ومن ناحية أخرى، تطرف بعض آخر من شبابنا الباحثين في تاريخ المنطقة، فرفض دون تمحيص ــ المصادر البريطانية، وأراح نفسه من عناء البحث فيها والاستفادة منها.

وكلا الاتجاهين يجانب المنهج العلمي الصحيح، والنظرة الثاقبة الموضوعية التي يجب أن يتحلى بها الباحث العربي في تاريخ المنطقة، والذي لا شك يقع نهباً لنوعين من المشاعر المتجاذبة، الأول يدعوه صوب العاطفة والتحيز مع قومه، وضد المستعمر، والثاني يطالبه بالتحلي بالصبر وروح المسئولية في نسج خيوط دقيقة لتاريخ علمي تعتمد عليه الأجيال القادمة، يتوخى في صناعته وتقريره روح الباحث المحقق المنطقي الصبور.

وأحسب أن في الكتابين الذين أعرض لهما هنا بشائر النهج العلمي الذي أشرت إلى بعض ملامحه حالاً. فالكتابان قدما في الأصل لنيل درجة الماجستير من الجامعات السعودية، حيث نالت الباحثة نوال الصيرفي هذه الدرجة عن بحثها «النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن السادس عشر» من كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة أم القرى، كما كانت «العلاقات بين نجد والكويت من ١٩٠٢ ــ ١٩٢٢» موضوع رسالة الماجستير التي حصل عليها الباحث خالد محمود السعدون من نفس الجامعة، وقد قامت دارة الملك عبدالعزيز بطبع الرسالتين، تحقيقا لدورها في نشر كل ما يخدم التاريخ والحضارة الاسلامية والعربية في كل العصور وقبل أن أعرض للرسالتين، أود أن أبدي ملاحظتين هامتين :

الملاحظة الأولى : أن اهتمام الباحثين الشبان في بحوثهم وأطروحاتهم الجامعية في دول الخليج بموضوعات تتشابك فيها خيوط التاريخ الحديث لدولهم أمر لا شك يبعث على الرضا، كما أنه من المفيد أن يدرس نفس الموضوع عدد من الدارسين في أكثر من دولة، فموضوعات العلاقات بين نجد والكويت مثلا، يجب أن يدرسها باحثون من الكويت ومن السعودية ومن غيرهما، حتى نثري هذا الباب الهام من تاريخ المنطقة الحديث، مع ملاحظة محظور واحد، وهو أن تنحرف الدراسات عن المنهج العلمي، فتصبح دراسات وطنية من طرف واحد رغم تشابك أطراف عديدة. ولا شك أن في نضج الباحثين ووعي المشرفين ويقظة المسئولين في الجامعات ما يجعلنا في مأمن من هذا المنزلق الخطر، وإن كان النظر إلى هذه النقطة الحساسة ، والحكم عليها يجب هو الآخر أن يصل في تجرده العلمي والقومي إلى درجة

عالية. وإني أدعو بهذه المناسبة إلى ضرورة توثيق الصلات بين الجامعات العربية في الخليج، وإجراء الحلقات والمناقشات المستمرة بين الأساتذة والباحثين خصوصا في الموضوعات من النوع المشار اليه .

وأما الملاحظة الثانية ، فهي أن عرض هذه الدراسات الجامعية لا يعني إعادة مناقشتها، فلقد سبقت مناقشتها بمعرفة أعضاء لجان المناقشة من الأساتذة الفضلاء، ولذلك فهدف هذا العرض مزدوج، هو من ناحية للتنويه بهذه الدراسات، وتعريف القارىء وإعلامه بصدورها، ومن ناحية أخرى، إبداء ملاحظات عامة حول هذه الدراسات تضعها في السياق العام للدراسات حول الموضوع الذي تعالجه . فإن فاتني فضل السبق إلى هذه الملاحظات، فإنني آمل ألا يفوتني فضل الانتفاع بها، والعمل على مقتضاها.

١ ــ النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن ١٦ الميلادي:

بدأت الباحثة دراستها بتخصيص المقدمة لمراجعة أهم مصادرها دراسة نقدية تحقيقية مما يخدم هدفا هاما في التعريف بالمصادر القديمة لدراسة الموضوع، وحدود الاستفادة بكل مصدر.

وتنقسم الدراسة ــ بعد المقدمة ــ إلى أربعة فصول، تعقبها خاتمة بأهم نتائجها، فضلا عن قائمة المصادر والمراجع،وفهرس للخرائط، وتقع جميعها فيما ينيف على ٢٢٠ صفحة. استعرضت في الفصل الأول حالة الخليج العربي قبل مجيء البرتغاليين ، وبينت ظروف ازدهار التجارة والملاحة فيه، وأهمية الخليج في نقل السلع الشرقية إلى موانىء الشام، والأحوال السياسية للخليج في القرن التاسع الهجري (١٥ الميلادي). وفي الفصل الثاني، أوضحت الدراسة العوامل التي أدت إلى الكشوف الجغرافية، وخاصة كشف رأس الرجاء الصالح، ومجيء البرتغاليين في إطار استئناف الحروب الصليبية ضد المسلمين: وأما الفصل الثالث، فقد عالجت الدراسة المقاومة العربية الخليجية والاسلامية العثمانية للنفوذ البرتغالي، وصورت همجية الاستعمار البرتغالي وبربرية وسائله في فرض هيمنته في الخليج. ثم كان الفصل الرابع رصدا لنتائج النفوذ البرتغالي في الخليج.

وقد أثارت الباحثة في دراستها هذه عدة نقاط هامة: أولاها الطابع الصليبي للاستعمار البرتغالي، وأوردت الدراسة الكثير من الأدلة على ذلك، ومحاولة البرتغاليين عقد حلف صليبي مع الأحباش للقضاء على حركة الجهاد الإسلامي بين مسلمي شرق إفريقيا. ويتصل بهذه النقطة أن الروح الدينية كانت واضحة في مقاومة أهالي الخليج، وتصدى العثمانيين المسلمين للهجمة الصليبية الاستعمارية البرتغالية. وربما كانت هذه النقطة بالذات هي التي أخرجت موضوع الدراسة من نطاق التاريخ الحديث للخليج الذي بدأ بالاستعمار البرتغالي، إلى نطاق التاريخ الإسلامي، ذلك أنه يصعب في بعض الأحيان . الفصل بشكل قاطع بين فصول التاريخ الحديث أو التاريخ العام، وبين فصول التاريخ الإسلامي، فلولا النزعة الصليبية التي اتسم بها الاستعمار والغزو البرتغاليين لما كانت هناك رابطة بين هذه الدراسة وبين التاريخ الاسلامي، ومصداقا لذلك، لا يمكن دراسة الاستعمار البريطاني مثلا في إطار التاريخ الاسلامي كذلك مما يحمد لهذه الدراسة إنصافها لنضال أبناء الخليج ضد هذا الاستعمار الذي تفوق إمكاناته وجيوشه القدرات المحلية لأهل الخليج.

وأخيرا اعتمدت الدراسة على مصادر قيمة ومراجع معتمدة. ونأمل في دراستها للدكتوراه أن تتعمق أكثر في تقديم وقائع محددة، وتوثيقها، في الجانب الإسلامي من تاريخ الخليج الحديث فإن شئنا تطبيق هذه الملاحظة على ما يجب أن تعالجه الدراسة المتعمقة لهذا الموضوع، فلكان على الباحث فيه، أن يقدم معلومات وثائقية عن العلاقة بين الحركة الصليبية الأولى (القرون من التاسع حتى الثالث عشر الميلادي) والحركة الصليبية المرتبطة بحركة الكشوف الجغرافية، والجمعيات الدينية الصليبية التي ساندت الحركتين، وظروف المسلمين في الشرق وعلاقتهم بمسلمي الأندلس خلال الهجمة الصليبية الأولى، ومدى إدراك الأخيرين لخطورة هذه الهجمة كمقدمة للانقضاض عليهم.

كذلك يتعين تقديم أدلة وثائقية عن الطابع الإسلامي للمقاومة الخليجية، وتوثيق الطابع الإسلامي لتصدي العثمانيين

للبرتغاليين، وفصل هذا الطابع عن البواعث السياسية التي دفعت العثمانيين إلى ذلك.

٢ ـ العلاقات بين نجد والكويت ١٩٠٢ ـ ١٩٢٢

المرحلة التي تعالجها هذه الدراسة للباحث خالد السعدون من أشد المراحل حساسية في تاريخ الجزيرة، والعلاقات الكويتية السعودية، ولقد عولجت هذه العلاقات من قبل باحثين من الكويت أيضا، وبعضهم من الأسرة الحاكمة، ولذلك تقع هذه الدراسات في دائرة ما أشرنا إليه في «الملاحظة الأولى» المطولة في صدر هذا العرض.

وتنقسم دراسة السعدون إلى خمسة فصول، بين المقدمة والخاتمة.

تقدم في الفصل الأول مدخلا لموضوع الدراسة، فتحلل وضع الدولة العثمانية، والصراع الدولي على الخليج أواخر القرن ١٩، ووضع الكويت حتى توقيع اتفاقية ١٨٩٩، وتطور العلاقات بين حائل (بن الرشيد) والكويت، والصراع بينهما في معركة الصريف عام ١٩٠١. أما الفصل الثاني، فقد عالج فيه الباحث مرحلة التحالف المطلق بين الشيخ مبارك حاكم الكويت، و«الأمير» عبد العزيز، طوال العقد الأول من هذا القرن، وموقف الشيخ مبارك من الصراع بين عبد العزيز وآل الرشيد، كذلك موقف الانجليز والعثمانيين. وخصص الفصل الثالث لمرحلة الاختلاف بين مبارك وعبد العزيز ضمن إطار التحالف، واستغرق الفترة من ١٩١٠ حتى وفاة الشيخ مبارك في ١٩١٥/١١/٢٩.

في «الفصل الرابع»، بلغت ذروتها باتهام الكويت لعبد العزيز بأنه حرض دعيج وقبيلة المطير للاشتباك مع القوات الكويتية في حمض في ١٩٢٠/٥/١٨ (ص٢٢١) وتم تدارك سوء الفهم بين الجانبين، على أساس الرجوع إلى الصداقة التقليدية التي قامت دائما بين عبد العزيز وآل صباح، ولكن بعد الصدام المسلح بين الجانبين في معركة الجهرة. ويبدو أن سبب التوتر راجع إلى العلاقة الشخصية بين الشيخ سالم حاكم الكويت، وعبد العزيز، فتقول الدراسة أنه ما أن علم عبد العزيو بنبأ وفاة سالم حتى أبلغ خليفته أحمد الجابر بزوال كافة أسباب الخلاف بينهما، وبعدم إصراره على تخطيط الحدود بين البلدين، وأمر بفتح الحدود بين البلدين وتأمين أتباع آل الصباح.

والذي يقرأ رسالة خالد السعدون لا تخطئه سمتان أساسيتان فيها، أما السمة الأولى ، فهي الطابع التحليلي النقدي وحسن سبك الرواية وتمحيص الواقعة مع جودة الاستعانة بالمراجع، وهذه سمة تدل على أصالة الباحث. وأما السمة الثانية فهي سلامة اللغة وجودة الأسلوب، ولو كان جهد المشرف على هذه الرسالة قد وقف عند حد التوجيه والتقويم، لكننا بإزاء باحث واعد حقا، له شأنه في مستقبل الأيام، مما يدعونا إلى ترقب رسالته للدكتوراه بشغف كبير.

والحق أن هذه الرسالة قد سدت فراغا في هذا الباب في العلاقات النجدية الكويتية، وعالجت أحداث الفترة بشكل متجرد وحب للحقيقة، فقدمت بذلك خدمة كبرى وقطعت معظم الشوط نحو تحقيق هدفها.

على أن إبراز أثر العلاقات الشخصية بين زعماء البلدين، قد يغري الباحثين في العلوم السياسية، وبالذات في العلاقات الدولية، إلى تناول العلاقات بين البلدين باستخدام مناهج البحث الخاصة بهذا الموضوع. وأحسب أن هذا الموضوع يحتاج فعلا إلى تناول سياسي بعد ارساء الجانب التاريخي في هذه الدراسة. وقد يلمس القارىء أهمية مثل هذا التناول السياسي حين يحس بعدم الاقتناع الكامل بالروايات والشروح التي ساقها الكاتب. من ذلك أن الدوافع الساسية وحدها لا يمكن أن تفسر سلوك الشيخ مبارك تجاه الإمام عبد العزيز، وغير ذلك من القضايا الكبرى، التي قد يفيد المنهج السلوكي والشخصي في العلاقات الدولية اجلاء ما غمض منها، فيستقيم بذلك فصل هام من فصول العلاقات السياسية بين المملكة العربية السعودية والكويت.

ميزان النقد بين الحقيقة والتجريح

أحمد عبد الدايم عبدالله

كلية اللغة العربية ــ جامعة أم القرى

كتب الدكتور محمد عبد المجيد الطويل مقالا، نشر في العدد الرابع (ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ) تحت عنوان «البارع في علم العروض» لابن القطاع السعدي وعنوان المقال يوحي لأول وهلة، أن الكاتب سوف يقدم عرضا شاملا، يقدم من خلاله تلخيصا وافيا للقارىء الكريم عن الكتاب معرفا بمؤلفه ومحققه، ثم يقدم نقده حسب وجهة نظره التي يراها.

ومفهوم النقد، أن يظهر الناقد ما في الكتاب ــ أي كتاب ــ من محاسن قبل أن يتناول ما فيه من مثالب.

وأفهم أيضا ــ وكثيرون غيري ــ أن المقال العلمي يجب أن يتجرد صاحبه عن الهوى، وأن لا ينزلق قلمه إلى التجريح، وأن يتجنب في آرائه حشد العموميات، اكتفاء بذكر وقائع محددة، يضع يد القارىء عليها بصدق وأمانة، دون هوى أو سخرية، تخرج المقال عن ثوبه العلمي وتجعله عاريا عن كل ما يستره أمام القارئين.

وأنا ــ حقيقة ــ لا أريد أن أتملص من بعض الأخطاء التي وقع فيها الكتاب، ولكن الذي أريد أن أقوله، أن معظم الملاحظات التي ساقها الناقد، كانت مثار نقاش في جلسات بين أخوة متشاركين كان هو أحدهم ملاحظا ومتابعا ومستمعا، ثم ضم إلى مقاله كلّ ما قيل في جلستنا من نقاش، بل آكد للقارىء أنني عرضت عليه قبل سنوات ثلاث كل جهدي في تحقيق الكتاب موضوع النقد ودراسته، مكتوبا بخط يدي قبل طبعه، طالبا منه ــ وهكذا جرت عادتنا في دار العلوم ــ أن يضع عينه مع عيني، فالعينان تريان ما لا ترى العين الواحدة، لعله يقع على شاردة أو شائبة نُخَلِّص منها الكتاب قبل طبعه، ورده إليّ قاطعا بأنه لا يمكن إضافة جديد إلى ما فيه من جهد!!.

واليوم، أطالع مقالا للأخ الكريم ، فرحت له لأول وهلة معتقدا بأنه سيقدم تهنئته بمولود جديد، فإذا به يحفر للمولود قبرا يحاول أن يئده فيه رضيعا، فسامحه الله وعفا عنه.

وهذه هي ملحوظاتي على المقال :

(أ) : يقول الدكتور الطويل « والآن ، ماذا أضاف ابن القطاع إلى الدراسة العروضية بكتابه هذا؟ يقول المحقق ــ يقصدني ــ عن الكتاب : وهو كتاب تعليمي ممتاز، يسَّهل مهمة تعليم العروض، وفي نفس الوقت، كتاب جامع استقصى فيه المؤلف كل ما يمكن أن يدخل البيت من زحاف وعلل.. ولا أعتقد أنه وصلنا كتاب قبل هذا في العروض بأمثلته الوافية، اللّهم إلا كتاب الكافي في العروض والقوافي، للخطيب التبريزي ت ٥٠٢ هـ وهو معاصر لابن القطاع، لكن هذا الكتاب (الكافي) لا يرقى إلى مستوى الجودة التي توفرت لكتاب البارع».

والناقد للأسف خروجا عن كل تقليد علمي، وبعدا عن كل مبدأ نقدي جمع أسطر هذه الفقرة التي توحي باتصال معانيها من صفحات (٣٣ ــ ٣٤ ــ ٣٥) أخذ ما أراده وترك ما لا يرضيه، **بعضها كتبته تحت عنوان «حول المخطوطة» وبعضها**

الآخر تحت عنوان «حسنات ابن القطاع في الكتاب». وليس في هذا الأسلوب من النقد شيء من الأمانة العلمية، حيث لا يجوز لناقد أن يجمّع فقرة ناسجا سطورها بترا من مواضعها، لما في ذلك الأسلوب من تضليل للقارىء وتجن على الكاتب.

ومع هذا أنظر ماذا يقول الناقد تعليقا على ما سبق

يقول «وهذه حماسة من المحقق، يدفعه إليها تعايشه مع ابن القطاع وهي مبالغة ترفضها طبيعة الأشياء، ثم إن تعبيره (لا يرق إلى مستوى الجودة) لا يصلح أن يطلق على تراث فكري أيا كان موقفنا منه ، إن مستوى الجودة هذه تطلق على علب الحلوى، وما شاكل ذلك»!!.

وأنا بدوري أسأل الدكتور: وأية حماسة ترى فيما ذكرت؟ ألست أقرر حقيقة مفادها: أنه لم يصلنا كتاب قبل «كتاب البارع» بأمثلته الوافية إلا كتاب الكافي الذي لا يصل إلى المستوى العلمي الذي بلغه كتاب البارع؟!!.

كان الواجب يا سيدي يحتم عليك أن تذكر لي ولو كتابا واحدا يدحض رأيي ويطفىء حماسي، بعيدا عن تلك الألفاظ السوقية التي لجأت إليها (إن مستوى الجودة هذه تطلق على علب الحلوى).

أي نقد هذا الذي يبيّح لناقد أن يسخر من الآخرين دون مبرر؟، بل وأي نقد ذلك الذي يبيح لناقد استعمال مثل هذه الألفاظ السوقية في بحث كنت أظنه علميا، لا يخوض مخاض التجريح ولا يسلك مسلك السخرية؟!.

(ب) : ثم بعد هذه السخرية، بدأ الناقد يسلك طريقا فيه تعميم ومبالغة، تدل على نية غير سليمة، لكنها قد تنطلي على قارىء لم ير الكتاب، من ذلك قوله في مجال ذمّه لجهد ابن القطاع في كتابه «فقد استفرغ ابن القطاع جهده في حصر الأبنية المهملة والزحافات الشاذة واستشهد لها بأبيات لا تقل عنها غرابة وشذوذا، وحسبك أن تعلم **أنني أحصيت له أكثر من مائة شاهد** من الشعر يقول عنها المحقق لا أعرف لها قائلا، **ومثلها تقريبا** لم يعلق عليها بشيء، **زيادة على صفحات كثيرة، ملأها بحديث عن الزحافات وأنواعها** وأمثلتها وأضربها، وهو حديث لا طائل من ورائه».

ويبدو أن اتهام الزميل العزيز لي بالتعميم، قد أباحه لنفسه **حيث لم يسلم هو منه «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم»**. ومع هذا سأرد عليه ردّا موضوعيا مدفوعا بالدليل حتى أفوت عليه ما أراده.

أولا : القارىء يفهم من كلامه هذا أن شواهد الكتاب الشعرية تزيد عن مائتي شاهد (أكثر من مائة شاهد يقول عنها المحقق لا أعرف لها قائلا، ومثلها تقريبا لم يعلق عليها بشيء) وخاصة أنه يؤكد أنه أحصى ذلك. بينا لو كان الناقد يبغي الحقيقة وينشد الدقة لنظر إلى فهرس الشواهد الشعرية في آخر الكتاب حيث يجدها (١٩١) مائة وواحد وتسعين بيتا فقط.

ثانيا : نسبت منها أربعة وستين شاهدا إلى قائليها.

ثالثا : رددت منها سبعة وسبعين شاهدا إلى مصادرها العروضية والمعجمية المختلفة، التي ذكرت فيها وجميعها لم تنسبها إلى قائل.

رابعا : هناك سبعة وعشرون شاهدا جاءت شواهد لبحور مهملة أضافها ابن القطاع على مهملات الخليل، وقطعت بأنها من صنع ابن القطاع.

خامسا : هناك ثلاثة وعشرون شاهدا وردت شواهد لزحافات نادرة أو شاذة، لم يقل بها العروضيون من قبل وهي أيضا من صنع ابن القطاع، كأن يأت لنا ببيت مخبون كله أو مضمر كله أو مشعث كله.. الخ الخ .. لذلك تركتها دون نسبة، وكيف لي أن أنسب أبياتا لم ترد من قبل، وإن وردت صمتت المراجع ازاءها.

سادسا : لن أتأخر لحظة واحدة عن شكر الزميل العزيز إن تفضل علينا بنسبتها إلى ذويها، غير ذلك البيت الذي أقام عليه الدنيا، ناسبا له إلى سلمى بن ربيعه، والذي توصلنا إلى نسبته قبل أن ينشر بحثه بعام كامل.

سابعا : يبدو الاضطراب واضحا على أحكام الزميل العزيز، فحيث يقرر أنه (أحصى) والاحصاء يفيد معرفة العدد بدقة إلا أنه يردف قائلا (أكثر من مائة) مع ما في كلمة أكثر من عمومية، ثم يواصل اضطرابه قائلا «(ومثلها تقريبا» ناسيا أن الأحكام التقريبية لا يحسن اتخاذها في مقال علمي يتحرى الدقة وينشد الحقيقة.

ثامنا : **يقول الناقد إن ابن القطاع ملأ صفحات كثيرة** بحديث عن الزحافات وأنواعها وامثلتها وأضربها، وأحال القارىء على ص ٥٥ وما بعدها من الكتاب ليرى نموذجا لما يقول، ولقد نسي الدكتور أن صفحة ٥٥ وما بعدها وما قبلها من ص ١ إلى ص ٦٦، دراسة حول المؤلف والكتاب وجهدي فيه حول العروض والموسيقى وموضوعات شتى لا دخل لابن القطاع فيها، حيث يبدأ كتابه اعتبارا من ص ٦٧ وما بعدها. فكيف يؤاخذ الناقد رجلا لم يرتكب ذنبا ولم يقترف جريرة؟!.

(جـ) : وأخطر الأشياء التي مارسها الدكتور في نقده، بتر النصوص لصالح رأيه، حيث يحذف منها ما ليس في صالح نقده، ويبنى موضوعا يقدمه دليل إدانة يفهمه القارىء عكس ما كان يمكن أن يفهمه لو قرأ النص كاملا، يقول الناقد:

«في ص ٤٦ ينقل المحقق نصّا للأخفش يقول فيه، إن العلماء جمعوا كل ما وصل إليهم من أبنية العزب، فعرفوا عدد حروفها ساكنها ومتحركها، وهذا البناء المؤلف من الكلام هو الذي تسميه العرب شعرا،فما وافق هذا البناء الذي سمته العرب شعرا في عدد حروفه وساكنه ومتحركه فهو شعر، وما خالفه وإن أشبهه في بعض الأشياء فليس يسمى شعرا».

ويضيف الناقد «وبعد ذلك يعلق المحقق على هذا الكلام بقوله: أعتقد أن قول الأخفش أبلغ رد على دعاة الشعر (الذي يسمونه بالحر) في عصرنا الحديث، نعم إن ما نسميه من شعر حديث — كما يدعون ما هو إلا لون من القصور الفكري واللغوي، وضعف عروضي واضح لا نقرهم عليه .. بل نرفض كل نماذج تخرج عن البناء التقليدي لأشعار العرب».

ويعلق الناقد على كلامي السابق بأشياء غريبة، ويتهمني فيها بعدم الفهم، ثم ينسب إليّ أشياء لم أقلها، يقول :

«وهذا كلام في غاية الخطورة، فأولا نص الأخفش **لا يفيد هذا**، وليس فيه ما يجعل المحقق يذهب إلى ما ذهب إليه.

ثانيا ، من قال ان شعر نزار قباني والسياب والبياتي وصلاح عبد الصبور ونازك الملائكة وغيرهم لون من القصور الفكري واللغوي؟»

وليسمح لي الأخ الناقد بأن أتهمه بنفس اتهامه لي، بأنه لم يفهم ما ذهبت اليه.

فأولا : بتر نص الأخفش السابق بطريقة مخلة للأمانة العلمية، وأرجوه أن يقرأ النص مرة أخرى ببقيته الآتية، لعله يراجع نفسه، ويستغفر الله عما بدر منه، وبقية النص «لأن الأسماء لا تقاس ولا تسمى ما سمى بالاسم الذي وضعوا عليه ألا ترى أن الحائط مرتفع من الأرض، وليس كل ما ارتفع من الأرض فهو حائط، لأن الدكّان والرابية مرتفعان من الأرض وليسا حائطين، فمن زعم أن كل ما ألفه شعر لأنه مؤلف، فيلقل إن الدكان حائط لأنه مرتفع من الأرض، وليقل إن الخطبة والرسالة شعر لأنه مؤلف».

أليس الأخفش في نصه هذا يرفض كل بناء شعري يخرج على الأبنية التقليدية؟ ويرفض كل نموذج يشبه في تركيبه الرسالة والخطبة؟.

ثانيا : لقد استشهدت بقول الأخفش السابق لتدعيم رأي آمنت به، وهو رفض كل محاولة للخروج على أبنية العرب الشعرية الموروثة، أفليس من حقي أن أدافع عما اعتقدت؟.

ثالثا : الكتاب، ليس موضوعه لدراسة الشعر الحر، وإنما اختصرت رأيا قيل عنه، والوقوف ضد الشعر الحر لم يكن دعوة انفردت بها، فهي قضية يدرك ابعادها الدارسون لأدبنا المعاصر.

رابعا : يبدو أن الناقد لا يدرى أن ما يطلق عليه اسم «مدرسة الشعر الحر» لا يعنى بالضرورة كل نماذج التجديد والتي جرت في الآونة الأخيرة، بل يعني أولئك القوم الذين لا يلتزمون قافية ولا وزنا، متحررين من كل قيد، حتى غدت كتاباتهم غير ذات حدود أو فواصل تفصلها عن ألوان فنون الأدب الأخرى بل غدت أقرب إلى الرسائل والخطب. فهل فيما قلت ذكر لنزار والسياب والبياتي وصلاح عبد الصبور ونازك كما حاول الناقد إيهام القارىء به؟!.

(د) : يعتب الناقد بأنني بالغت في نعوتي التي أطلقتها على عبقري العربية الفذ الخليل بن أحمد، وأنا أسأله بدوري: هل الخليل يحتاج الآن يا طويل إلى تقويم؟.. ترتع في خيره وتعيش على كلامه ومن كلامه، وتقول على كلامي أنه مبالغة!!.

ثم تتهمني بأنني أدور حول هذه القضية .. وأنا مصرّ على أن أدور وأدور، ولو شئت لأفصحت عنها في كتب، إن واحدا يلتفت إلى شاهد فرد شاذ، جاءه صدفة، فيقيم الدنيا ويقعدها،

فخرا وابتهاجا، ولا تريدني أن أتحدث عن فضل رجل لم يترك للآخرين فيما كتب شيئا، ولا زال علم العروض ـــ مثلا ـــ لا يؤخذ إلا عنه؟.

معك حق .. ألست القائل في (ص ٥٥٨) من مقالك هذا «وإن كنا مع هذا لا نعدم أن نجد من يقول: لقد كشف البحث المتقصي. أن عمل الخليل ذو طبيعة تعميمية، يتخذ الاستقراء النسبي مركزا لتطوره، وينتفي نتيجة كون عمله حصرا مطلقا لجسد الشعر العربي»؟!.

(هـ) : يقول الناقد «في ص ٥٣ يتحدث المحقق عن فاع لاتن ومستفع لن ذواتي الوتد المفروق ـــ وهما من سخافات العروض العربي، ومن الأشياء المثيرة للطلاب، حين يسألون المعلم عن الفرق بين مستفعلن ومستفع لن وفيه فاعلاتن وفاع لاتن، فلا يجد المعلم إجابة سوى أن يقول إن هذه ذات وتد مجموع وتلك ذات وتد مفروق، فإذا سأله، ولم كانت بوتد مفروق؟ لم يجد إجابة اطلاقا إلا أن هذا حكم دائرة السوء».

هذا ما قاله الناقد.

والسؤال له هنا : هل قرأت ما كُتِبَ عن الوتد المفروق تماما حتى تصدر هذا الحكم التعميمي؟.

هل قرأت ما كتبه ـــ مثلا ـــ الدكتور أحمد كشك وهو عنك ليس ببعيد؟ أو حتى هل قرأت ص ٧١، ص ٧٤ من كتاب البارع نفسه لتدرك أهمية التفريق بين هذه الأجزاء؟.

إنني خَطَّأْتُ ابن القطاع من منطلق أنه لم يذكر هذين الجزئين ضمن أجزاء التقطيع، بينما تحدثت عنهما وعن قيمتهما في صفحتي ٧١، ٧٤. فارجع إليهما إن شئت المعرفة، فكونك لا تعرف فرقا بينهما لا يقوم دليلا على سخافتهما وهجومك عليهما.

وأنا أسألك سؤالين اجابتهما كافية لتعرف قيمتهما :

ـــ هل يجوز كف فاع لاتن التي بعدها فعولن؟

ـــ هل يجوز في عروض «المضارع» الخبن أو القبض أو المعاقبة؟

راجع الصفحتين السابقتين لتعرف الإجابة.

(و) : يقول الناقد في ص ١٠٢ «استشهد ابن القطاع بالبيت التالي:

إن شواء ونشوة   وخبب البازل الأمون

وعلق عليه المحقق بقوله : لم أعرف قائله وورد في كتاب سيبويه ٢/٢٠٦ والعيون الغامزة ١٦٠، وقد رجعت إلى فهارس سيبويه للاستاذ عبد السلام هارون والاستاذ الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة فلم أجد بها هذا البيت».

وأرجو أن يسمح لي الأخ الناقد بأن يتعلم مني شيئا في أصول البحث العلمي، فالباحث عليه أن يرجع إلى صلب المتن المشار إليه، لا إلى الفهارس والملحقات إن أراد أن يتأكد من شيء أليس هذا من أهم وسائل البحث والتقصي والتتبع في الأعمال العلمية؟.

(ز) : يقول الناقد في موضع آخر من مقاله «ولكن بقي شيء مهم جدا، وهو اضطراب المحقق في ذكر مراجعه اضطرابا شديدا فهناك مراجع نجدها في صلب الكتاب ولا نجدها في قائمة مصادره ومراجع تذكر بأسمائها فقط، ومراجع تذكر خطأ، وأسماء محققين خطأ، وإليك أمثلة لكل هذا.

أولا : هناك أكثر من عشرين مرجعا تتردد أسماؤها كمراجع في صلب الكتاب وفي هوامشه ولا تجد لها ذكرا في قائمة مصادره من ذلك مثلا، كتاب العروض للأخفش».

وليسمح لي الناقد العزيز أن أهمس في أذنه بالآتي:

اختلفت المدارس العلمية اختلافا بينا فيما بينها في طريقة رصد المراجع، فمنها من يكتفي بذكر المراجع في الهامش فقط، ومنها من يكتفي برصد المراجع جميعها في نهاية الكتاب دون ذكر لها بالهامش، وهناك من يذكرها في الهامش ويصنفها أيضا في نهاية البحث أو الكتاب. وهذه المدرسة الثالثة تخص المصادر الأصلية بنهاية الكتاب تحت ما يسمى «ثبت المصادر» أما المصادر الثانوية غير الفاعلة في الكتاب فيكتفي بذكرها بالهوامش فقط، وهذا ما سرت عليه، فأي خطأ ترى في ذلك؟.

ثم لماذا التعميم والتهويل : تقول (أكثر من عشرين مرجعا) لماذا لا تحدد قاطعا: هل هي عشرين أم أكثر أم أقل؟ أم هي طريقتك في التعميه و(التعميم).

أما بخصوص كتاب «العروض» للأخفش، فأنت قبل غيرك تعلم أنه مخطوط تشرفت بمهمة تحقيقه وإخراجه، وسوف تكون نسخة منه في يدك قريبا، ثم إنني كتبت في نهاية الكتاب أنه «تحت الطبع» أليس هذا يكفي.

أنا لست في حل لأن أذكر لك ما منعني من تقديم بيانات عن كتاب «العروض» للأخفش، وإن كنت متأكدا من أنك وغيرك في دار العلوم يعرفون.

ثم لعلك تعلم ــ بل أنت تعلم ــ الظروف التي أحاطت باخراج كتاب البارع في علم العروض لابن القطاع، كي يصل إلى أيدي طلاب دار العلوم قبل فوات العام الدراسي، وما لعبه الطابع من دور في سوء الطبع، أدى الى كثير من الاضطراب قمنا بتصحيحه في حينه وهو بين يدي الطلاب.

وأطمئنك وأطمئن القراء، أن الاصدار الثاني لكتاب البارع في طريقه للانجاز وسوف نهديك نسخة، لعلها تروقك، وتحظى بجيدة منك.

عزيزي : ما انزعجت إلا بقدر تلك السخرية التي أطلقتها ازاء جهد قَصَّرْتَ في حق تقويمه، فزينت العيوب وأحطتها بعناوين ظالمة، وأغفلت جهدا ووقتا طويلا، مكث صاحبه قرين حروف لا تكاد تُقْرَأُ أو تبين، فلماذا لا تسدي الفضل كما أسديت السخرية والنقد؟.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أسدي الشكر الجزيل لزميلي الصديق محمد الطويل، فقد أتاح لي فرصة الدفاع عن النفس كما أتاح لكتابي أن يصل إلى أسماع وعقول الكثيرين من القراء وأشكره أيضا على ما بذل من جهد في القراءة والتتبع والاستقصاء، راجيا أن يتسع صدره لنا، وأن يقدم لنا وللقراء ما يمكنا من رد الجميل.

جزاك الله على كل حال خير الجزاء. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ صدق الله العظيم.